سيرة نبي الهدى والرحمة

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف الأستاذ
عبد السلام هاشم حافظ

البحث الفائز بالجائزة الخامسة لمسابقة السيرة النبوية
التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي

رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
مكة المكرمة

سيرة نبي الهدى والرحمة

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف الأستاذ
عبد السلام هاشم حافظ

البحث الفائز بالجائزة الخامسة لمسابقة السيرة النبوية
التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ ١٩٨٢م
مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة
نبي الهدى والرحمة

كلمة

معالي الشيخ محمد علي الحركان

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشّر وأنذر ووعد وأوعد أنقذ الله به البشر من الضلالة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ، وبعـــد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى: « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » فكان هذا من الأسباب التى صيرت القلوب تهفو إلى محبته صلى الله عليه وسلم ، وتتلمس الأسباب التى توثق الصلة فيما بينها وبينه صلى الله عليه وسلم ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه ، ونشر سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم ، وسيرته صلى الله عليه وسلم هى أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمـــة . فقد قالت السيدة عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » والقرآن كتاب الله وكلماته التامة ، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعا .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة العالية التى انبثق عنها المؤتمر الإسلامى الأول للسيرة النبويـــة الشريفة الذى عقـــد بباكستان سنة ١٣٩٦هـ ، حيث أعلنت الرابطة فى هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودى توزع على أحسن خمسة بحوث فى السيرة النبوية بالشروط الآتية :

(١) أن يكون البحث متكاملا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .

(٢) أن يكون جيدا ولم يسبق نشره من قبل .

(٣) أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التى اعتمد عليها فى كتابة البحث .



(٤) أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .

(٥) أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .

(٦) تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .

(٧) يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الثانى ١٣٩٦هـ ، وينتهى موعد القبول بغرة محرم ١٣٩٧هـ .

(٨) تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة فى ظرف مختوم وتضع الأمانة عليه رقما تسلسليا خاصا .

(٩) تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء فى هذا الشأن .

فكان هذا الإعلان حافزا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستعدت رابطة العالم الإسلامى لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .

وبدأ الإخوان الكرام فى إرسال بحوثهم بهذه اللغات ،وقد بلغ عددها واحدا وسبعين ومائة بحث منها :

٨٤ بحثا باللغة العربية . ٦٤ بحثا باللغة الأردية . ٢١ بحثا باللغة الإنجليزية وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية .

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتى :

(١) الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفى الرحمن المباركفورى من الجامعة السلفية بالهند ، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودى .

(٢) الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجيد على خان من الجامعة المحلية الإسلامية نيودلهى الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودى .

(٣) الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودى.

(٤) الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودى .

(٥) الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودى .

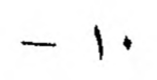
وقـــد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين فى المؤتمر الإسلامى الآسيوى الأول الذى عقـــد فى كراتشى فى شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ . كما أعلن عن ذلك فى جميع الصحف .

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلا كبيرا تحت إشراف صاحب السمو الملكى الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة نيابة عن صاحب السمو الملكى الأمير فواز بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ . وفى هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات، وتنفيذا لذلك هاهي ذي تضـــع بين يدي القارئ الكريم البحث الخامس وهـــو للأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية .

سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم أنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العام
لرابطة العالم الاسلامي
محمد علي الحركان



ترجمة المؤلف عبد السلام هاشم حافظ

** ولد بالمدينة المنورة فى اليوم السابع من جمادى الأولى عام ١٣٤٧ هـ يوافق عام ١٩٢٩م .

** فـى المدينـة المنورة تلقى تعليمه حتى الشهادة الابتدائية نظـام قديم عـام ١٣٦١هـ .

** أكمـل تعليمه بالمسجد النبوى ومراجعة رجال العلم والأدب ، حيث حالت إصابته بمرض القلب يومها دون سفره لاستكمال دراسته النظامية ، ودرس فنون الأدب على نفسه إرضاء لهوايته التى أصبحت مع الأيام رسالة ومسئولية ، إذ أصبح يتلقف كل كتب المعرفة والثقافة المتنوعة ، حتى تمكن من أن ينتج فى الشعر والنثر ما يُعتبر اليوم إسهاماً فى النهضة الأدبية فى بلادنا . . وقـد زادت مؤلفاته على الأربعين كتابا . .

** فقد والده طفلاً ، ورعاه عمه (السيد عبد القادر) الذى تزوج بوالدته ، وتأثر بحياته كثيرا .

** فى صغره أصيب نتيجة لحقن إبرة فى العضل بما يُشبه شلل الأطفـال بقدمه اليسرى ، ترك بها أثراً واضحا . . وفى شبابه اضطر إلى إجراء جراحـة بالقلب لإصلاح ما أفسده الروماتيزم .

** عمـل بالوظيفة الحكومية من سنة ١٣٧٥ هـ حتى نهاية عام ١٣٧٩ هـ بقسم المباحث فى شرطة المدينـة ، وتقاعـد بطلبه بعد جـراحة القلب ، للراحة والتفرغ للأدب ، والتحق بالتعاقد مراقبا للمطبوعات فرع وزارة الإعلام بالمدينة المنورة منذ بداية عام ١٣٩٥هـ حتى الآن .

** كان قد عمل كأمين لمكتبة مشروع توسعة المسجد النبوى بين عامى ٧٢ — ١٣٧٤هـ .

** أصدرت له وزارة الثقافة المصرية كتابه (الرافعي ومىّ) ، كما أصدر له المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة كتابه (الصيام عبر التاريخ) ، وسينشر له كتاباً آخر قريبا .

** لمدة ثلاثة أعوام كان يحرر الصفحة الأدبية لجريدة المدينة المنورة ، ولنفس المدة ، كتب لمجلة قافلة الزيت (الحركة الأدبية فى العالم العربى) ولمجلة المنهل (رسالة المدينة المنورة) .

** فاز بحثه (الإمام ابن تيمية) فى مسابقة الأعلام التى أقامتها وزارة المعارف سنة ١٣٨٤هـ ونشرته دار الحلبى بمصر .

** منحته لجنة الشعر العالمية فى بريطانيا الميدالية الفضية للشعر عام ١٩٧٤م .

** يشترك فى عدة نواد وروابط أدبية في داخل وخارج المملكة .

** تزوج منذ عام ١٣٧٤هـ وأنجب خمسا من البنين وثلاثة من البنات . .

** يواصل رسالته الأدبية حتّى على حساب صحته ، ويأمل أن يوفر له المسئولون في الدولة تفرغه للأدب رجاء أن يحقق الكثير من الأعمال الأدبية التى يلتزم بها ولا يجد وقتا لتكملتها . . ومن الله العون والتوفيق .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

سورة الفتح (٤٨) الآية ١ ــ ١٠

الاهـداء

بقلـبي اشتيـاق وأنت مُنـاه
نبي الهـدى يا جمـال الحيـاه
إليك أرد بـهيّ المعـانـي
بتـاريخـك الطـهر : تـزهـو رُؤاه
لسيرة أعظـم مـن في الوجود
يفيض جـلالاً ويشـدو بهـاه
إليك حبيبي أصـوغ الشعـور
بصـدق الـولاء ونفـح شـذاه
فهذي سـطور أديـب محـب
يـرجـي الشـفاعـة عنـد الإلـه
وأنـت الشـفيع بيوم الخلـود
وأنت الهـدى نهتـدي فـي خطـاه
فـؤادي يُـديم عليـك الصـلاه
وروحـي بنجـواك تحي الصلاه
نبي الهـدى يا جمـال الحيـاه
بقلبي اشتيـاق وأنت منـاه

المدينة المنورة ـ ١٣٩٦/١٢/٣هـ

عَبدالسَلام هاشم حافظ

تمهيد

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سورة الشورى (٤٢) الآية ٥٢ — ٥٣

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

** إنما بعثتُ لأتمم مكـــارم الأخـــلاق **

أكمـــل خلق الله

العراقة فى الأصل . . والعزة فى النسب . . هؤلاء هم الأجداد العرب . . وهم من أبناء قحطان . . وإسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - جد خاتم الأنبياء والرسل : محمد بن عبد الله . . صلوات الله وسلامه عليه . . (نبيّ الهدى والرحمة) . . صاحب هذه السيرة العطرة . . وقد وفقنا الله - له الحمد - إلى إعدادها . . استجابة إلى نداء كريم . . كبحث متكامل . . ينتظم معانى حياته الطاهرة وأسرار جهاده الكبير . . وجواهر رسالته السمحة إلى البشرية جمعاء . .

عناه جل جلاله فى قوله تعالى :

- (وما أرسلناك إلا كافة للناس) . .

- (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون) . .

وبوحى منه تعالى فى كتابه المجيد ، يُخاطب الرسول الخاتم - عليه الصلاة والسلام - كافة الأمم :

- (يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) . .

هذا هو الإمام الهادى . . نبى الإسلام والهدى . . رسول الحق والرحمـــة . . أكمل الله خَلْقَه وخُلُقَه . . ليهيئه للمعجزة الخالدة . . آخر رسالات السماء : القرآن الكريم . . كتاب مكنون . . وهو الذكر الحكيم . . قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . .

وعنه تحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (القرآن أحب إلى الله من السموات والأرض وما فيهن) . .

وفيه تُحدد أولى صفات الإعجاز له (صلى الله عليه وسلم) فى قوله تعالى عنه : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القُوى) . .

الدين هو الاسلام

العلم الذى أخذه (صلى الله عليه وسلم) هو الإسلام . . أخذه عن موجد هذا العالم ومكونه ومبدع خلقه . . تعالى وتقدست أسماؤه وصفاتُه . . جعل الإنسان خليفته فى الأرض ، وقد صوره فى أحسن تقويم . . وزوده بكل النعم والقوى التى تمكنه من الإنتاج والعطاء . . كما منحه من الإرادة ما تجعله يبدع ويفتنّ فى شئون حيـــاتـــه . .

وقبل أى شئ أراد سبحانه أن يُعبد فى الأرض كما عُبد فى السماء . . فقال سبحانه : (وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون) . .

من أجل هذه الحقيقة . . وقد كان يتكرر النداء للأمم أن تَعبد الله وحده . . فتكفُر وتشتطّ عن طريق الله . .

أرسل الله الإنسان الكامل : محمدا الرحمة المهداة . . صلى الله عليه وسلم . . بدين الإسلام . . وأوحَى إليه بكتابه المجيد خلال ثلاثة وعشرين سنة . . خلاصة التعاليم الأزليـــة . .

وبتأكيد على الحق قال تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) . . عبادة وشريعة ودستورا . . لخير الأمم فى هذه الدنيا العابرة . . وفى دار البقاء وإسعادها . .

وكان لا بد أن يجئ هذا الدين القويم . . وقد سادت أدواء شتى من الجاهلية . . وأُلِّهت الأوثان فى البلد الحرام وبجوار بيت الله الذى بنى قواعده النبى إبراهيم الخليل عليه السلام . . بعد طوفان نوح عليه السلام . .

دعوة التوحيد

لقد مرت بالبشرية أحقاب طويلة . . قدرت بما يقرب من أربعين قرنا ، تعاقب خلالها الرسل والأنبياء — عليهم السلام — يدعون إلى توحيد الله . . ويجحد الناس . . وتتنوع وسائل شركهم . . قبل أن يأتى إبراهيم الخليل — عليه السلام — بالملة الحنيفية . ينقذ الناس من ضلال الوثنية . . فقاوم العتاة وحطم الأصنام . . واستجاب إلى دعوة ربه تعالى لبناء بيته الحرام بقلب مكة المكرمة . . ويقول له ربه تعالى : (إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) . .

ثم يقول الخليل من دعائه فى القرآن الكريم : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) . . .

ويدعو هو وابنه إسماعيل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) . .

دعوة الخليل إلى ربه كبشرى للأمم بآخر الأنبياء والرسل . . رسولاً يعلمهم ويهديهم سواء السبيل . . صلى الله عليه وسلم .

اليهودية

وتمضى السنون . . ويعود الناس إلى هوى نفوسهم . . ويستشرى الفساد والطغيان . . ويعود تتابعُ الأنبياء بدعوة التوحيد . . حتّى جاء النبى موسى — عليه السلام — قبل نحو خمسة عشر قرنا للميلاد . . ويُنزل الله تعالى عليه (التوراة) كدين وكتابٍ وتعاليم لليهودية . . لإخراج الناس من تيه الضلالة والإشراك . .

وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين

أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) . .

ويظل موسى — عليه السلام — في دعوته . . واليهود يناوئون ويتعللون . . يفسقون ويعبدون غير الله تحديا وغيظا . . حتى ارتفع بدعائه إلى الله تعالى : (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) . .

ويؤدبهم الله تعالى بالتيه أربعين عاما ، خرجوا منه وهم أشد وحشية وضراوة كفر . . حتى جاءهم النبي داوود — عليه السلام — بكتاب آخر . . وقال تعالى : (وآتينا داوود زبورا) . .

ولكنهم جُبلوا على المكر والخديعة والكفران . .

المسيحية

وتتصل حلقات الصراع . . واليهود لاينفكون يغيرون تعاليم الرب . . تعالى عما قالوا علوا كبيرا . . ويتصل مجيء الأنبياء . . ويُقتل بعضهم بأيدي أولئك الكفرة الفجرة . . حتى جاء عيسى ابن مريم — روح الله وكلمته — عليهما السلام . . كمعجزة إلهية لتخليصهم من شرور أنفسهم وباطلهم . . والعودة بهم إلى وحدانية الله الفرد الصمد . . ويخاطبهم — في قول الله تعالى : (قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) . .

دعوة المسيحية الصادقة . . وإقرار بحقائق ما سبق من رسالات سماوية . . وقد قال تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور . ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) . .

وكما كان يحدث لبعض الأنبياء من أقوامهم . . كذلك حدث للسيد المسيح – عليه السلام – وهموا بصلبه . . ولكن الله نجاه منهم ورفعه إليه . . رفعه سبحانه وتعالى كرمز لارتفاع الدعاة إلى بنى إسرائيل . . ليعيشوا دائما فى ضلالاتهم وإلى الأبـد . .

وانتشرت المسيحية إلى أوسع مدى . . وكان هناك تناوب وتغاير فى كتابة الإنجيل . . ثم حرفوا كلام الله . . وشرعه فى اتباع المسيخ . . وقليل هم الذين احتفظوا بسلامة الدين وجلاله . .

وقليل أيضا هم الذين بقى منهم من يدين بملة إبراهيم . . عليه السلام . .

أما السواد الأعظم . . وهم بين ملاحدة ومشركين . . يستكبرون عن وحدانية الله مُنشئهم من عدم . . وهم يعلمون . . ولكن ضربت عليهم الذلة . . فتصيبهم النقم بين الحين والحين : (كلما جاءت أمة لعنت أختها) . . وكان سبحانه يحذرهم وينذرهم . . حتى قال سبحانه : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . .

من تاريخ العرب

وكانت مكة المكرمة . . مركز العرب . . بل هى كذلك مركز الأرض . . وهى البلد الذى إليه يحجون . . وفيه تنعقد لهم أسواق معروفة كل عام . . للتعارف وللتجارة . . ولإنشاد الشعر . . وللتفاخر . . وللتشاور فى حلول للمشكلات التى تعترض بعضهم . .

وعن حضارة العرب قبل الإسلام . . تاريخ لم تكتب تفاصيله . . لم يكن إلا الشعر ومنه الحوليات والمعلقات . . وإلا بعض من الكتبة لم ينقلوا غير اليسير من تلك الأمجاد السابقة . .

يقول الحسن الهمذانى صاحب كتاب (صفة جزيرة العرب) :

(لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون

البلاد للتجارات ، فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان فى ظل الملوك السيارة) . .

ولعل تلك المصادر هى كل ما كان يسجل منها عن التاريخ القديم . . حتى أشرق العهد الإسلامى بكل نبضاته ونورانيته . . وازدهر بأمته . . أفضل الأمم . . وامتد عبر الزمن المتواصل الحلقات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . والعرب المسلمون هم مشاعل أخلد الحضارات والأمجاد : .

وكان الإنسان العربى فى ظمإ إلى إمداد من النور الإلهى . . إلى رسالة تكمل له عناصر الحياة الحقيقية لكى يسمو بإنسانيته . . وينضج بعقله المتضوء . . ويتصل دوما بخالقه ومبدع الكون الذى يعيش فيه . .

ولئن كان معظم العرب قبل الإسلام يتخذون الأوثان واسطة لعبادة الله . . فلقد كانوا ذوى نخوة . . وسؤدد وفصاحة . . ولكنهم فى تيه جاهلية لا تصلح معها الحياة ولا تستقر . . ففى ثناياها عصبيات مقيتة وعادات مرذولة . . فكان لا بد من تحول جذرى يضع علامات النور على الطريق الواضحة . . ويحول العرب إلى نهج حياة جديدة . . ولتاريخ حضارى شامخ . . لحمتها الهدى وسداها الرحمة . .

على لسان المسيح

وكانت آخر بشرى تمهد للنور المحمدى . . لمقدم خير الأولين والآخرين . . جاءت على لسان آخر نبى قبله . . عليهما الصلاة والسلام . .

ولنأخذ شيئا منها . . فى مجرى حديث مع معلم المسيحية الأول : السيد عيسى ابن مريم – عليهما السلام – كما جاء فى إنجيل (برنابا) أصح الأناجيل المنقولة

إلى العربية . . فقــد ورد فى الفصل السادس والتسعين ما ننقلــه هنــا بالنص — إتماما للفائدة — :

(ولما انتهت الصلاة ، قال الكاهن بصوت عال : قف يا يسوع ، لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لأمتنا . أجاب يسوع : أنا عيسى ابن مريم من نسل داوود ، بشر مائت ويخاف الله ، وأطلب أن لا يُعطى الإكرام والمجد إلا لله . أجاب الكاهن : إنه مكتوب فى كتاب موسى أن إلهنا سوف يُرسل لنا مسيــا (رسولا) سيأتى ليخبرنا بما يُريد الله وسيأتى للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق : هل أنت مسيّا (رسول) الله الذى ننتظره ؟ أجاب يسوع : حقّا إن الله وعد هكذا ولكنى لست هو ، لأنه خُلق قبلى ويُبعث بعدى ، أجاب الكاهن : إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله ، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حبا فى الله بأية كيفية سيأتى مسيّا أجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى إنى لست مسيّا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعَد الله أبانا إبراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونــة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله ، فيتنجس لسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون مــن يؤمن بكلامه مباركا ، وقد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه . فأجاب الكاهن مــع الوالى والملك قائلين : لاتُزعج نفسك يا يسوع قدوس الله لأن هذه الفتنة لا تحدث فى زمننا مرة أخرى ، لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى المقدس بإصدار أمر ملكى أن لا أحد يدعوك بعد : الله أو ابن الله . فقال حينئذ يسوع : إن كلامكم لا يعزينى لأنه يأتى ظلام حيث ترجون النور ، ولكن تعزيتى هى فى مجئ الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فىّ وسيمتد دينُه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعــد

الله أبانا إبراهيم . وأن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحا . فقال الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هى العلامة التى تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى . قال الله : اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة وجمعاً غفيراً من الخلائق التى أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ومن يلعنك يكون ملعونا . ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لايهن أبدا . إن اسمه المبارك محمد .

حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل لنا رسولك . يا محمد تعالى سريعاً لخلاص العالم) . أ . ه .

وهى – بلا شك – دعوة كانت ترتفع كذلك من كل مكان على وجه البسيطة يعمرها بنو الإنسان . . كل ضمير . . كل عقل وعى . . كل إنسان تحرر . . هتاف إلى رب العالمين لإنقاذ العالمين . . من وهدة الوثنية بظلامها الطويل . . ومن عنفوان الضلال بليله الأطول . .

خير أمة

وجاء الوعد الحق . . قال خير القائلين جلت قدرته : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) . .[1]

سبحانك يارب . . تباركت وتعاليت . . أنعمت وتفضلت على خلقك . . وأنت الرحمن الرحيم . . الرءوف اللطيف . . كرمت بنى آدم . . واخترت خير الأمم تبعث فيهم رسولك الخاتم : المهتدى الهادى . . الطاهر المطهر . . نبي الإسلام

---

(١) خاتمة سورة التوبة . ولتكرار تلاوتها فضل كبير ودعاء مبارك .

. . وله من صفاتك العظمى : (رءوف رحيم) . . تكريما له . . صلواتك عليه وسلامك . . وبها ننال القربى . . ولهذا كانت أمته المفضلة . . وأنت المنعم الواهب لها سراً من أسرار معجزاتك . . وقلت عنها ولها . . سبحانك سبحانك : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) . .

بهذه الأمة انتشر الدين الحنيف وتحققت وحدة الكلمة لتنضوى تحت لوائها جميع الدول والممالك فى فتوحات لم يشهد التاريخ لها مثيلا . . بالحق وبالعدل تكونت أكبر دولة فى التاريخ حتى وقف القائد عقبة بن نافع على شاطئ المحيط الأطلسى يقول وهو يمتطى جبل طارق ، ومياه المحيط الزرقاء تتلألأ فى عينيه النافذتين : اللهم رب محمد لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك .، اللهم فاشهد) .

النصرة بالدين

هذه أمة سيد العالمين : محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — بعقيدة الإسلام طورها . . وبأخلاق القرآن هذبها . . فإذا هى تفتح تاريخ عظمة بنى الإنسان بكل ماله من عمق فكرى ومن طاقات روحية . . ومن نبل وجدانى . . ومن إيمان وتشبث بالعقيدة يجعلاه إذا اشتد لأمر فبيد الله يفعل . . وإذا أراد نوال شئ فبعزم من الله يأخذ . .

بدين الإسلام . . بتوحيد الله وهديه . . ارتقى الناس إلى قمة الإنسانية . . إلى الكمال البشرى . . لأن ما بين أيديهم أعظم كتاب مُعجز . . وبأرقى أسلوب يقصر عنه فكرُ أى كائن . . قال عنه جل وعلا :

— (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

— (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . .

لأنه كلام الحكيم المجيد . . الحكيم الخبير . . سبحانه وتعالى . . فبشريعة هذا الكتاب الخالد . . وهو نظام قويم صالح لكل الأزمنة . . لكل العهود . . لكل

الأمم . . وهو ثروة المؤمن التي يعيش يرعاها وترعاه . . وهو المرجع الأوحد لكل من أراد الفوز والنجاة والفلاح . . لأنه هو كتاب ديننا الحق . . وبمبادئه كان يتحقق النصر فى كل زمان . .

ولنا مثل آخر فى أوائل الفتح الإسلامى . . فقد توغل البطل (قتيبة الباهلى) فى بلاد الصين ووقف يستمع إلى واحد من جنده يقول له : لقد أوغلت يا قتيبة فى بلاد الترك ، والحوادث بين أجنحة الدهر تُقبل وتدبر . فيجيبه قتيبة : بثقتى بنصر الله أوغلت ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة . فيرد عليه صاحبه : اسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله) . .

ذلك أن الله الواحد الأحد ينصر دائما من ينصره . . وما صنع أهـــل دين التوحيد من معجزات ومن منجزات هائلة . . إلا لأنهم جند الله وحزبه . . وحملة قرآنه . . وحماة دينه . . وأتباع رسوله الخاتم . . عليه أفضل الصلاة والتسليم . . قال الله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معـــه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهـــم ركعا سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التـــوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) . .

صدق الله العظيم . . وله الحمد . . كل الحمد . . عندما بدأنا . . وكل الحمد عندما ننتهى بتيسير منه وعون . .

ونصلى ونسلم على صاحب السيرة المحمود : سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلـــم ،،،

المدينة المنورة
غرة شهر رمضان سنة ١٣٩٦هـ
الموافق ٢٦ / ٨ / ١٩٧٦م

(المؤلف)
عبد السلام هاشم حافظ

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

سورة هود (١١) الآية ١١٨ — ١٢٠

وكانت البداية

ينحدر أصل العرب من جدهم الأول : عدنان بن أد . . وقد أنجب ابنين هما : معـــد وعـــك . .

ولمعد (الأول) أربعة من البنين : نزار ، قضاعة ، إياد ، قنص . . الذى إليه يصل نسب واحد من الحكام الأبطال : هو النعمان بن المنذر .

وباسم نزار وقضاعة . . تسمت فيما بعد القبيلتان الشهيرتان . . وقد امتد منهما النسل وكثر وتناثر . . فقطنت (قضاعة) اليمن . . وانتشرت القبائل من هناك إلى العديد من البلدان . .

أما (عك) . . فإنه تزوج فى بنى عمومته أشعر بن نبت بن أدد . . بأرض اليمن . . وعنهم قال عباس بن مرداس السلمى [1] — وهو من سلالة معد — من قصيدة له :

وعك بن عدنان الذين تلقبـــوا بغسان حتى طرّدوا كل مطرد

وغسان . . اسم لمقر ماء بسد مأرب المعروف — مما سيأتى خبره — وهـــو يعرف أيضا بسد مأرب باسم مدينة فى صنعاء . . كان قد أنشأها : عبد شمس بن يشجب من عظماء ملوك حمير . .

وكان قد أدى تدمير السد هذا إلى أن تفرقت قبائل بنى قحطان . . ونزح من الأزد وآل جفنة إلى الشام ... ونزلوا هنالك بمـــاء يسمى غسان أيضا . . فسموا بالغساسنة وحكموا بها أربعة قرون . .

أما ماء غسان باليمن ، فقد كان مشربا لأبناء مازن بن الأسد بن الغوث . . وإليه يعود نسب الأنصار : بنى الأوس والخزرج الذين استقبلوا فى المدينة (نبى

---

(١) توفى عام ١٨ للهجرة بدمشق ، بعد أن شارك فى بعض الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهمها غزوة الطائف ، فكان معه تسعمائة من قومه ، وكان إسلامه قبل فتح مكة ، قيل عنه بأنه شاعر فارسى .

الهدى والرحمة) وآزروه في دعوته . . وقد قال الشاعر حسان بن ثابت يذكر ويشيد بذلك النسب القديم :

يا أخت آل فراس إنى رجل من معشر لهم فى المجد بنيان

إما سألت فإنا معشر نجب الأسد نسبتنا والماء غسان

وهكذا كانت فئة تبحث عن موطن وعن مستقر . . عبر معظم البلدان فى الجزيرة العربية . . من شمالها لجنوبها . . إلى شرقها وأواسطها وغربها . .

تأسيس المدينة المنورة

قبل أكثر من خمسة وعشرين قرنا من ميلاد السيد المسيح – عليه السلام – تأسست منطقة بالمدينة . . كانت تدعى يثرب . . وتعرف بالعيون لكثرة ما كان بها – وإلى عهد قريب – من عيون المياه الثرة . . وهى غابة المدينة الأولى . . حيث بقى بها من أشجار الطرفاء ومن آثار أهلها إلى مطلع العهد الإسلامى . . وموقع تلك المنطقة إلى شمال المدينة . .

وأول من سكنها وزرعها وأقام فيها الدور . . هم العمالقة . . بنو عملاق ابن افشكاد بن سام بن نوح – النبي عليه السلام – وقد كانت إقامتهم شمال (وادى قناة) المعروف بوادى سيدنا حمزة . . ويبعد بنحو خمسة كيلو مترات من قلب المدينة . . وسمى ذلك الجانب من المدينة بيثرب . . باسم أحد أبناء عملاق . . ولذلك كانت تسمية القوم بالعرب العمالقة باسم أبيهم الأول . ولضخامة واضحة فى أجسامهم . .

ولقد تكاثروا وانتشروا فى أكثر من مكان بالمدينة . . فاتسع فيها العمران ، كما اتسعت مناطق الزراعة . . وتعددت بذلك الأسر والقبائل فى العالية إلى مجرى وادى بطحان[1] . .

---

(١) فى جانب من هذا الوادى لا يزال (أطم النصف) وبئره المعروفة لعبد الله بن سلام .

سكنى بنى قينقاع

عندما حج النبي موسى عليه السلام – وفى صحبته جمع من بنى إسرائيل – كان طريقهم الطبيعى إلى يثرب . . وأثناء العودة تخلف منهم نفر فى مقدمتهم (بنو قينقاع) . . وقد أعجبتهم معاهدها وما قد رأوه مطابقا عندهم صفته لبلد خاتم الأنبياء . . فنزلوا على بعض العرب العمالقة . . بمكان عرف باسمهم : (سوق بنى قينقاع) . . ومنهم بنو هف وبنو مطرويل . .

نقل الرواة عن الصحابى أبى هريرة (عبد الرحمن بن صخر)[1] هذا النص :

(إن بنى إسرائيل لما أصابهم من بختنصر تفرقوا ، وكانوا يجدون محمدا – صلى الله عليه وسلم – منعوتا فى كتابهم الإنجيل ، وإنه يظهر فى بعض القرى العربية فى قرية ذات نخل ، ولما خرجوا من أرض الشام جعلوا يعبرون كل قرية من القرى التى بين الشام واليمن ويبحثون عن القرية التى يوافق نعتها نعت يثرب حتى وجدوها ، فنزلت طائفة منهم من بنى هارون فيها ممن حملوا التوراة وماتوا وهم يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وحثوا أبناءهم على اتباعه والإيمان به عند خروجه ، فأدركه من أدركه من أبنائهم ، ولكنهم كفروا به ولم يكتفوا بالكفر بل خانوا ونقضوا العهد وتآمروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم للفتك به والقضاء على دينه حسدا منهم وخوفا على سلطانهم الذى فرضوه على المدينة)

تلك صورة لموقف اليهود فى سلسلة تاريخهم المخجل عبر كل الأزمان .

سيل العرم

قبيل مائتى سنة للميلاد . . وقع فى جنوب وشمالى الجزيرة العربية حدثان هامان وخلال زمنين متقاربين . .

---

(١) توفى بالمدينة عام ستة وعشرين للهجرة . وهو من أكثر رواة الحديث وأشهرهم .

ففى الشمال غزا المجوس بقيادة (بختنصر) الشام بما فيها فلسطين بقصد إخراج اليهود منها . . فكان هذا من أكبر الحوافز التى جعلتهم يبحثون عن المستقر الآمن . . فكان نزوحهم إلى الحجاز . . حيث استوطنوا مواطن فى خيبر وفدك ويثرب وغيرها . . حتى تناسلوا وكثروا وأثروا وزادوا آنذاك على عشرين قبيلة . .

وفى الجنوب كان لطغيان القوم سبب لتفجر النقمة بينهم . . فقد كانت منطقة سبأ الكبرى — وهى من الربع الخالى — بلادا حافلة بالعمران والحياة . . حقولا وجنانا وارفة قبل أن يدهمها (سيل العرم) الذى يخبرنا عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

(لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) .

كما قال تعالى — فى استكمال حال القوم يومها :—

(وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) .

وكان بعض الكهنة يومها ينذرون بوقوع سيل العرم . . وخرج عدد كثير من الناس يلتمسون أماكن لهم . . ومنهم : ثعلبة وابنه ، وقد اتجه إلى مكان بالشمال سمى (الثعلبية) باسمه ، ولكنه أجدب ، مما اضطره إلى النزوح عنه والهبوط إلى يثرب الغناء . . وفيها كان مستوطنه ، وأصبح من نسله ابناه : الأوس والخزرج . . وبهما سميت هاتين القبيلتين . . ثم دعيتا بالأنصار لمناصرتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانوا قد تكاثروا واشتد أمرهم . . ونمت تجارتهم ومزارعهم . . واختلطوا بمن قد سبقوهم من العرب . . وفيهم قبيلة (بنى قيلة) التى كانت تحس ببغض اليهود لهم وزعمهم أنهم شعب الله المختار .

نهاية الفطيون

تزايد اليهود بالمدينة . . فى الوقت الذى كان فيه العرب يتكاثرون أيضا . . فراحوا ينفسون عليهم . . ولكنهم يخشون منهم . . فعقد كبارهم حلفا مع بنى قيلة . . فلا يعتدى أى من الفريقين على الآخر . . ولقد أصبحت قبائل اليهود نحو السبعين . . وكان لهم حاكم جائر . . هو (الفطيون) . . وقد تسلط فى حكمه على مناطق واسعة فى المدينة . . وكانت من عاداته الوحشية أن لا تدخل عروس على زوجها قبل أن تدخل عليه ليفتضها . . وكان هذا الأمر البهيمى مصدر قلق وإزعاج عند غير اليهود . . ويرونها كبيرة ليست بعدها كبيرة . . فكانوا يتحينون الفرص للقضاء على هذه العادة الذميمة . .

وحانت الساعة . . فأخت مالك بن عجلان ستزف إلى شاب من بنى سليم . . وهى من بنى قيلة . . فدبر مالك مكيدة تريح الناس من شر ذاك الطاغية . . فاستخفى فى زى النساء . . ودخل مع أخته كبعض القيان ، يقدمنها إلى مخدع (الفطيون) . . وفى تلافيف ثيابه حمل سيفه . . وما كاد يدنو من هذا الشرير . . حتى أجهز عليه ومزق أحشاءه . .

وانطلق بأخته العروس البكر إلى زوجها المنتشى فرحا . . ثم يغادر المدينة إلى شمالها بالأردن حيث ملك غسان (أبى جبيلة) . . والغساسنة أبناء عم لبنى قيلة . . ويعرض عليه خبر ما حدث . . وشر اليهود الذى استشرى فى المدينة . . وسرعان ما أمر بتجهيز جيش كبير قاده بنفسه إلى المدينة بحجة أنه يريد الراحة فيها ، ثم — كأنما هو يواصل سفره إلى اليمن كما أشاع عن ذلك . . ونزل بجيشه شمال غرب جبل أحد . . وتمكن من دعوة كبار رجالات اليهود والقضاء عليهم ، حتى لا تمكنهم أحوالهم من الغزو أو العدوان . .

وهناك من المؤرخين من يروى خبر مجىء تبع الآخر ، إلى المدينة فى جيش كبير . . وفى نفس هذه الفترة أو قريبة منها ، وذلك لكسر شوكة اليهود ووضع حد لاستفزازاتهم بجيرانهم . .

بين الأوس والخزرج

كانت الفتن لاتكاد تنتهي في المدينة إلا لتعود مرة أخرى بين بعض القبائل . . والتي كان لها علاقات جوار باليهود . . هؤلاء الذين كانوا يقومون بدور المحرض . . لقبيلة من الأوس ضد قبيلة من الخزرج . . أو هؤلاء ضد أولئك . . وهكـــذا كانت الحرب تستعر بشكل شبه متصل بين القبيلتين الكبيرتين . . وقـــد ضرب الشقاق أطنـــابه بينهما زمنا . . ولعل أشهر حروبهم ما حدث يوم بعاث . . وسميت باسم الموقع الذي جرت فيه تلك الحرب بين الأوس والخزرج . . فـــي جنوب مبنى العريض ، وهو لبنى حارثة . . ويبعد عن المدينة بما يقرب من الخمسة كيلو مترات . . وكانت الحرب تدور بينهما سجالا . . وبقيا في صراع وتباغض إلى أن أشرق عليهم نور الإسلام ، وآخى بينهم في أعظم تآلف مع المهاجريـــن الأوفيـــــــاء . .

تبع الآخر

كان تبع ملكا على اليمن ، وجاء من دبر عليه الانقلاب فعزله . . ثم عـــاد إليه الملك ثانية ، بعد هلاك الغازى ربيعة بن نصر . . الملك المنافس له . . وتبع هو : تبان أسعد أبي كرب . . وقد مر بالمدينة في طريقه إلى الشمال . . وترك ابنا له فيها . . وحدث أن صعد نخلة في بستان لأحمر بن عدى بن النجار . . وجد ثمرها . . فما كان من أحمر إلا أن أهوى عليه بالمنجل فصرعه . . وانتوى تبان (تبع) الانتقام لأبنـــه وقتال أهل المدينة ، وكان (عمرو بن طلة الخزرجي) يرأسهم آنـــذاك . .

فجهز جيشه ، وبدأ القتال ولم يتوقف ، حتى تقدم إليه اثنان من أحبـــار اليهود يعظانه . . وأورد بعض المؤرخين هذا النص فيما قالاه ، لتبع : (أيها الملك لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلا ماتريد حيـــل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فرد عليهما : ولم ذاك ؟ فأجاباه : هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان يكون داره وقراره) . .

فانتصح بما قالاه . . وقصد نحو مكة . . وبينا هو فى أول الطريق التقى به أناس من بنى هذيل بن مدركة . . وحدثوه عن وجود الذهب واللؤلؤ وغيرهما فى بيت مال مكة وأغروه بغزوها ، وهم يقصدون التخلص منه . . فأرسل وأحضر (الحبرين) اليهوديين يسألهما عن ذلك . . فكشفا له عن الخدعة المدبرة له وقالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن ومن معك جميعا . قال : فماذا تأمرانى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده وتذل له حتى تخرج من عنده) . قال لهما : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى يهرقون عنده) . .

فانتصح تبع ، وكسى الكعبة . . وأوصى ولاته من جرهم بتطهيرها ، ووضع لها بابا يغلق ويفتح بمفتاح . . ويقال إنه أول من كسا بيت الله الحرام . . وقد صلح حاله فى مملكته . . واقتنع بما جاء بأحاديث (الحبرين) من التوراة ووحدانية الله تعالى . . حتى أنه دعا قومه للنصرانية التى دان هو بها . . فسادت فى اليمن بعد الشرك والخرافات الشيطانية . .

مكة المكرمة

قال تعالى : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) . . (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) . .

مكة . . يرجح أن أصل اسمها بابلى : مكّا (هو البيت) . . ويعنى عند العرب اسم الكعبة . .

أول من سكنها هم العمالقة . . ونزلت بها جرهم الثانية القحطانية القادمة من اليمن . . وأراد الله تعالى أن تعمر بعد جفاف . . وتقام فيها شعائر حج بيته الحرام . . فجاء النبي إبراهيم – عليه السلام – قبل الميلاد بما يزيد على ثمانية عشر قرنا . . ومعه زوجه المصرية (هاجر) وابنهما إسماعيل . . حيث أسكنهما البلد الأمين فى رعاية ربه الكريم . . وبجوار بيته المحرم . . ويومها نبعت بئر زمزم [1] من أثر فحص قدمى الطفل إسماعيل وهو ظامئ . . وأمه بلهفتها تسعى ذاهبة آيبة فيما بين الصفا والمروة كأنما تبحث لابنها عن ماء أو عن ظل للحياة . . وكان عطف الإله الرحيم يلاحظها . . ويفجر لها نعمة من نعمه التى لا تحصى . . وإذا الماء المبارك يكون السبيل إلى أن ينزل بعض الناس ليعيش مع أم إسماعيل . . وفيهم ينشأ . . ويتزوج من بنى جرهم (بجداء بنت سعد) التى يطلقها بأمر من أبيه خلال تفقده لأحواله بمكة . . ثم يتزوج بسامة بنت مهلهل والتى أقره أبوه عليها . وقد أخلف إسماعيل : اثنى عشر ولدا . . ومنهم انتشر نسل العرب الإسماعيليين . . ومن أكبرهم (نابت) جرى النسب الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . لهذا فإسماعيل هو أبو العرب كلهم إلى جانب قحطان . .

ابراهيم يقيم البيت

أرسل الله سبحانه . . جبريل – عليه السلام – إلى الخليل إبراهيم عليه السلام . . يوحى إليه ببناء الكعبة المشرفة . . ويعلمه مناسك الحج . . قال تعالى :

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) . .

---

(١) لماء زمزم فضل كبير ، حتى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ماء زمزم لما شرب له) . . وهناك عنه عدة أحاديث فى بركته وفوائده .

ومن عهد مجئ إبراهيم الخليل بابنه إسماعيل — عليهما السلام — إلى مكة . . كانت بداية مناسك الحج وقد أتمها الله تعالى . . فيتجرد العبد إلى خالقه . . فيطوف بالكعبة سبع مرات ، ويسعى كذلك بين الصفا والمروة . . ثم يقف بعرفة يومها . . وينزل إلى المزدلفة ثم إلى منى ليرجم الشيطان : رمز السوء . .

وبينا إبراهيم يريد أن يكمل مناسك الحج إلى ربه . . يرى رؤياه بأنه يذبح ابنه إسماعيل قربانا إليه تعالى . . وكان اختبارا للطاعة والعبودية . . وإذا به سبحانه وتعالى يكافئه بصدق إيمانه : (وفديناه بذبح عظيم) . . هكذا قالت الآية الكريمة من قول الله تعالى . . ويتم تشريع الحج . . ويدعو إبراهيم — وهو إمام الناس — أن تتصل هذه الإمامة إلى عقبه من النسل الكريم . . فيقول الله تعالى :

(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للنـــاس إماما . قال ومن ذريتى . قال لا ينال عهدى الظالمين) . .

ويعود إبراهيم إلى فلسطين ، ويقيم حيث أنشئ بيت المقدس ، وبه يتوفى — بعد أن ينجب عددا من الأولاد من زوجتين أخريين — ويدفن إلى جوار زوجته سارة بمدينة حبرون بالقدس . .

بينما كان ابنه إسماعيل قد خلفه فى الإمامة بمكة ، يؤدى الرسالة حتى توفاه الله ، ودفن بالحجر إلى جوار أمه هاجر — عليهم السلام — . .

من تاريخ قريش وقصى

بعد سيل العرم . . نزل بمكة بنو خزاعة بزعامة رئيسهم آنذاك عمرو بن لحى[1] الذى أدخل الوثنية معه إلى الحجاز . . ثم جاء بنو كنانة فبنو (النضر) الذى يعتبره المؤرخون بداية تواجد قريش بمكة . . وهو الجد الحادى عشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم . .

---

(١) فى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم — قوله : رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار — (يعنى أحشاءه) .

أما سيد قريش الأول . . فهو قصى بن كلاب (الجد الثالث) وقد تزوج ابنة حليل بن حبشية الخزاعى . . فأبناؤه الأربعة منها . . وكانت لحليل هذا ولاية الكعبة . . فلما حضرته الوفاة أوصى بولاية الكعبة لقصى الذى وقف دونها ورعاها . وانتقل بمكة إلى تحضر شامل عرف فى عصره . . فقد أصبح الحاكم الفعلى على أوائل القرن الخامس للميلاد . . وفى عهده أنشئت (دار الندوة) بالقرب من الكعبة . . للتشاور وعقد ما يشبه المؤتمرات لمن يأتى من العرب إلى الحج . .

وقد أصبحت له كذلك حجابة البيت الحرام والرفادة والسقاية واللواء وغيره . مما كان يقوم به الحاكم . .

وقد ورث الحكم عنه ابنه عبد الدار . . ثم انتقل إلى بنى عبد مناف وتزعمهم ابنه عبد شمس ، ثم هاشم الذى ولى بعده ابنه عبد المطلب (شيبة) الذى ساد فى قريش . . فكان الزعيم المهاب والوالى القدوة . . إنه جد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . الذى رعاه كأحد أبنائه . . وكان شأنه كبيرا عنده . .

السيادة فى قريش

كان العرب يدينون لقريش بالقيادة والزعامة فى مكة المكرمة . . وكان الحكم يجرى على سنن الشورى فى (دار الندوة)[1] . . وعند مجىء الإسلام كانت السيادة موزعة على عشرة من كبار بيوتات قريش :

سقاية الحاج : للعباس بن عبد المطلب .

والرفادة (الإنفاق على ضيوف الحج) : للحرث بن نوفل بن عبد مناف .

والديات والحمالات : لأبى بكر الصديق .

---

(١) كانت لقريش أسواق ثلاثة للتجارة والمفاخرة وإنشاء الشعر وغيره بمكة . . فسوق عكاظ يقيمونه طيلة شهر شوال ، ثم (سوق مجنة) إلى العشرين من ذى القعدة ، ثم (سوق ذى المجاز) إلى أيام الحج .

والسفارة (إرسال من يقوم بشئونها فى الأماكن البعيدة) : لعمر بن الخطاب.

والسدانة (خدمة البيت الحرام) : لعثمان بن طلحة — ويصل نسبه إلى قصى ابن كلاب .

والمشورة : ليزيد بن زمعة — وهو يشترك فى النسب مع جد السيدة خديجة بنت خويلد .

والقبة والأعنة (مكان تجهيز الجيوش) : لخالد بن الوليد .

والأموال المحتجزة (وهى لأوثانهم) : للحرث بن قيس .

والأنصاب والأزلام : لصفوان بن جمح — وجده وجد صفوان هو كعب ابن لؤى . .

بناء بيت الله

لعل أشهر ما أخذ به المؤرخون عن إقامة بيت الله الحرام ، يتلخص فى أن الكعبة المشرفة . . بنيت خمس مرات . . فبأمر الله تبارك وتعالى قامت الملائكة بتأسيس مكان الكعبة لأول مرة . . وبناها للمرة الثانية : أبو البشر آدم عليه السلام . . ثم بناها وارتفع بها إبراهيم الخليل عليه السلام . . للمرة الثالثة . . وبنتها قريش للمرة الرابعة قبل البعثة المحمدية بخمس سنوات[1] . . وللمرة الأخيرة — بناها عبد الله بن الزبير بعد تصدعها . . ثم قام الحجاج بن يوسف ببناء الجزء الشمالى الذى احترق خلال التنافس الشديد واشتعال الحرب بينه وبين ابن الزبير — رضى الله عنه . .

(١) سيأتى حديث خاص عن بناء قريش للكعبة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

إلا أن اجتهاد بعض المؤرخين فى البحث عن بناة الكعبة توصل إلى أن جعلوها اثنتى عشرة مرة [1] . . هى :

بناء الملائكة ، بناء آدم ، بناء شيث ، بناء إبراهيم ، بناء العمالقة ، بناء جرهم ، بناء قصى بن كلاب ، بناء عبد المطلب ، بناء قريش ، بناء عبد الله بن الزبير ، بناء الحجاج ، بناء السلطان مراد خان العثمانى – الذى كسا الكعبة وأقام فى المسجد الحرام منبرا قويا رائعا . .

كيف كانوا قبل الاسلام

كانت ديانة قريش العامة . . اتخاذ الأصنام زلفى وقربى إلى الله تعالى عنها علوا كبيرا . . بمعنى أن الوثنية كانت مسيطرة على حياتهم . . وكل فريق له صنم معين . . ولهم من العادات الذميمة : كوأد البنات ، والربا والميسر . . وانتشار البغاء ، وشرب الخمر ، واحتقار الرقيق . . وفى معتقداتهم فساد واضح كنكرانهم للبعث والحساب والحياة الآخرة . . وفيهم المرتابون حتى فى أمور دنياهم . .

على أن مجتمع قريش كان يسوده من الأخلاق الحميدة : الوفاء والكرم . . والصدق فى التعامل . . وقد بلغت مستوى رفيعا فى الحضارة . . وكأننا بالقوم ، وقد نبغوا وظهرت عبقريات الكثيرين منهم . . قد تهيأوا لاستقبال محكم آيات الله

---

(١) روى السخاوى فى كتابه (منائح الكرم) أربعة أبيات جمع فيها قائلها (على بن عبد القادر الطبرى المكى) عن الإحدى عشر مرة الى بنيت حلالها الكعبه – كما توصل هو إليها . . ولما ذكره بعض الرواة . . – قال :

بنى البيت خلق ، وبيت الإلــــه   مـدى الدهـر من سـابق يكـرم
مـلائكـة ، آدم ، ولـــــده   خليـل ، عمالقـــة ، جـــرهـم
قصى ، قـريش ، ونجـل الزبـير   وحجــاج بعــدهـم يعلـــم
وسلطاننـــا المـلك المرتجـى   (مراد) هو الماجـــد الأعظـــم

والطبرى المكي هذا من أعلام القرن الحادى عشر الهجرى ، وله كتاب (عيون المسائل من أعيان الرسائل) وهو يعنى (مراد) السلطان العثمانى الذى جدد آخر بناء للكعبة قبل أكثر مـن ثلاثمائة عـام .

المعجزة . . وأمامنا من تراث الشعر الجاهلي ما يفصح عن التفتح الذهني وعمق الفهم والتعبير إلى جانب البلاغة والجزالة في اللفظ . . وهذا زهير بن أبي سلمى المتوفى قبل البعثة الشريفة بقليل ، يقول من قصيدته الميمية التي تعتبر كل أبياتها من الحكم :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وأمثاله كثيرون . . أجادوا وأبدعوا . . كأمية بن أبي الصلت ، وامرؤ القيس . وحسان بن ثابت ، وعنترة العبسي . . وكلهم مفن في جزالة لفظ ، وقوة بيان . .

وكانت في مجتمع قريش — فئة قليلة على الفطرة الحنيفية . . تبتعد جهدها عن ضلال الأوثان . . وعن عادات السوء السائدة . . وهي ترقب غداً أفضل . . وترجو نوراً يهديها إلى الطريق السوى . . فهي من الذين كانوا يبحثون عن الصواب لوجداناتهم . . وعن الرفعة لحياتهم . .

وعلى الرغم من أن سواد قريش كانوا على ضلال بين في كل ما يعتقدون من دين ومثل . . فقد كانت الأذهان مهيأة لتنصت إلى البلاغة . . والعقول متفتحة إلى كل جديد . . وتكاد تثق به ، ولكنها تكابر . . ولهذا رفضت الغالبية من قريش أن تستمع في مبدأ الأمر لصوت الحق . . بل هي قد استنكرت دعوة الوحدانية لله . . وهالها أن تترك أوثانها الموروثة . . حتى وجدت أن الأمر ليس بعارض — كخطرة عابر . . أو أنه محاولة لإيجاد ملك . .

هنالك أدرك القوم أن حقيقة التوحيد أكبر من أي شئ . . وأقوى من أي اعتبار . . وأنها رسالة الإسلام الخاتمة لكل الرسالات . . جاء بها الإنسان الكامل محمد بن عبد الله . . نبي الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه . .

كتابة العرب للسيرة

لم يكن تاريخ العرب وسيرهم . . يكتب كمواد تاريخية يتضمنها سفر محدد . ولعل أول من بدأ بالتأليف فى مادة التاريخ العربى بالذات . . هو : عبيد ابن شرية الجرهمى الصنعانى . . وقد قام بوضع كتابه : (الملوك وأخبار الماضين) بطلب من الخليفة معاوية بن أبى سفيان .

ومع امتداد التقدم فى العهد الأموى . . ازداد الوعى إلى ضرورة كتابة التاريخ الذى بدأ يتحرك بأعظم حدث غير مجرى التاريخ الإنسانى . . وارتقى بمفاهيم الناس إلى أن لا حياة بغير الدين ، ولا وجود فى هذه الدنيا بغير مقومات روحية وأهداف مثلى . . وآمال كبرى فى حياة أخرى لا سبيل إلى نكرانها . . بل الأحرى الإعداد لها . . لأنها خير وأبقى . . ولا يسعد بها إلا من استجاب لنداء الله فى نفسه . . وفى وجدانه . . وعمل مع المجموع على النفع العام . . وقد أراد الله . . رب العالمين أن يختم رسالاته إليهم بكتاب يبقى بقاء الوجود . . واختار سبحانه وتعالى أن يحمل أوفى الرسالات وأكملها : رسوله الأمين . . نبى الهدى والرحمة . . صلوات الله وسلامه عليه . .

كانت حياته المباركة آنئذ مبعثاً ملحا للتاريخ . . فكتب سيرته الشريفة الصحابى عروة بن الزبير بن العوام . . فهو أول من كتب فى السيرة النبوية . . وكان هو المحدث الفقيه ممن يعرف الكثير عن الحياة النبوية المباركة . . وما قد صاحبها من جهاد وغزوات لإقرار دين توحيد الله بين كافة الناس . .

ومن روايات ابن الزبير . . أخذ المؤرخون فيما بعد . . يستنيرون . . ويستوضحون ويكتبون . . وسنعرف كمراجع فى نهاية فصول هذه السيرة العطرة . . بعض أسفار من أرخوا وكتبوا فيها عبر مسيرة أربعة عشر قرنا . . منذ ابتدأ التاريخ العربى يتضوأ بأنوار الإسلام . . ويزدهر بتعاليمه الباقية . . فإذا هو حقيقة التاريخ فى الجزيرة العربية ، مهد الحضارات وملتقى الأمجاد . .

دوحتان عظيمتان

١ـ النسب الشريف
٢ـ والدا سيد الأمة

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

** قرآن كريم **

النسب الشريف

نسب أضاء ونسله من هاشم
وسماؤه من يعرب ونزار
من معشر ورثوا السيادة كابراً
عن كابر فهم كبار كبار

* * * * * * * * * * * * * *

حقيقة هذا النسب الأظهر . . سلسلة وضاءة لأعظم إنسان . . (أصلها ثابت وفرعها فى السماء) . . لأنه خيار من خيار . .

وإذا أردنا بالنسب الشريف أن نستطرد بأسماء آبائه حتى نصل إلى أول الشجرة الزاهية . . حيث ابتدأت الخليقة بخليفة الله على الأرض . . الأب الأول : آدم عليه السلام . . فإننا نتريث . . ثم إننا لابد من أن نتوقف — كما توقف رسول الله صلى الله عليه وسلم — . . فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى فى النسب إلى معد بن عدنان أمسك) . . لأن كل ما ذكره النسابون قبل الجد (عدنان) . . من أسماء الأجداد . فمن الإسرائيليات وسواها . . مما لا يمكن الوثوق به . .

ولهذا فإننا نقتصر على ما ذكر من بين الجدين : عبد المطلب وعدنان الذى قيل عنه :

وكم أب قد علا بابن له شرف كما علا برسول الله عدنان

فهو — صلى الله عليه وسلم — . . (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) .

ونذكر هنا أبياتا للإمام على بن أبى طالب فى شرف هذا النسب ، قال :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرٍ فعبد مناف سرهـا وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ففى هاشـم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومـاً فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها

وحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول عن نفسه :

(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنـه القبر ، وأول شافع وأول مشفـع) . .

وكفاه مفخرة (صلى الله عليه وسلم) وكرامة من ربه تعالى أن خصه بالصلاة عليه وجعلها من الفضائل والقربات إليه عز وجل . . وقد قال تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . .

فاللهم صل عليه وسلم دائما أبدا . . وقد قال عليه الصلاة والسلام : مـن صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا) . .

فصل اللهم عليه وسلم ما أقبل صبح وأدبر نهار . . وقد جعلت طاعته من طاعتك فقلت وقولك الحق : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) . .

لك المجد والحمد والتقديس والإعظام والإجلال . . وعليه الصلاة والسلام وعلى آلـه وصحبـه . .

والد السيد الأمة

(ولله العـــزة ولرسولـــه وللمؤمنين)

* قرآن كريم *

عبد الله . . أصغر بنى عبد المطلب العشرة من الذكور . . والتسعة الباقون هم : العباس ، حمزة ، أبو طالب ، الحارث ، الزبير ، ضرار ، حجل ، المقـــوم ، وعبد العـــزى (أبو لهب) .

أما بنات جده عبد المطلب ، فست : صفية ، عاتكة ، أميمة ، أروى ، أم حكيم ، البيضاء — بـــرة .

وكما سمى إسماعيل بن إبراهيم الخليل بالذبيح . . كذلك عبد الله قيل لـــه (الذبيح) . . ولذلك قصة :

فلقد أمر عبد المطلب بواسطة هاتف جاءه فى المنام بأن يحفر (بئر زمزم) . . وتكررت الرؤيا المباركة . . حتى وصف له المكان ، وقال له الهاتف فى المـــرة الثالثة : (لاتنزف أبداً ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم) . .

لقد حددت له صفة المكان الذى استدل عليه . . فحفر بئر زمزم ، يساعده ابنه الحارث الذى لم يكن عنده غيره . .

وإذا بقريش تنفس عليه فقد أصبحت السقيا له . . ثم لم تلبث أن عادت إلى الرضى والاعتراف له بذلك . . فنذر لله تعالى ، إذا ولد له من البنين عشرة يكونون عونا له ودفاعا عنه . . فإنه يذبح أحدهم عند باب الكعبة . .

فلما اكتمل بنوه عشرة كما نذر . . أراد الوفاء بهذا النذر . . وكما يفعلون يومها بالاقتراع عن طريق القداح . [1] طلب من كل واحد من أبنائه أن يكتب

---

(١) فى سيرة ابن هشام شرح مطول للقصة بأعمال الجاهلية فى القداح ، وما قام به (عبد المطلب) حتى افتدى ابنه عبد الله ، كذلك لحفر بئر زمزم خبر طويل فى السيرة المذكورة .

اسمه على (قدح) . . وتضرب القداح ثلاثا . . فكان يظهر فى كل مرة اسـم (عبـد الله) . .

ولكن إخوته وكبار القوم من قريش ، استطاعوا أن يسلكوا بعبد المطلب طريقا آخر ويقنعوه بافتداء ابنه . . حتى انتهى إلى أن فديته بلغت مائة من الإبل . . نحرت كلها . . وتركت للناس يأخذ كل منهم ما شاء منها ، لايصدهم عنها أحد .

وعبد المطلب – كما عرفنا – سيد قومه وحاكمهم . . وكان ينهى عن الوأد ، كما يمنع نكاح المحارم . . وله كثير من الأعمال المجيدة . . ولو طال العمر بابنه عبد الله لكان له شأن كبير عنده . .

ومن الأوصاف التى قيلت فى عبد المطلب : (كان أحسن قريش وجها ، وأمده جسما ، وأحلمه حلما ، وأجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، لم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه ، وكان سيد قريش حتى مات) . .

ويروى أن عبد الله كان كبير الشبه بأبيه . . وكان يحظى منه بالكثير مـن الإيثار والتوجيه والمحبة . . حتى إذا كبر كان شعاره : (أما الحـرام فالممات دونـه) . .

وكان عبـد الله – وهو فتى جميل الطلعة . . وفى الثامنة عشر من عمره – تعرضت له امرأة عفيفة من كبار بيوتات قريش تطلب الزواج منه . . وتختلف الروايات هل كانت – تلك المرأة – : فاطمة بنت مر ، أو ليلى العدوية ، أو أنها أخت ورقة بن نوفل التى ينحدر نسبها من جده قصى بن كلاب . .

وكانت فاطمة الخثعمية تقول لعبد الله : (إنى لأعرف فيك نسك أبيك) . وهذا يعنى أنه كان بعيداً عن الأوثان وعن أعمال الجاهلية . . فهو بلا شك كان على الفطرة الحنيفية لملة إبراهيم عليه السلام . .

وقد قصد به أبوه عبد المطلب إلى سيد بنى زهرة يخطب له آمنة بنت وهب ابن زهرة بن عبد مناف . . ولهذا فهى من أفضل نساء عصرها . . وتلتقى فـى نسب ابنها العظيم فى جده الرابع . .

أما أم آمنة . . فهى برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى . . الجد الثالث للرسول الأمين عليه الصلاة والسلام . .

وهكذا كانت الرعاية الإلهية تختار هذا العنصر الطيب حتى يزدهر . . ويأتى منه أكرم وأفضل ما خلق الله : محمد النبي والرسول صلى الله عليه وسلم . . فكان (أوسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً من قبيل أمـه وأبيه) — كما قال بعض المؤرخين — غفر الله لهم . .

قال الشاعر :

لم تزل فى ضمائـر الكون تختا ر لك الأمهـات والآبـاء

نعم تختار لك أيها المختار الأمين . . صلى الله عليك وسلم . .

وقد حملت به أمه منذ الشهر الأول لزواجها من أبيه الذى لم يطل به الأجل . . فقد خرج فى تجارة لأبيه إلى الشام . . وأثناء عودته قام بزيارة لأخواله بنى عدى ابن النجار بالمدينة . . وهنا مرض بالحمى ولم يلبث أن أسلم الروح إلى بارئها ، وهو فى صباه لم يمض بعد على زواجه ثلاث شهور كاملة . . ودفنه أخواله بدار النابغة الصغرى — كما عرفت — ولا يزال مكان قبره معروفا إلى اليوم . . ولم ترث عنه آمنة سوى خمسة من الإبل وبعض الغنم . .

وورد أن (آمنة) لمـا حملت بابنها الأوحـد قالت : (ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلة ، كما تجد النساء ، إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى وربما كانت ترفعنى وتعود ، وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى . فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمـة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين ، فكان ذلك مما أيقن عندى الحمل ، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى ، فقال قولى : أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد . فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائى ، فقلن لى : تعلقى حديدا فى عضدك وفى عنقك ، ففعلت ، فلم يكن يترك على إلا أياما ، فأجده قد قطع (أى الحديد) ، فكنت لا أتعلقه . .

وذلك الفعل من آمنة الطيبة . . من فضل الله عليها فلا تضع تمائم الشرك عليها . . فحملها المبارك يرفض حتى مجرد إشارات الذين لا يعلمون . .[1]

الميــــلاد وبشــائره

بعض من الصحابة الأجــلاء . . سألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام : يارسول الله أخبرنا عن نفسك :

قال : نعم ، أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد ابن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما (غنما) لنا ، إذ أتانا رجلان عليهما ثيــاب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً . ، ثم أخذانى فشقا بطنى ، واستخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا بطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنــه بألف من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال : دعــه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها)

** رواه جمع من الثقات **

خيــار من خيــار

إنسان من البشر . . ولكنه بالإنسانية كلها . . فقد كمل عنهم فى كل شئ . . لأن عناية الله سبحانه . . بمن يزيده لأمانة كتابه المعجز . . ودينه الباقى الدائم على الأرض . . كانت تنقى عنصره الطاهر من كل شائبة . . كانت تهيئة ليوم ليس ككل الأيام . . لخاتمة دين الإسلام . . وهو الدين الأقوم الذى بعث به الرسل لبنى الإنسان . .

---

(١) يجب ألا نترك ما ذكره بعض المؤرخين من أن فئة من العلماء تقول : بأن والد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد توفى بعد ولادته بنحو شهرين .. والله أعلم

عناية الله سبحانه . . تلقفته منذ اللحظة التى كان فيها ذرة تتلألأ وحدها . . بين جميع الذر من بنى آدم الذين عرضهم الخالق القدير على أبى البشر . . أول من خلق . . وفى أحسن تقويم . .

تلك ذرة الكمال لسيد ولد آدم عليه السلام : سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . .

وبتسلسل ميلاد أجداده . . كانت كل وسائل نكاح آبائه إلى أن ولد من أبويه الكريمين . . طيبة بهية ، وبما يتفق والشريعة السامية التى جاء بها الإسلام فى تعاليمه للزواج فى أمته وهو بذلك قد أبطل كل أعمال الجاهلية فى طرق نكاحها المبتذلة مما كان سائداً فى ذلك العصر . . وينكره العقل السليم وتنفر منه الإنسانية . .

قال المؤرخ الكلبى[1] : (كتبت للنبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئا مما كانت عليه الجاهلية) . .

وهو صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه :

(إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل : كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم . . فلم أزل خيارا من خيار) . .

نكاح الجاهلية

أما عن نكاح الجاهلية . . فقد كان من عادات القوم . . الزواج من زوجة الأب إذا مات . . يأخذها أكبر أبنائه . . كما كان النكاح يجرى بعد ذلك على أربعة طرق . .

فالطريقة المثلى : هى الإيجاب والقبول — كما كان عليه أهل الفطرة ، ومن بقى على ملة إبراهيم عليه السلام .

---

(١) هو ابن هشام محمد بن السائب ، من أعلام القرن الثامن الميلادى ، نسابة ومؤرخ ، له كتاب (نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وكتاب (الأصنام) ومؤلفات أخرى .

أما الطرق الثلاثة : فكلها خارج على العرف الإنسانى :

أحدها : نكاح المرأة لعدة رجالٍ ، فالمولود الذى يأتى منها . . ينسب إلى من يشبهه منهــم . .

والطريقة الأخرى تسمى نكاح الاستبضاع . . وهذا يعنى : أن الزوجة إذا طهرت من حيضتها ، يطلب منها زوجها . . بأن تبعث إلى رجل يعينه ليطأها . . حتى إذا ظهر عليها الحمل . . فإن شاء جامعها أو اعتزلها . .

والطريقة الأخيرة : هى أن يجتمع عدد من الرجال يتناوبون وطء المــرأة لتحمل . . فإذا وضعت مولودها ، جمعت الرجال واختارت هى منْ تراه يكون أباً لوليدها ، فلا يخالفها فى ذلك أحد . .

لهذا كان نكاح الفطرة السليمة خاصا ، بأشراف القوم وكرامهم . .

البشـــائر

منذ أقيم البيت الحرام قبل عشرات القرون . . وأمام هذا الرمز العظيم لبيت الله المحرم بمكة . . وقف إبراهيم وابنه إسماعيل — عليهما السلام — يدعوانــه سبحانه وتعالى أن يبعث بالرسول الخاتم ليعلم الناس الكتاب والحكمة . . كما وردت الآيــة الكريمة قبــلاً . .

ثم جاء المسيح — عليه السلام — ببشراه الأخيرة كما ورد فى القرآن الكريم . . إذ قال تعالى : (وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكــم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) . .

وقد قال عيسى ابن مريم فى كتاب (الإنجيل) لتلاميذه بهــذا النص :

(لذلك أقول لكم ، إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تعالى تقريبا . . لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة ، روح الحكمة والقوة ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى ،

روح اللطف والصبر التى أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم ، صدقونى أنى رأيتــه وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبى ، لأن الله يعطيهم روحه نبوة) . .

وعندما اقترب يوم الميلاد الأغر . . كانت السماء تشارك فى بث الإشارات مما كان يلحظه القسيسون والرهبان ممن لهم علم بالكتاب . .

عام الفيل

سمى عام الفيل . . لأن أبرهة – ملك اليمن – يومها . . كان قــد ابتنى بصنعاء كنيسة هائلة لم ير مثلها بناء . . وفى نيته إغراء العرب على التوجه إليهــا والانصراف عن الكعبة . . بيت الله . . كما وضح هذا من كتابته إلى (النجاشى) ملك الحبشة . . إذ يقول :

(ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب) . .

وقام بحملته ، وقد حلف أن يهدم بيت الله الحرام . . واستمع جيشه مــع الأحباش ، وانطلقوا تتقدمهم الأفيال . . حتى نزلوا بوادى المغمس بالقرب من مكة ، وكان دليلهم قد جاء من الطائف ويدعى (أبو رغال) وقد مات ودفن فى (المغمس) وظلت العرب ترجم قبره كلما مروا . .

وكان أبرهة قد أرسل من جنده من استولى على (أموال تهامة من قريش)

وفيها مائتا بعير لسيد قريش عبد المطلب . . ودعوه لملاقاة أبرهة . . فطلب منهم أن يبلغوه بأن قريشا لاتريد محاربته . . ثم استجاب لدعوته ليرى ما عنده . .

وإذ دخل عليه عبد المطلب فى مهابته . . قام أبرهة إليه ينزل عن كرسيه ويجلس بجواره على البساط . . وفوجئ بأن عبد المطلب يطلب إرجاع إبله إليــه وحسب . . فأبدى عجبه . . فقال له عبد المطلب : (أنا رب إبلى وإن للبيت ربــا سيمنعــــه) . .

وكان صادقاً . . ولكن أبرهة لايرى إلا هواجسه وحلمه بالغزو والتدمير . .

وذهب عبد المطلب إلى الكعبة يمسك بحلقة بابها ويشد فيها ، وهو يدعو الله تعالى ومعه رجال من قريش بهذه العبارات :

لاهــــم إن العبـــــد يمـــــنع رحله فامنــــع حــــلالك

لا يغلــــبن صليبهـــــــم ومحالهــــم عــــدوا محــــالك

إن يدخلـــــــوا البيت الحــــرام فأمـــــر مـــا بـــدا لك

(إن للبيت رباً سيمنعه) . . أجــــل . . فقد أرسل الله تعالى على المغيرين بأفيالهم : (طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل) . . وانهزم أبرهة وجنــده وأحلامه . . وأخذها عبرةً . . فمن يتحدى حكم الله فسوف يلقى البوار حتماً . .

وعلى الرغم من أن قريشاً أصحاب وثنية . . وأن المغيرين أهل كتاب . . ولكن نواياهم السيئة ببيت الله المحرم . . قضت عليهم . . وإكراما من الله تعالى لقرب مولد رسوله الكريم صلوات الله عليه وسلم .

يوم الميـــــلاد

فى عام الفيل . . وبمكة المكرمة . . وقد مضت أربعون سنة على بدايــة حكم كسرى أنوشروان لبلاد فارس . . وفى يوم الاثنين الثانى عشر من شهــر ربيع الأول الموافق للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧١ للميلاد . ولد أكمل خلق الله ، سيدنا وحبيبنا محمد . . عليه أفضل الصلاة والسلام . . من الصلب الطاهر . . انبثق نور يضيء الأجيال . . وفى قول الله تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) — بضم الفاء — . . يقول المفسرون أنه (لم تكن فى العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة وقرابة) . . وهذا ما يؤيده فى تفسيره عليه الصلاة والسلام لعبارة (من أنفسكم) إذ يقول : (نسبا وحسباً وصهرا ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح ، كلها نكاح) . .

وفى فترة ميلاده صلى الله عليه وسلم كان قد سمى ثلاثة من كبار العرب أبناءهم (محمدا) ، طمعا فى أن يكون هو المولود المنتظر . . لأنهم عرفوا ذلك ممن لهم علم بالكتاب . .

أولئك الثلاثة الذين سموهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد بن حمران بن ربيعة ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع — من جدود الفرزدق الشاعر . .

يروى عن حسان بن ثابت أنه قال : والله إنى لغلام يفعة ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة يثرب : (يا معشر يهود) حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : (ويلك ، مالك) قال: (طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به) .

كانت ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم فى دار أبى طالب بشعب بنى هاشم جوار الصفا . . وقد ابتاعها فيما بعد أخو الحجاج : محمد بن يوسف . . إلى أن ابتاعتها السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد عندما حجت فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وأقامت مكانها مسجدا . . وقد أجرت (عين زبيدة) المعروفة باسمها فى أم القرى . .

وعن أيام مولده وبعثته صلى الله عليه وسلم وبعض الأحداث التى وقعت في الجاهلية . ضمنها (الشقراطيسى) فى هذه الأبيات :

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت ... بشرى الهواتف فى الإشراق والطفل

وصرح كسرى تداعى عن قواعده ... وانقض منكسر الأرجاء ذاميل

ونار فارس لم توقد وما خمدت ... مذ ألف عام ونهر القوم لم يسل

خرت لمبعثه الأوثان وانبعثت ... ثواقب الشهب ترمى الجن بالشهب

وقال ابن عمه على بن أبى طالب :

فما أن جنينا فى قريش عظيمة ... سوى أن حمينا خير من وطئ الثرى . .

حقا . . فقد كان ميلاده صلى الله عليه وسلم طالع يمن وخير على البشرية كلها . . وقد ولد مبرءا من كل سوء . . تحل البركة حيث يحل . .

كما أن أمه لم تر آلاما فى حمله وولادته مما تتعرض له النساء . . وتؤكد الروايات على أنه – صلى الله عليه وسلم – ولد مختونا . . وأنه عندما نزل كان واضعاً يده على الأرض ونظره إلى السماء . .

وعندما وضعت آمنة وليدها المبارك . . أرسلت إلى جده عبد المطلب الذى سرعان ما استجاب لها وأعلن مسرته بحفيده . . وقد حمله ودخل به الكعبة ، وهو يشكر الله على عطائه . . ويدعو له كما يروى بهذه الأبيات :

الحمد لله الذى أعطانى ... هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان ... أعيذه بالبيت والأركان
حتى أراه بالغ البنيان ... أعيذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان

والجدير بالذكر هنا . . أن مولدته (صلى الله عليه وسلم) هى : الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، الذى كان فيما بعد ضمن المختارين للخلافة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب عندما طعن ، وقد أمره بالصلاة بالناس .

رضاعته وحضانته

(أم أيمن – بركة الحبشية) [1] . . أمة عبد الله بن عبد المطلب ، وقد ورثها عنه ابنه صلى الله عليه وسلم . . هى أول من حضنه . .

---

(١) عندما كبر (صلى الله عليه وسلم) زوجها من زيد بن حارثة ، فولدت منه أسامة بن زيد . . وقد عمرت حتى شهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد دخل عليها أبو بكر وعمر – وهى تبكى – يقولان لها بأن ما (عند الله خير وأبقى لرسوله) فتجيبهما : إنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله ، وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء (فأثارهما هذا على البكاء .

(وثويبة الأسلمية) جارية عمه أبي لهب . . وكان قد أعتقها عند بشارتها له بميلاده (صلى الله عليه وسلم) . . وهي أول من أرضعته لمدة أيام فقط . .

ولها ابن اسمه (مسروح) [1] . . وقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ لها صنيعها ويصلها حتى ما بعد الهجرة . . ولكنه عند فتح مكة عرف بموتها هي وابنها ، ولم يجد أحدا من قرابتها . .

وكان من عادة العرب اتخاذ المراضع من البوادي . . لما يرونه من نجابة وصحة لمواليدهم . . وكالعادة ، فقد جاءت عدة نساء من قبيلة بني سعد بن بكر . . يبحثن عمن يريد إرضاع أطفالهن . . لينتفعن من الأجر على ذلك . . ووقع الاختيار على (حليمة) بنت أبي ذؤيب السعدية [2] . . ويرجع نسبها إلى قيس عيلان بن مضر . . لتكون مرضعة الطفل المبارك . .

وزوج حليمة . . هو الحارث بن عبد العزى وكنيته : أبو كبشة ، ويعود نسبه إلى بكر بن هوازن . . ولهذا فأبناؤه الأربعة : عبد الله وحذافة وأنيسة والشيماء أصبحوا إخوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع . .

وكانت (الشيماء) تلازمه كحاضنة مثل أمها وكانت يافعة . . وقد وجد أهلها الكثير من البركة والخير لتواجده بينهم عليه الصلاة والسلام . . حتى إن حليمة عندما أكمل العامين وفطمته وعادت به إلى أمه رجتها أن تستبقيه عندها . . وكانت فرحتها بالغة بموافقتها . . فتعود به إلى حيها . . وأمام عينها ما قد أصابت من نعم . . وقد قالت عنه صلى الله عليه وسلم : (وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ ستتين حتى كان غلاما حفيا) . .

وأصبحت تحرص على ألا يبعد عنها . . وفي يوم استفقدته أثناء القيلولة . . فخرجت تبحث عنه حتى وجدته مع أخته الشيماء . . فكادت تعنفها لاصطحابها

---

(١) هذا أول إخوة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع ، وكانت (ثويبة) قبلا قد أرضعت عمه حمزة ، وأبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي .

(٢) اسمه : عبد الله بن الحارث بن جابر ، من بني سعد بن بكر .

إياه فى مثل ذلك الوقت الشديد الحرارة بسبب الشمس . . فترد الشيماء عليها بأن الحر لم يصبه ، لأنها كانت تشهد عليه غمامة إذا مشى سارت معه وإذا توقف وقفت تظلله . .

ويروى أن الشيماء قالت فى أخيها (العظيم) شعرا كأنما هى تدلله :

يا ربنا ابق لنا محمدا حتى نراه يافعا وأمردا
ثم نراه سيدا مسودا واكبت أعاديه معاً والحسدا
بل واعطه عزاً يدوم أبدا

هذا أخ لى لم تلده أمى وليس من نسل أبى وعمى
فديته من مخول معمم فاغنم اللهم فيمن تغنم

فى طفولته (صلى الله عليه وسلم) كان يصحب إخوته فى رعى الغنم . . ولم يستكمل العام الرابع بعد أن عادت به حليمة . . حتى يجرى ذلك الحدث الذى رواه (صلى الله عليه وسلم) لصحابته عن صغره . . والذى ورد فى مطلع هذا الفصل . . وترتاع حليمة لما سمعت . . ثم لاتلبث أن تعود به إلى أمه خوفا من أن يكون قد أصابه مكروه لا تريده له . . وقد حفظه الله من كل سوء . .

****

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

سورة البقرة (٢) الآية ١٧٧

النشأة الأولى

ما أكرم صنع الله . . ما أعظم رعايته وفضله . . فلقد كانت مشيئته تسبق عمله جل وعلا . . (وكان قدرا مقدورا) . . كما قال سبحانه . . فكانت العناية الإلهية ترافق (المختار) للرسالة . . حين وجد على هذه الدنيا . . يتيم الأب . . فإذا هو يتجرد يوما بعد يوم من كل مظاهر الحياة الناعمة . . فقد جاء لأمر أكبر من هذه الحياة وأعمق وأخلد . . جاء ليعيشها كميدان اختبار . . فإذا به يقول عندما كبرت بـه السن : (يتيما فى الصغر ، غريبا فى الكبر) . . قـال ذلك صلى الله عليه وسلم ليهون على من شكا له اليتم . . وكان كالغريب فى هذه الدنيا حقاً .. وقد رفض فيها كل نعماء .. وتمر به الآلام فلا يجد فيها إلا نوعا من قانون دنيانا العابرة .

ولكنه ينشأ أمام ملاحظة عليا تشرف على كل تحركاته . . بل وتوجه من خطواته إلى سبيل غاية مرجوة . . لقد انطلق إلى هذا الوجود أعزلاً إلا من سلاح نفسه الطهور . . من عاطفة ربه . . من عصاميته . . وهو يتوجه إلى . . إلى طريق النور . . إلى يوم معلوم يأتى . . ويكون فيه أهلاً لحمل الأمانة . . خاتمة رسالات السماء . . ودين الإسلام الباقى . .

كان الطفل محمد (صلى الله عليه وسلم) فى تربية أمه . . وفى رعاية جده : سيد قريش . . وما يكاد يتم عامه السادس حتى تصحبه أمه لتزيره أخواله من بنى عدى بن النجار[1] فى المدينة ، وبرفقتهما أم أيمن المباركة . . ويمضون عندهم شهرا كان آخر ما حظى به الطفل من حنان الأمومة . . وعندما رجعوا . . وهم فى طريقهم بالأبواء . . مرضت الأم آمنـة . . مرضتها الأخيرة . . وقد نادتهـا منيتها فى هذا المكان بقرية أقرب ما تكون إلى المدينة منها إلى مكة هى (الأبواء). . وتوفاها الله ، وبها دفنت . .

---

(١) المعروف أن أم عبد المطلب بن هاشم هى : سلمى بنت عمر النجارية ، ومن هنا كان بنو النجار أخوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وانتقل الطفل الفتى إلى حضانة بركة أم أيمن وكفالة جده عبد المطلب الذى كان يعتز به . . ويحتفل بمقدمه حتى ليجلسه على فراشه الموضوع له فى ظل الكعبة .. ويقول لبنيه — وهم حوله — وهو يمسح على ظهره بيديه : (دعوا ابنى ، فوالله إن لـــه لشأنـــا) . .

ولم يطل العهد بهذا المقام . . والطفل الفتى بعد فى أوائل ربيعه التاسع . . إنه امتحان جديد . . تزيد له عزيمة الكبار صلابة وإرادة . .

موت عبد المطلب

لقد انتهت رحلة حياة سيد قريش : عبد المطلب . . الشخصية والمهابـــة والقوة . . وكان أهم ما فكر فيه هو حفيده : الفتى اليتيم . . فيوصى به خـــيرا لابنه أبى طالب الذى وسع عليه فى الرزق . . بعد قلة . . بسبب ولايته وكفالته لابن أخيه ورعايته له . . وقد صلح له الحال وانتعشت تجارته . .

وكما كان (عبد المطلب) الشخصية الفذة فى حياته . . فقد أراد أن يحس بصداها وهو فى طريقه إلى النهاية . . فقد روى حفيده العباس بن عبد الله عن بعض أهله أن عبد المطلب لما مرض وشعر بدنو أجله . . جمع بناته الست ، وطلب منهن أن يتناوبن فى رثائه ، ليسمع ما سيقلن عنه بعد رحيله النهائى . . فقالت كل واحدة منهن قصيدة من جيد الشعر . . ونكتفى هنا بذكر مطلع هذه القصائـــد الصادقة التعبير . . قالت صفية :

أرقت لصوت نائحـــة بليـــــل على رجل بقارعة الصعيـــد

وقالت بـــــرة :

أعينى جـــــودا بدمـــــع درر على طيب الخيم والمعتصر

وقالت عاتكـــــة :

أعينى جـــــودا ولا تبخـــــلا بدمعكمـــا بعـــد نوم النيام

وقالت أم حكيم :

ألا ياعين جودى واستهلى وبكى ذا الندى والمكرمات

وقالت أميمة :

ألا هلك الراعى العشيرة ذو الفقد وساقى الحجيج والمحامى عن المجد

وقالت أروى :

بكت عينى وحق لها البكاء على سمح سجيته الحياء

تلك مشاعر صافية صادقة . . وإنه لعجب يثير العجب . . والأمر الذى أثار تلك المشاعر لم يقع بعد . . ولعلها السليقة العربية الصريحة والتدفق الوجدانى السليم فى تجاوب مع الحدث وهو وشيك الوقوع وكأنه فعلا قد وقع .

ولقد رثى عبد المطلب الكثيرون . . لما كان له من فضل عام . . ومن مكانة كبرى بين بنى قومه . . وهو سيدهم المخلص الفذ . .

فى كفالة أبى طالب

أبو طالب وعبد الله . . شقيقان . . وأمهما : فاطمة بنت عمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم . . فرعاية أبى طالب لابن أخيه الفتى المبارك . . إحساس أبوى كريم . . ومسئولية محببة لشخصية يتحرك الخير حيث يتحرك . . وقد كان يستبشر أبو طالب بهذا الفتى الأكرم . . وبوجهه الصبوح ،. . ويقول فيه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقد حدث قحط فى مكة . . وقصدت قريش إلى أبى طالب يستسقى لهم . . فأخذ بابن أخيه . . وقد غدا غلاماً يافعا — فألصق ظهره بالكعبة ، وراح يدعو . . وما أن أشار الفتى بيده (صلى الله عليه وسلم) حتى أخذت السحب تتجمع من كل جانب . . والناس يمطرون . . والوديان تسيل . .

ويلازم الفتى عمه . . وهذا يلاحظه كما يلاحظ بنيه أو أكثر . . والفتى المبارك فى سمته حتى مع أترابه . . لايخاصم ولا يتصايح معهم . . فلنسمعه صلى

الله عليه وسلم يتحدث عن أيام صغره مما يستذكره . . ومن نفحات أدبه . . بل والملاحظة الخفية التي تتولاه . . قال :

(لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمني لاكم ما أراه ، لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك . فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري على من بين أصحابي) .

إن إرادة الحق تبارك وتعالى . تهذب فيه المظهر .. كما تهذب فيه الباطن . . لينزه عن كل شبهة أو ريبة أو مظهر لايليق بكماله الذاتي . .

وعندما بلغ الثانية عشر من عمره . . أراد عمه أبو طالب أن يسافر في تجارة إلى الشام . . وعز عليه أن يتركه بمكة . . فصحبه معه وهو يحس بما في رفقته من بركة ومؤانسة . .

فلما وصل الركب بهم مدينة حوران (بصرى) – على حدود الشام – أنزلوا رحالهم يرتاحون من عناء الطريق . . وكان بالقرب منهم صومعة للراهب (بحيرا) . . وهو ممن له علم بالكتاب . . وقد صنع نوعا من الطعام ودعا أصحاب الركب إليه . . فكان (بحيرا) يتأمل (الفتى الأكرم) ويسأل أبا طالب عنه . . حتى عرف أنه ابن أخيه . . وفتش عن كتفه . . فرأى خاتم النبوة – كما تقول الرواة[1] وإذا به ينصح أبا طالب بأن يعود به إلى مكة لأنه يخشى عليه من يهود الذين يضمرون الشر له لو رأوه . . لأن لابن أخيه هذا سيكون شأن عظيم . .

وعاد أبو طالب إلى مكة . . ونظرته إلى ابن أخيه المبارك أكبر مما كانت من قبل . . فهو يستشعر نحوه بالجلال . . ويحرص أن يجد له مطلبا أو يلحظ منه إشارة لينفذ له ما يريد . . ويستذكر حديث بحيرا ويتأمل . .

---

(١) في صحيح مسلم خبر يؤكد على وجود خاتم النبوة مما سيأتي ذكره .

أما عن خاتم النبوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد روى عن الجعد بن عبد الرحمن قال : سمعت السائب بن يزيد ، يقول : ذهبت بى خالتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله إن ابن أختى وجع ، فمسح رأسى ودعا لى بالبركة ، ثم توضأ فشربت من وضـوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة) . .

والحجلة — واحدة الحجال — وهى بيت كالقبة لها أزرار كبار وعرى .

الأمين ومطلع الشباب

منذ كان فتى — صلى الله عليه وسلم — أحب رعاية الغنم لطفا منه ورحمة . . وقد رعاها شابا لأناس فى مكة . . ويقول : (ما من نبى إلا ورعى الغنم) . .

ثم إنه اشتغل بالتجارة مع شريك له اسمه : السائب بن أبى طالب . . وقد روى هذا عن مجاهد ، قال : (حدثنى مولاى عبد الله بن السائب ، قال : كنت شريكا للنبى صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، فلما قدمت المدينة بعد النبوة ، قال أتعرفنى ؟ قلت : نعم شريكى فنعم الشريك أنت ، لا تدارى ولا تمارى) . .

فلقد عرف — صلى الله عليه وسلم بالأمين بين قومه صغيرا . . حتى كانوا يعرفونه بقولهم : محمد الأمين . . لصدقه وأمانته ووفائه . . فلا يقول دوما إلا حقا . . ولا ينطق إلا صدقا . . كما عهده قومه وكل من عرفه . . عليه صلاة الله وسلامه . . وفيه قال عمه العباس :

وأنت لمـا ولدت أشـرقت الأر   ض وضاءت بنورك الأفق

فنحـن فـى ذلك الضياء وفى الـ   نـور سبيل الرشاد نستبق

إنه الأمين المعصوم . . وهو يأنف أن يعمل شيئا مما عمله أهل الجاهلية . . حتى مجرد منظر يراه أو لهو يسمعه . . إنه مبرأ من كل سوء كصفحة بيضاء نقية . . لا يعكرها أى شئ . .

وفي حديث عن الإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما هممت مما كان أهل الجاهلية يهمون به من اللهو إلا مرتين من الدهر ، وكلتاهما عصمنى الله عز وجل منهما ، وإنى من أفعالهم براء : قلت ليلة لفتى كان معى من قريش بأعلى مكة فى غنم لأهله يرعاها: أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة ، فخرجت ، فلما جئت أدنى دار من دور مكة ، سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، وقلت : ما هذا ؟ فقالوا : تزوجت فلانة برجل من قريش ، فلهوت بذلك الصوت ، وأراد الله غير ذلك ، فغلبتنى عينى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرحت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فأخبرته ، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك ، فغلبتنى عينى . ما هممت بعدهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته) . .

ولهذا كان عمه أبو طالب – بعد قصيدته اللامية الطويلة – يقول :

وشق لـــه من اسمـــه ليجلـــه فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وبقدر ما كان صلى الله عليه وسلم يبغض الأوثان ويتنكر لها . . بقدر ما كان كثير الصمت والتفكير . . والتخلق بالأخلاق الحسنة المحببة . . إلى كل الناس . . وربه سبحانه يعده إعداداً يليق بما سيكرمه به ويحمله إياه إلى البشرية . .

وقد روى ابن العباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كانوا فى الجاهليـــة يجعلون لهم عيدا عند (بوانة) وهو صنم تعبده قريش ، فكان أبو طالب يحضر مع قومه يكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد فيأبى ، حتى غضب عليه ولم يزالوا به حتى ذهب معهم ، ثم رجع فزعا مرعوبا ، فقلن : ما دهاك ؟ قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمـــــد لا تمسه . فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ . . صلى الله عليه وسلم . . فما كان له حتى مجرد التقليد أو التشبه بما أراد أن يكرهه عليه ذووه . . من عادات وطقوس . .

اشتراكه في أول حرب

كان صلى الله عليه وسلم فى العشرين من عمره . . عندما خرج مع أعمامه واشترك بعض أيام من (حرب الفجار)[1] الرابعة والأخيرة . . . . وهى وقعت بين قريش وكنانة وبين قيس عيلان . . وفى الشهر الحرام . . وخلال هذه الحرب كان يرد نبال الأعداء عن أعمامه . .

وعن ذلك قال صلى الله عليه وسلم : (كنت أنبل على أعمامى) . . يقذف بها العـــدو . .

وبعد انتهاء الحرب . . حضر صلى الله عليه وسلم مع أعمامه بدار الندوة لعقد التحالف الذى سمى بحلف الفضول . . بين المتحاربين . . على عدم الاعتداء ، وعلى أن لا يأتى مظلوم من أهلها أو من غيرها حتى يردون إليه مظلمته . . وقد حدث عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله :

(لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان [2] ، ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت) . .

المثل والقدوة

بهذه الروح المتطلعة إلى الحق . . وبإنسانية الرجل المثالى الكفء . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يضع العلامات للحياة المقبلة . . وهو على طريق النور واضح الخطا . . صلب الإرادة قوى الشكيمة . . وكان موضع ثقة الناس . . . يضعون عنده الأمانات والودائع . . ويكبر هو فيهم ذلك الإيثار وتلك الثقة . . ولقد كان هو صلى الله عليه وسلم أهل لكل مكرمة . . ونبع فياض من سلسل

---

(١) تسمى (الفجـــار) — بكسر الفاء وجيم مفتوحة — لكون المتحاربين استحلا القتل فـــى الشهر الحـــرام .

(٢) التميمى — وهو من رؤساء قريش ، وقد تم الحلف بين بنى هاشم وبنى المطلب وابنى عبد مناف وابنى أسد بن عبد العزى وابنى زهرة بن كلاب وابنى تيم بن مرة .

طهور . . يمنح فى رضى . . ويتوهج بالحياة . . وهذه طبيعته التى سيترجمها قوله وعمله كذلك بعد لأى من الوقت . . كتشريع وقدوة ورسالة . . عندما تتنزل عليه الآيات البينات هدى للناس . . وسنرى أنه عندما نزلت عليه الآية الكريمة : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . . سأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عن هذا ، فأمهله حتى يسأل ربه ، فلما عاد قال له : (يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك) . .

إنها المثل النبوية . . والتوجيهات الربانية . . من أجل إسعاد الأمة . . ورقى وجدانها . . وحثها على السنن القويم . . وإلى الغد الأفضل . . وستتذكر بعد البعثة . . أنه صلى الله عليه وسلم يخاطب أمته فى قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) . .



ألفة ... وائتلاف

١- الزواج الأول
٢- بناء الكعبة

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون)

* قرآن كريم *

رحلة الشام الثانية

بمرور الأيام فى حياة أبى طالب . . ضعفت الموارد المالية بعد إغداق . . ودار حوار بينه وبين كفيله الأمين المأمون صلى الله عليه وسلم وقد وصل به العمر لبداية الخمسة والعشرين ربيعا . . رجاء أن يقوم بالسفر فى تجارة لمال سيدة قريش الفاضلة خديجة . . وقال له (يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلـــد تبعث رجالاً من قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد من ذلك بُـــداً) .

ووصل مجرى هذا الحديث إلى علم السيدة خديجة . . وكانت كغيرهـــا تسمع بصدق وأمانة (الأمين) . . كما سمعت بمكانته فى بيت سيادة قريش . . وهو حفيد عبد المطلب الشهم الهمام . . فبعثت إليه تعرض عليه السفر مـــع خادمها (ميسرة) فى تجارتها ذلك العام إلى الشام . . وهو ما يوافق سنة ٥٩٥ للميلاد . .

وتستبشر خديجة بقبول الأمين الخروج بتجارتها . . وتأمل أن يتحقق ظنها فى هذه الخطوة . . وانتظرت نتائجها التى كانت فوق ما توقعت . . فعندما عاد الأمين بمكاسب كبيرة سرت بها . . ولكنها أبدت إعجابها أكثر من حديث (ميسرة) عما رآه من ظواهر غير طبيعية خلال سفرهما . . أخبرها بأنهما عند استراحتهما فى ظل شجرة بمدخل الشام . . وجد الراهب (نسطورا) يسأله عن هذا القادم معه بالتجارة . . ثم يقول له بأنه يرى فيه سمات آخر الأنبياء المرتقب . . كما أن غمامة كانت تظلل الأمين من وهج الشمس وهو على ناقته . . وأن البركة فى التجارة قد وضح فيضها . . فإذا بخديجة تجزل فى الأجر . . ولا تخفى سرورها واحتفاءها بهذا الرسول الكفء لتجارتها وبحميد خلقه وحسن تعامله . . ثم إذا بها تفكر فى أمر . . وتحلم لو يتحقق ، وتفوز هى برعاية الرجل المنتظر . . وتجمعهما حياة واحدة وأمل مشترك يعزز من مكانتها . . ويضعها فى مكانها الصحيح . .

لمحات من حياتها

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . . الجد الثالث لها . . ولرسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وأمها : فاطمة بنت زائدة بن الأصم . . ويصل نسبها إلى غالب بن فهر (الجد السابع) لرسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وأم أمها : هالة بنت عبد مناف . . وأم هالة : قلابة بنت سعيد . . وكلتاهما يصل نسبهما إلى لؤى بن غالب . .

* ولدت خديجة مع نهاية سنة ٥٦٧ للميلاد . . ونشأت فى بيئة صلاح وسؤدد . . فهى من كبار بيوتات قريش فى مكة . . وسليلة أسرة كريمة . . لها مكانتها فى مجتمع متحضر . . كما لها عراقة نسب مع رفعة فى الأخلاق . .

* فخديجة من ذوى الجاه وطيب النسب . . وكان اشتغال أبيها بالتجارة شجعها على أن تطرق هى كذلك هذا المجال لتحقق فيه نجاحا وتفوقا . . هذا فى الوقت الذى كانت تعرف فيه باسم (الطاهرة) . . كما لقبها قومها . لما كانت عليه من نبل وحصانة . . وعزة وشرف . .

* ثاني من تزوجت خديجة . . أبا هالة بن مالك بن زرارة التميمى[1] . . وقد توفى بعد أن خلفت منه ابنها (هند) الذى شهد بدراً ، ثم أصبح من رواة الأحاديث الثقات . . وكان يقول . (أنا فخر الناس أباً وأماً وأخا وأختا : أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخى القاسم ، وأختى فاطمة . وأمى خديجة . . . رضوان الله عليهم . . وقد عاش حتى اشترك فى موقعة الجمل بالكوفة وقتل فيها . . — كما خلفت السيدة خديجة من أبى هالة بنتا دعتها (زينب) . .

---

(١) أبو هالة — من بنى أسيد بن عمرو بن تميم ، وهو حليف عبد الدار .

* وتزوجت السيدة خديجة قبله لأول مرة . . بعتيق بن عابد بن عبد الله المخزومى . . وأخلفت منه عبد الله وبنتا أسمتها (هندا) كذلك . . وقد حسن إسلامها من بين من أسلموا وكانوا حزب الله من الصحابة الأجلاء . . رضى الله عنهم . . وقد تزوجت هند بصفى بن أبى رفاعة . .

* ولقد رغب الكثيرون بعد موت أبى هالة . . فى الزواج من السيدة خديجة . . وكلهم من ذوى الجاه واليسار والرفعة . . ولكنها كانت تردهم بالرد الجميل . . وترجو أن تحيا لأبنائها وتجارتها . . حتى كانت رؤية الأمين . . وقناعتها بشخصيته . . ثم تطلعها إلى الاقتران به . . عليه الصلاة والسلام . .

الزواج الميمون

كانت السيدة خديجة فى نهاية عامها الثامن والعشرين [1] . . وفى هذه السن اكتمل النضج والشباب . . وهى تحتفظ بالكثير من جمال الصبا وروعة الأنوثة التى تفتحت على الرفاهة واليسر . . ولم يعجبها تكرار الأزواج . . وكأنما كانت تنتظر وتتهيأ ليظلها أعظم إنسان . .

وكانت تفكر . . وقد وقع فى نفسها هذا الأمين . . كيف تجرؤ هى على خطبته . . والعرف والتقاليد لاتقر بشئ من ذلك . . ولكنها لم تلبث أن تحدثت تلميحا عن استعدادها للزواج به (صلى الله عليه وسلم) . . وكان هو لا يجرؤ هكذا ، وليس له ما يشجعه ويدفعه إلى تنفيذ هذا المشروع الجميل . . وهدى تفكير خديجة إلى أن ألقت بذات نفسها إلى صديقة تعتبرها أمينة على سرها . . هى : نفيسة بنت أمية . . ثم طلبت منها أن تذهب إلى محمد الأمين . . وتعرض عليه بطريقتها أن يتقدم إلى خطبتها . .

---

(١) هذا على خلاف من يذكرون بأنها كانت فى الأربعين ، إذ تبين بعد التحقيق الدقيق صدق ما ورد فى بعض المراجع المعتمدة .

وإذ التقت به نفيسة تحادثه صلى الله عليه وسلم . . وتقول لهوكأنها صاحبة الاقتراح : (ما يمنعك أن تتزوج .) . . فيعتذر لها بقلة المال المطلوب لمسئوليات الأسرة . . فإذا بها تصارحه قائلة : (فإذا كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة فسألها : ومن تكون ؟ فأجابته بثقة المنتصرة : خديجة . فقال بفرحة : خديجة الشريفة الطاهرة . . هى الصالحة . . اذهبى يا نفيسة فإنى سأخطبها . .

وكانت فرحتها هى (نفيسة) لاتقل عن بهجة الخطيبين . . وقد راحت تزف البشرى الكبرى إلى السيدة السعيدة بأملها الذى تحقق . .

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدوره بعرض الأمر على عمه أبى طالب الذى أبدى ارتياحه وغبطته . . وذهب إلى عم خديجة : عمرو بن أسد يخطبها لابن أخيه الأمين . . فيقابل بترحاب وفرحة . .

وفى المساء . . تقدم أبو طالب وأخوه حمزة ورؤساء مضر ، ومعهم السيد الأمين (صلى الله عليه وسلم) . . إلى حى خديجة الذى كان يحتفل بهذه المناسبة . . بتوجيه منها : حيث ذبحت الشاة وأعد الطعام . . وحضر بعض ذويها وفى مقدمتهم عمها وابن عمها : ورقة بن نوفل . .

وقام أبو طالب يلقى كلمة جامعة قال فيها :

(الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ونسب معد وعنصر مضر ، وجعلنا سدنة بيته وشوكة حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح ، وإن كان فى المال قلا ، فالمال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة ، ومحمد ممن عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وله فيها رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم فعلى من الصداق ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم) . .

فما عتم أن رد عليه ورقة بن نوفل قائلا : (الحمـــد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب . .وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لاتنكر العشيرة فضلكم وحبكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله) . .

فقال أبو طالب : (قـــد أحببت أن يشركك فى ذلك عمها) . . فالتفت عمـــر و بن أسد يقـــول : (اشهدوا علىّ معشر قريش إنى قد أنكحت محمـــد بن عبد الله خديجة بنت خويلـــــد) . .

وقام كبار الرجال يوقعون بشهادتهم على هذا الرباط المقدس الذى أدخل أكبر المسرات على قلب خديجة . . كما أدخل الاستقرار على قلب السيد الأمين (صلى الله عليه وسلم) . .

وسادت الفرحة فى كل النفوس حولهما . . فقد أصبح ابن عبد الله ولـــه شريكة لحياته المباركة . . تؤازره ويسكن إليها ويطمئن . . وهو فى جهاده الصامت . . ونسكه لله تعـــالى . .

وتحدثت السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . . بما قد حكاه لهـــا ميسرة خلال صحبته للأمين فى رحلتهما بتجارتها إلى الشام . . وورقة نصرانـــى ممن لهم علم واسع بالكتاب . . فقال يطمئنها : (لئن كان هذا حقاً ياخديجـــة إن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه) .

شعر لورقة بن نوفل

كان رجلا طيب السريرة . . ورقة بن نوفل . . وكان يأمل لو أن نبي الأمة يظهر فى حياته ليؤمن به ويتبعه . . وله قصيدة طويلة صاغ فيها مشاعره . . منها هـــذه الأبيـــــات :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا   لهم طالمـــا بعث النشيجـــــا

ووصف من خديجة بعد وصف — فقد طال انتظارى يا خديجا

ببطن المكتين على رجائى — حديثك أن أرى منه الخروجا

بما خبرتنا من قول قس — من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمدا سيسود فينا — ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور — يقيم به البرية أن تموجا

فيلقى من يحاربه خسارا — ويلقى من يسالمه فلوجا

فياليتنى إذا ما كان ذاكم — شهدت فكنت أولهم ولوجا

ولوجا فى الذى كرهت قريش — ولو عجت بمكتها عجيجا

أرجى بالذى كرهوا جميعا — إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا

وهل أمر السفالة غير كفر — بمن يختار من سمك البروجا

فإن يبقوا وأبق تكن أمور — يضج الكافرون لها ضجيجا

وإن أهلك فكل فتى سيلقى — من الأقدار متلفة حروجا

إن ورقة المفكر الواعى . . يحس بما سيكون من أمر الذين سيبعث فيهم النبى المرسل . . إحساس عالم بما درس وقرأ وعرف . . وبوده لو يطول به الأجل ليناصر المبعوث المنتظر . . ويكون شأنه شأن المهديين إلى نور الحق . . الذين يسمعون القول ويتبعون أحسنه . . وتلك مشيئة الله . .

البيت والبنون

حقا لقد حازت السيدة خديجة بهذا الزواج شرفاً كبيرا . . وقدر لها أن تدخل التاريخ من باب لا يلجه إلا الأقلون . . فإذا هى من السيدات الأربع فى الدنيا اللواتى كملن وكن أفضل نساء العالمين . . وسنعرف السيدة الرابعة : فاطمة ابنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . .

أما السيدة الأولى : فهى : آسيا زوجة فرعون التى آمنت ، وطلبت من ربها النجاة من فرعون وعمله . .

والسيدة الثانية فهى : مريم ابنة عمران : أم النبى عيسى عليه السلام . .

بشرى للسيدة خديجة بما حظيت ونالت . . وحق لها أن تفوز بفضل الله . . ولها تلك النفس الطاهرة الأبية . . والروح الشفاقة الرءوفة . . وقد راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالعمل فى مالها . . وينفق من أرباح هذا العمل . . وهو يتهيأ لاستقبال البنين . . وتصبح أمهم خديجة أولى أمهات المؤمنين . . رضوان الله عليهـــــم . .

وخلال ستة عشر عاما ولدت السيدة خديجة أبناءها الست لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

فأول مولود كان : (القاسم) وبه يكنى صلى الله عليه وسلم . . ومات وهو رضيع . . ثم جاءت بزينب . . فرقية . . فأم كلثوم . . ففاطمة الزهراء . . وأخيرا : عبد الله الذى جاء بعد البعثة وكان يكنيه صلى الله عليه وسلم : الطيب والطاهر . . وقد مات طفلا . . ويومها قال الجاهلى العاص بن وائل : انقطع ولد محمد فهو أبتر . . فأنزل الله سبحانه على رسوله : (إن شانئك هو الأبتر) . . وقيل إن نزولها كان فى أكثر من واحد ممن كانوا يشتمون وينفسون على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من كبار الجاهليين . .

وفى فصل تال سنتحدث عن بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فى حياتهن ودورهن مع أزواجهن . . رضوان الله عليهن . .

بنـاء الكعبـة المشرفـة

قال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنـــا ويتخطف الناس من حولهم).

سبب الهدم

كانت الكعبة المشرفة قد تعرضت لحريق . . من أثر شرارة طارت من مجمرة امرأة كانت تبخرها . . فتصدع بعض بنيانها الذى كان من الصخر وعمد الخشب . . ثم جاء سيل جارف إثر أمطار غزيرة نزلت كأفواه القرب على مكة وضواحيهـــا .. فازداد التصـــدع فى الكعبة وتساقطت بعض أحجارها . . وكان ارتفاعها لايزيد عن القامة كثيرا . . مما جعل رجال قريش يفكرون فى هدمها وعمـــارتهـــا . .

وقد تصادف أن كانت سفينة للروم تحمل خشبا قد جنحت إلى ميناء جدة لما أصابها من عطب وبها نجار رومى يدعى (باقوم) . . وهو يتاجر إلى بندر وراء ساحل عدن . . فاستأجروه ، واشتروامنه الخشب . .

وبعد أن اتفق كبار قريش على هدم الكعبة . . تهيبوا فى بادئ الأمر . . حتى قال لهم الوليد بن المغيرة بأنهم بصنيعهم ذاك لايريدون الإضرار ، بل هم أرادوا الإصلاح . . كما صرحوا هم بهذا . . وارتفع صوت أبو وهب بن عمرو المخزومى يقول لهم : لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا . .

وأبو وهب هذا . . هو خال عبد الله (والد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وفيه قال أحد العرب شعرا :

ولو بأبى وهب أنخت مطيتى	غدت من نداه رحلها غير خائب
بأبيض من فرعى لؤى بن غالب	إذا حصلت أنسابها فى الذوائب
أبى لأخذ الضيم يرتاح للندى	توسط جـــداه فروع الأطايب
عظيم رماد القدر يملأ جفانه	من الخير يعلوهن مثل السبائب

وتعدت هيبة رجال قريش من الهدم إلى حد الخوف من حدوث مكروه ينالهم . . ولكن الوليد بن المغيرة . . كان أشجعهم عندما تقدم وحده بمعوله إلى ناحية الركنين من الكعبة ويقول : (أنا أبدؤكم بهدمها . . اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير) . .

وأزال بعض الحجارة . . وانتظر الناس ليلة وهم فى خشيتهم من أن يصاب الوليد بسوء يقعده . . وفى الصباح وقد اطمأنوا إلى أن شيئا لم يحدث . . اشتركوا مع الوليد فى الهدم حتى انتهوا إلى الأساس الذى ابتناه إبراهيم الخليل عليه السلام . .

وعلى هذا الأساس الصلب . . قاموا ببناء الكعبة . . كل قبيلة تبنى من جانب . . وقد كانت فى السابق تسعة أذرع . . فارتفعوا بها إلى ثمانية عشر ذراعا . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه العباس يشتركان فى نقل الحجارة مع غيرهما من منطقة أجيـــاد . .

وعمره (صلى الله عليه وسلم) آنذاك خمسة وثلاثون عاما . .

وكانوا قد اتفقوا مع النجار الرومى (باقوم) لأخذ الخشب بغية تسقيف الكعبة لأول مرة . . وأن يقوم هو بهذا العمل وإجادته . . شريطة أن يجروا عيره مع عيرهم إذا قصدت إلى الشام . . فوافقوه وأجزلوا له فى الأجرة . .

وأثناء البناء عندما وصلوا إلى موضع الركن . . حيث مكان الحجر الأسود. . تنازعت القبائل فيمن يحمله ويضعه فى مكانه . . وذلك لمدة أربعة أيام . . وهـــم فى تشاور ومناورة حتى اقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى . . وكان أسنهم . . فقال لهـــم : (يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم) . .

وهو باب بنى شيبة . . فاستجابوا وانتظروا . . وإذا بأول من يقدم هو الأمين عليه السلام . . وارتفعت عدة أصوات تهتف : (هذا الأمين . . هـــذا محمـــد . . رضينـــا به حكمـــا) . .

وإذ اقترب منهم يستمع إلى القصة وما كان من أمرهم . . قال : (هلموا إلى ثوبا) . . وإذ جاءوه به . . حمل الحجر الأسود بين يديه ، ووضعه وسط الثوب ثم قال لهم : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا) . . فإذ وصلوا به إلى موضعه من الكعبة . . تناوله بيده (صلى الله عليه وسلم) ووضعه فى مكانه من الركن وبنى عليه . . وفى هـذه الحادثة قال هبيرة بن أبى وهب ابن عمرور – شعرا وهو يشير إلى مدى التنافس الذى جرى :

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مـودة	وأوقد نارا بينهم شر موقـد
فلما رأينا الأمر قد جد جـده	ولم يبق شئ غير سل المهنـد
رضينا وقلنا العدل أول طالـع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمـد	فقلنا رضينـا بالأمين محمـد

وقد تم بناء الكعبة على ستة قوائم . . وأحكم تسقيفها . . وارتفع ببابها عدة درجـات عن الأرض . .

غير أنه أنقص من عرضها خمسة أذرع جعلوها فى الحجر . . وإلى هـذا يشير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلى زوجه عائشة : (يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منـه وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم) . .

ولقد أعيدت كما كان يرجو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وذلك فى عهد يزيد بن معاوية . . عندما تعرضت الكعبة للقصف بالمنجنيق من قبل بعض جنوده وكان فى مقدمتهم الأمير الحصين بن نميرة الذى جاء لمحاربة عبد الله بن الزبير . . فقام هذا بعد وفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة بتجديد بناء الكعبة . . وإعادة الخمسة أذرع من حجر إبراهيم إلى الكعبة . .

وهنالك حادثة سابقة ليس من الإنصاف إغفالها . . وقد أكد عليها بعض المؤرخين عن سبب تخوف قريش من القيام بهدم الكعبة . . فقد كانوا يرون حية تخرج من جب داخلها . . كانت توضع به الهدايا المقدمة لبيت الله الحرام . . ويروى أن للحية ضخامة مرعبة . . وهى تظهر على جدار الكعبة فى الشمس . . حتى سلط الله عليها طائرا كالعقاب فتك بها وألقاها بعيدا عن البيت الحرام . . وعن ذلك روى البعض هذه الأبيات من قول الزبير بن عبد المطلب ، كتصوير لحادث الحية ونهايتها . . قال :

عجبت لما تصويت العقـــاب	إلى الثعبان وهى لـــها اضطـــراب
وقد كانت يكون لها كشيش	وأحيـــانا يكون لهـــا وثـــــاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت	تهيبنا البنـــــاء وقـــد نهـــــاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت	عقاب تتلئب لهـــا انصبـــــاب
فضمتها إليهـــا ثم خلـــت	لنا البنيـــــان ليس له حجـــاب
فقمنا حاشدين إلى بنـــــاء	لنا منه القواعـــــد والـــترا ب
غـــــداة يرفع التأسيس منه	وليس على مسوينـــــا ثيـــاب
أعـــز به المليك بنى لـــؤى	فليس لأصلـــــه منهم ذهـــاب
وقد حشدت هناك بنو عدى	ومـــرة قـــد تقـــدمها كـــلاب
فبـــوأنا المليـــك بذاك عزا	وعنـــد الله يلتمس الثـــــواب

ولعل الظاهرة المميزة لجميع الشعر الذى كان يقال فى كل المناسبات عند قريش بل عند العرب بصفة عامـــة . . هى الفخر والتحدث بأفضال القبيلة . . والاعتزاز بالجدود والأنساب . . فهم بلا شك الصفوة الطيبة بين الناس . . وخاصة من القرشيين الذين فيهم الرياسة والسيادة والشرف برعاية البيت الحرام وسدنته وإكـــرام قصـــاده . .

البعثة المحمدية

حدثت السيدة عائشة – رضى الله عنها – قالت : أول ما بدئ به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى حتى بلغ من الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة الخبر لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت ابن عمها : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى كان امرءا قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال : ورقة بن نوفل للنبى عليه الصلاة والسلام : يا ابن أخى ماذا ترى : فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : (هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ،ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى حيا إذ يخرجك قومك) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ، قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا . ثم لم يلبث ورقة أن توفى ، وفتر الوحى) .

** من صحيح مسلم **

بشريات

فى عامه الثامن والثلاثين صلى الله عليه وسلم . . كانت الخلوة قد حببت إليه بغار حراء . . فى جبل النور ، حيث يشرف منه على الكعبة المشرفة . . ويبعد عنها بنحو ثلاثة أميال . .

كان عليه الصلاة والسلام يرى أنواراً تشع أمامه . . ويسمع أصوات نداء تعنيه . . ثم لايرى أحداً . . فكان يتفكر فى ملكوت ربه تعالى . . ويطيل الذكر وهو يعبده فى رغبة وتلهف . . على دين أبيه إبراهيم عليه السلام . .

وكان فى قلبه حديث . . وكأن روحه الشفافة تنتظر أمرا . .

وقبل البعثة بنحو من الستة أشهر . . إذا به صلى الله عليه وسلم — يرى الرؤى الصادقة فى منامه ولا تلبث أن تتحقق أمامه فى اليقظة . . وكان يأخذ زاده من بيته ويتغيب فى حراء من عشرة إلى خمسة عشر يوما . . ولم تكن زوجه خديجة لتضيق بهذا التغيب . . بل إنها لسعيدة أن يكون لزوجها ذلك الشأن الذى يتحدثون عنه فى أكثر من مناسبة . . وهى صاحبة خلق وتدين . . كما أنها تفهم من أمره الكثير . . وترجو الله أن يقر عينها به . . ولا تفتأ تمده بما يصلح حال عزلته وانصرافه إلى عبادة ربه . . وكأنما تتوقع ، بل وتنتظر ما قد سيحققه له سبحانه وتعالى من آيات بينات . .

كانت الدلائل يلاحق بعضها بعضا لتبشر ببعثته . . صلوات الله وسلامه عليه . . فهى تشير إلى الحدث المرتقب بشتى الوسائل . .

كان صلى الله عليه وسلم . . إذا مر بشعاب مكة أوأوديتها بعيدا عن الناس . . يسمع للشجر وللحجر صوتا يقول : (السلام عليك يا رسول الله) . . ولا يرى شيئا . . إنها هواتف من الرحمن ، يحس لها فى نفسه طمأنينة ومسرة . . كما يلذ له الصمت الجليل فى اعتزاله بغار حراء الأطهر . .

ومع اقتراب أيام البعثة . . كان رهبان النصارى وأحبار اليهود . . قد عرفوا العلامات التى تسبق مبعث خاتم الرسل — صلى الله عليه وسلم . . وبها تحدثوا . . وقد جاء زمانه — كما قرأوه فى كتبهم . . وحتى كهان العرب تحدثوا باقتراب الموعد . . وكانت تأتيهم الأنباء عن شياطين الجن الذين كانوا يسترقون السمع من السماء قبل أن تحجب . . حتى جاء اليوم الذى منعوا فيه وقذفوا بالشهب . . وكانت قريش ترى قذائف النجوم تتوالى إلى الحد الذى أرعبهم وجعلهم يحسبونها نهاية الدنيـــــا . .

وجاء ذلك الخبر فيما بعد من القرآن الكريم — حين قال تعالى عن الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) . .

كذلك روى الصحابى سلمان الفارسى بأنه يذكر بأنه صحب فى صبـــاه قسيسا كان يقول له : (يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة) . .

وشاعر المدينة فى الجاهلية أمية بن أبى الصلت كان نصرانيا ويتحدث دائما لكل من يلقاه : (إنى لأجد فى الكتب صفة نبي يبعث فى بلادنا) . .

وكان الوعـــد الحق

(وأتت عليـــه أربعـــون فأشرقت
شمس النبـــــوة عنه فـــى رمضـــــان)

(العلامة يحيى الصرصرى)

عند اكتمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه الأربعين . . وفى مقـــر وحدته وتبتله . . جاءه جبريل عليه السلام بوحى ربه تعالى — كما قرأنا من حديث السيدة عائشة — رضى الله عنها . . وقد كان بدء الوحى يوم الاثنين السابع عشر

من شهر رمضان . . وهو يوافق لشهر يوليو من عام ٦١٠ للميلاد كما حققه أكثر المؤرخين . .

وكان لفتور الوحى أكثر من شهر . . قلق وتشوق عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهو يبتهل إلى ربه جل وعلا . . حتى وافاه جبريل قرب نهاية شهر شوال كما ورد عن جابر بن عبد الله الأنصارى – رضى الله عنهما . . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت ، فقلت : زملونى زملونى ، فأنزل الله تعالى : (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر) . فحمى الوحى وتتابع . .

وكانت فترة إبطاء الوحى سببا جعل مشركى قريش يقولون بأن محمداً قلاه ربه . . فأنزل الله تبارك وتعالى ثلثى سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . .) . .

تتابع الوحي

ومما يؤكد بداية نزول القرآن فى شهر رمضان . . قوله تعالى :

١ – (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

٢ – (إنا أنزلناه فى ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر) .

٣ –(حم والكتاب المبين. إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين) .

وكان القرآن المجيد وهو يوحى متفرقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل على قسمين :

قسم يتزل دون وقوع حادثة ما أو يصدر أى سؤال . .

والقسم الآخر : ينزل بعد استفسار أو وقوع أمر ومن كلا القسمين يجىء التشريع أو العبرة أو التوجيه إلى منافع عامة أو خاصة . . كما تجىء كذلك أخبار الأولين – مما شاء الله تعالى أن يخبر به – وما قد سيقع فى قادم الأزمان مما أراد سبحانه إيضاحه أو التلميح إليه . . كذكرى وكعبرة . . وكإرشاداً وتبصرة . . [1]

أول من أسلم

السيدة خديجة . . تحمل مع زوجها شيئا من عبئ الرسالة . . فهى التى ترعاه بلطف . . وهى التى تتقبل عنه كل ما يقوله وما يريد أن يوضحه . . لأنها إنسانة إنسانة . . كانت تعى دورها التاريخى الجسيم . . وهى تدرك وتفطن أنها أصبحت تعاشر النبي والرسول . . سيد الأمة وقائدها إلى بر النجاة . . من بحور الشرك والظلمات التى رانت طويلا . .

فهى (خديجة) أول من أسلم من النساء . . صدقته عن قناعة وإيمان عندما عرض عليها الدين الذى جاء به من ربه إلى الناس كافة . . ومن أسرع منها وهى حضنه . . وهو حياتها . . لتؤمن بالله رباً . . وبالإسلام دينا . . وبمحمد نبياً . . صلى الله عليه وسلم . .

وكان على[2] بن أبى طالب فى كفالته (صلى الله عليه وسلم) . . فما كاد يسمع منه بالنبأ العظيم حتى يبادر لإعلان إسلامه . . ويلازم رسول الله كلما خرج إلى الصلاة مستخفيا فى شعاب مكة حتى عن أهله وأبيه . . ولقد وجدهما مـــرة

---

(١) ألفت فى القرآن وعلومه وفنونه العديد من الكتب والأبحاث فى القديم والحديث .

(٢) ولد الإمام على – ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثلاثين من عمره .

أبوه يصليان ، فكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا ابن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ فأجابه : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه . .

ولكن أبا طالب لضعف فى إرادته ولتشدد فى عصبيته كان يقول : (أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص أحد إليك بشئ تكرهه ما بقيت) . .

حمية أبى طالب وعطفه على ابن أخيه . . بل وقناعته بما يدعو إليه (صلى الله عليه وسلم) . . كل ذلك جعله يقف عند كلمته فى الدفاع عن صاحب الرسالة . . فلن يصيبه مكروه ما دام يحيا . . ولكن كبرياءه وسط قومه . . وهو رئيس قريش وسيدها . . جعلته يقف هذا الموقف السلبى من الدين الحنيف طيلة حياته . . أية عصبية هذى التى تتحكم فيه لدين قومه ؟

أما أول من أسلم من الموالى . . فهو (زيد بن حارثة) الذى كان قد جاء به ضمن الأسرى من الشام عم السيدة خديجة : حكيم بن حزام . . فاختارته غلاما لها . . وطلبه منها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأعتقه وتبناه ورباه بينهم . .

كذلك أم أيمن تعتبر أول المسلمات من الإماء . .

و (بلال بن رباح) أول من أسلم من العبيد الذين أعتقهم أبو بكر الصديق بعد أن اشتراهم من ماله ووهبهم الحرية تقربا إلى الله تعالى . .

وكان أبو بكر قد أسلم بعد على بن أبى طالب – رضى الله عنهما . . وأظهر إسلامه بين قومه داعيا إلى الله ورسوله غير هياب . . واشتهر عنه أنه كان نسابة قريش الأكبر . . وقد استجاب إليه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله . . وأعلنوا إسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهم من كبار القوم وذوى الحسب فيهم . .

الإقبال على الله

إن ما كان يحدث فى مكة آنذاك . . لم يكن بالأمر الهين . . وعوامل التغيير توشك أن تفصح عن نفسها . . ولكن الدعوة الإسلامية تنتشر فى السر . . ويتكامل عدد المسلمين إلى الأربعين بدخول عمر بن الخطاب إلى جانب رجال الله . . وهو يتحدى قريشا بالصلاة أمامهم . . وعند بيت الله الحرام . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتشاور مع صحابته على المجاهرة بالإسلام ودعوة الناس إليه . . بالتروى وبالحكمة حتى لا يحدث ما يثير العداء أو يدعو للتصدى المباشر . .

وكان طبيعيا أن قوما كقريش . . وهم عبدة أصنام بالوراثة . . يعز عليهم أن يفاجأوا بمن يناوئ معتقداتهم .. أو يغير من أوضاع عبادتهم بعد السنين الطوال على الضلال والجهالة . . وكان أخشى ما يخشوه أن تصح ما كانوا يسمعونه من نبوءات ونذر . . وما كان يتردد من أن نبيا هذا أوان ظهوره . . ويرغمهم على ما لايريدون ويحول من اتجاهاتهم . .

ولكـــن الواقع المنتظر . . أن أوثانهم تتلاشى . . وسيتطور بهم مجتمعهم المضطرب التائه إلى حياة وضاءة كريمة . . ولن يتوقف الإقبال عـــلى الله منذ طلع النجم المحمدى فى كل أفق من آفاق الوجود اللانهائى . . وبمرور الأيام يتكاثر المسلمون . . وتحس قريش بمقدم العاصفة . . ولكن الذين آمنوا فى قوة تتزايد . . وسيثبتون أمام أسوأ الاحتمالات . . فثقتهم بالله وبما عند رسوله أكبر من أى شئ فى هـــذه الدنيـــا . .

دعوة الإســـــلام تنطلق

ثلاثة أعوام أمضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثته . . وهو يدعو إلى الإسلام مع صحبه من المؤمنين . . فى سر وفى جهر . . ولكن على حذر ودون أية مجابهة أو إعلان عام . . فكانوا يؤدون صلاتهم فى السر . . إلا القلة ممن لهم

مكانة فى قومهم . . حتى جـاء الأمر الإلهى . . وقال تعالى لرسوله الكريم : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) . .

دعوة صريحة للانطلاق بالإسلام إلى خطوة أكبر . . وأوسع مدى حتى فى الإعراض عن أعمال الجاهلية كنوع من المقاومة . . ثم يقول له تعالى : (وأنـذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمـن اتبعك من المؤمنين) (وقل إنى أنا النـذير المبين) . .

إنه التكليف الإلهى لينذر قومه من أهله . . الأقرب فالأقرب . . وفيـه إيضاح بالعقاب لكل من يعصى أوامر ربهم وأحكامه . . وهى تترى بين الفينـة والفينة . . بكلماته تعالى (قرآنا عربيا) . . ينير النفوس وتهتدى به الأفئدة . . وتطمئن معه الأرواح فى صحوها ومنامها . .

ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصفا . . فى نطاق دعواته إلى دين الله . . وراح يهتف بالناس : يا معشر قريش . . حتى هتف منهم من يقول : من هذا الذى يهتف ؟ ويرد آخرون : إنه محمـد .

ويرتفع صوته القوى مناديا : يا معشر قريش . . يابنى فهر . . يابنى عدى وبطون قريش . . فيتجمعون حوله يسألونه الخبر . . مالك : فيتكلم فيهم : أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم وممسيكم أكنتم مصدقى ؟ فيعترفون له بأمانته : (ما جربنا عليك كذبا) . . فيقول لهم صلى الله عليه وسلم : (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) . .

ويجرؤ أبو لهب ليسخر : (تبا لك اليوم كله ألهذا جمعتنا) ؟ . . ولكن أنى له أن يفلت من عار الدنيا وشنار الآخرة . . فقد نزل بحقه قول الله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه مالـه وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد) . . ذلك أن امرأته كانت تروج الأكاذيب بين النساء . . فكلاهما فى ضلال وسعر . .

وذلك جزاء كل من يعادى ويتصدى للدعوة المقدسة لوحدانية الله . . الدعوة التى فزعت لها قريش . . وهى تنطلق جهارا . . وستبلغ مداها رضيت أم أبت . . (ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) . .

قريش تقاوم

لم يكن يرضى قريشا ذلك التكتل الروحى الآخذ فى التصاعد . . بعد أن جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته إلى الإسلام . . وأصبح يتصل بالقبائل الوافدة إلى الحج . . ويعرض أمر دين التوحيد عليهم كى يتناصرونه . . ويهديهم إلى طريق الحق . . وفيما روى الثقات عن أبى طارق – رضى الله عنه – قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذى المجاز يعرض نفسه على القبائل العرب ، يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . . وكان خلفه رجل له غديرتان من شعره يرميه بالحجارة حتى أدمى كعبيه يقول : (يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب) . . حاشاه صلى الله عليه وسلم ، فسألت عنه ، فقيل إنه غلام عبد المطلب : عمه عبد العزى – يعنى أبا لهب – وهذا كان ممن لا يتورعون عن الإساءة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتشديد الأذى عليه . . ولكنهم يلاقون دائما الجزاء الذى يستحقونه لقاء نكرانهم واستهزائهم وتسلطهم بالأذى والضر بالمؤمنين وبرسولهم . . صلوات الله وسلامه عليه . .

وراح موقف قريش يتشدد فى المقاومة . . وقد عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آلهتهم ، وأنكر عليهم قصور عقلياتهم عن التجاوب إلى وحدانية الله . . كما سخر من إصرارهم على وثنيتهم . . كما قال الله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) . .

وأورد القرآن الكريم دعاواهم وجدالهم فى تشبثهم بعباداتهم . . حتى قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) . .

إنهم فى ضلالتهم يقاومون . . فيتفكرون وهم فى أمر مريج . . لا يستقر لهم حال . . ولا يستطيعون أن يجتمعوا على شئ . . وهم يرون امتداد دعوة الأمين (صلى الله عليه وسلم) . . وتشبث الناس المؤمنين بها . . فلم يجدوا من ملجأ سوى الإساءة إلى الضعفاء من هؤلاء القرشيين الذين آمنوا واهتدوا . . وتعذيبهم إلى حد أن بعضهم تحمل من العذاب ما تنوء بمثله أعتى الأجسام . . وهم يريدون إعادتهم إلى الوثنية والكفر بما أصبحوا عليه من نعمة الدين والهدى . . ويخيب المتجبرون فى أعمالهم واستفزازاتهم . .

ويذهب كبار قريش إلى سيدهم أبى طالب رجاء أن يوقف ابن أخيه (الرسول النبى) عن دعوته . . وعن تسفيه أصنامهم وأحلامهم . . أو أنه لا يحول بينه وبينهم ليروا فيه (صلى الله عليه وسلم) ما يرون . .

ولكن دعوته العظمى لإقرار الحنيفية فى الأرض . . غير ما كانوا يأملون ويتوقعون . . فهم من منطق المادية والوثنية يتكلمون ويحكمون على الأشياء . . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفته الجليلة ليقول لعمه أبى طالب بصوت الحق : (يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته) . .

واستعبرت عيناه الحبيبتان ، وهم أن يترك عمه وشأنه ، ولكن أبا طالب ناداه : (أقبل يا ابن أخى ، فأقبل عليه ، فقال : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك لشئ أبـــدا) . .

التوحيد أقوى

لم يكن التعذيب لينال من أهل التوحيد شيئا . . ولن يزحزح أحدهم عـــن معتقده الجديد فى الله ونصره . . (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمل ولا يضعف ولا يتوقف عن دعوة الإسلام

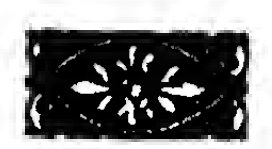
ليبلغها إلى كل الناس . . ويرجو الله تعالى أن يهدى إلى هذا الدين كل من يستمع إليه . . ويواصل الصحب الكرام . . وقد اطمأنت قلوبهم بالإيمان . . دعـوة أقربائهم وأهاليهم إلى نور الإسلام . . فإن أبوا عليهم تركوهم وشأنهم واتجهوا إلى مسار رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يفتدونه بالجهد والمال والنفس . . ويصرون على ما جاءهم به من نعم الهداية وتوحيد ربهم . . وقد كملوا بإنسانيتهم كخير أمة أخرجت للناس . .

ويسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحبه وبشدة احتمال بعضهم لما يلاقون من تعذيب قريش . . أو فراق الأهل والولد . . وبقدر مسرة الرسول صلى الله عليه وسلم بهم وبإقبالهم على الدين كالوارد الظامئ على الماء يطلب الحياة . . كانت مسرته أيضا بموقف عمه أبى طالب ليدرأ عنه كيد قريش . . وينطلق بدعوته إلى ربه كما يشاء . . وإن كان هو (صلى الله عليه وسلم) يتألم لكون عمه باق على حاله لا يستجيب إلى الإسلام مع قناعته به . . ولكنه كان يرى فى خروجه على أوضاع وتقاليد قومه كبيرة لا تليق بمكانته الكبيرة بينهم . . وبالرغم من هذا كان لا يتوقف عن جدالهم ومحاولة إبعادهم عن طريق ابن أخيه المبعوث بالحق ودين الهدى . . فهو لا يكف عن حمايته والوقوف دونه . . ولن يتمكنوا من الوصول إليه وهو حى يرزق . . وقد روى أنه قال فى ذلك شعرا . . ومنه هذه الأبيـات :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتّى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً لا محالة أنه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة	لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

ترى أى ملامة . . أية سبة . . كان يحذرها رجل هو سيد قومه . . ولو قالها باسم التوحيد لا نضم معه الأكثرون . . ولكنه كبرياء السيادة . . وهموم سلطة

الدنيا الفانية . . والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم . . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يأمل ويرجو أن يهتدى عمه بدعوة الإسلام التى يشيد بها ويعلم من رفعة شأنها الكثير . . ولكنه كان فى ذات نفسه فى عبودية قديمة . . وأمثاله قد صرحوا بهذا فيما أورده الله سبحانه فى قوله تعالى : (بل قالوا إنـــا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) . . فلا حول ولا قوة إلا بالله . . وما التوفيق والهدى إلا منه وهو على كل شئ قديـــر . .



ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

سورة القصص (٢٨) الآية ٥٢ — ٥٥

نتيجة التعذيب

منذ أن جهر (البشير النذير) صلى الله عليه وسلم بالدعوة الإسلامية وبمعاداة الأوثان . . أخذت تصرفات قريش تتسم بطابع المقاومة العنيفة . . وفى ظنها أنها ستجبر حملته على الخضوع لإرادتها . . وأنها ستوقف المد العقائدى الجديد عن الاسترسال والتحرك . . وهو قد تغلغل فى نفوس صلبة الإيمان . . وفى جوانح تسترخص أى شئ فى سبيله . . ولقد ارتفع دين الإسلام برجاله إلى الدرجة التى لا ينزل عنها . . فقد كانوا فى عطش لاحب ، وارتووا . . وكانوا فى ضياع الجهالة فوجدوا ذواتهم مع الإيمان . . فأخذوه عن قناعة . . وتشربوا مبادئه عن ثقة وطواعية ورغبة فى الأفضل . .

لهذا كان إيذاء قريش وتسلطها على المستضعفين والتنكيل بهم . . عمل عشوائى وموقوت . . يتحداه هؤلاء بالصبر وقوة العقيدة . . ولن يذلوا أو يخضعوا أو يتراجعوا . . فهم أهل حق وأصحاب دين الله الذى أراده خاتمة أديانه على الأرض . . وأتباع خاتم الأنبياء والرسل . . عليه الصلاة والسلام . . الذى كان يتحين الفرص ويفكر من أجلهم ليخفف عنهم من مصابهم . . ويدعو الله تفريجا لهمومهم . . وخروجا من ضيقهم . .

أول الهجرة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السادسة والأربعين من عمره ، عندما أذن لمن يريد الهجرة من المسلمين إلى بلاد الحبشة . . فرارا من إساءات قريش . . فيأمنوا أياما حتى يأذن الله بفرج عميم . . وقد كان فى الحبشة حاكم نصرانى معتدل (لا يظلم عنده أحد) كما يروى . . وهو : (النجاشى) واسمه : أصحمة بن أبجر . .

وخرج إلى الهجرة الأولى : اثنا عشر رجلا وخمس نسوة . . وفى مقدمتهم :

عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وذلك فـــى شهر رجب . . أواخر السنة الخامسة للبعثة . .

غير أنه لم يطب لهم المقام بالحبشة . . لقلتهم وشعورهم بالغربة . . وهم كرام قوم وفى مستوى لم يجدوه . . ثم إنهم سمعوا بالإشاعات عن إسلام معظـــم قريش — وكانت من مفتريات المشركين وأتباعهم للنكاية بالمسلمين —

وعاد فوج المهاجرين إلى موطنهم بمكة . . ولكنهم وجدوا الوضع كما كان . بل إنه راح يتزايد . . والحيرة تلف كل النفوس . .

الامتحــان الصَعْب

تلك حقيقة مؤلمة . . أن يتصدى تعنت قريش للخيرة من أحزاب الله . . وفيهم رسوله يعدهم بأفضل مما يرون . . ويبث فيهم العزيمة على المقاومة والصبر . . للأذى الذى بلغ مداه من قريش وأعوان قريش . . والتعذيب الشديد الذى يلقاه البعض فى أجسامهم وفى أهاليهم . . ولكن المسلمين يتزايدون على الرغم مما يرونه من جبروت وعنت فى سبيل تقبلهم للدعوة الخالصة لله تعالى . . وأصبحت مكة تموج بمن فيها وتضطرب أحوالها . . فإذا من كل بيت يأتى خبر ويسمع عـــن تعـــذيب . .

حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح يشتد عليه الأذى من بعض رجال قريش . . ومن سفهائهم . . غير أن (أبا جهل) وهو عمرو بن هشام بن المغيرة — وكان يكنى أبا الحكم — قد كان من المسيئين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبلغت به قحته أن جاء إليه عند الصفا يدعو ربه .. وراح يشتمه ويكيل له كلاما يكرهـــه فى دينه ودعوته . . فما أجابه الرسول الهادى صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت تسمع ما قاله أبو جهل ، مولاة لعبد الله بن جدعان . . وظلت تنتظر فى منزلها حتى مر عم الرسول : حمزة بن عبد المطلب . . فى طريقه إلى الكعبة يطوف

بها كعادته كلما عاد من رحلة صيد ، وكان متوشحا قوسه ـ . فنادته مولاة عبد الله : يا أبا عمارة ، لو رأيت مالقى ابن أخيك آنفا من أبى الحكم بن هشام ، وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم . .

ولم يتمالك حمزة من غضبته على الفاعل الآثم أبى جهل . . فذهب يبحث عنه ليجده بين القوم فى ساحة المسجد . . فقصده وشج له رأسه بالقوس . . وهو يقول له : (أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت) وهب بعض الرجال للدفاع عن أبى جهل . . فقال لهم هذا : (دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحا) . .

وهكذا كان إسلام حمزة نصراً جديدا للإسلام . . كما كان فى السابق إسلام عمر بن الخطاب الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك : (اللهم أعز الإسلام بعمر) . . وحتى قال عبد الله بن مسعود : (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) . .

غير أن قريشاً كانت فى دوامة تتحلق عليها بألوان شتى . . فتوغر صدور بعضها البعض للدفاع المستميت عن آلهتها وتعددها وجاهليتها الحمقاء . . حتى لقد اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعل السحر والكهانة آنا . . وبالجنون وبنظم الشعر آناً . . وألقوا بهذه الترهات إلى القادمين فى المواسم للحج وللتجارة فى أسواقهم المعروفة . . ولكن كل ما فعلوه لم يمنع أن يشتد حبل الإسلام . . وأن يجد له فى كل يوم جندا وأنصارا باعوا الدنيا ونكروا متعها . . وأقبلوا إلى نور الدين والاعتصام بما عند الله وعند رسوله . . فلقد هان كل شئ عندهم . . هان المال والولد . . هان عليهم العذاب والحرمان . . وترك الأب أبناءه . . وترك الابن ذويه وأهله . . فالكل أسلم وجهه لله الكبير المتعال . . وسار فى الركب الذى لن يتوقف سيره . . وقد أرادوا حقيقة الحياة التى لها ما بعدها فى الخلود . . (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . .

تصرف آخر لقريش المتعنتة . . وكلون أشد للمقاومة . . بل قل إنها القطيعة المتعسفة . . وإحكام الحصار حول نبي الهدى والرحمة وأتباعه . . بعد أن يئست من أعمالها السابقة فى التعذيب والأذى . . وهى ترى الإسلام ينتشر ويعلو شأن أهله . . وهم لا يبالون بكل ما يحدث لهم فى سبيله . .

لقد اعتزمت قريش أمرا . . فتفصل ما بينها وبين المسلمين . . بحيث لا تجالسهم ولا تبايعهم . . لا تحدثهم ولا تناكحهم . . وهى بهذا تفرض الحصار عليهم بما فيهم جميع بنى هاشم والمطلب . . والسيد الأمين المرسل . . عليه الصلاة والسلام . .

وكتبت قريش الصحيفة بذلك الحصار . . وعلقتها داخل الكعبة . . وقام الطرفان بتنفيذها . . وقد حدث هذا مع بداية شهر المحرم خلال السنة السابعة للبعثة . .

ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه . . شعب أبى طالب بأعلى مكة ، فلا يتعاملون إلا مع القبائل الموالية لبنى هاشم . . وظلوا على هذه الحال نحو ثلاثة أعوام . . حتى لقد بلغ بهم الجهد ، وهم صابرون فى ثقة بالله . . وفى كبرياء الإيمان الذى لا يتزعزع ولا يهن . .

وعن حالة هذا الحصار الطويل نظم أبو طالب قصيدته اللامية الطويلة يعتب ويندد . . يفتخر ويستعطف . . وفيها يقول :

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل
وإنا لعمر الله إن جد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

بكفى فتى مثل الشهاب سميدع   أخى ثقة حامى الحقيقة باســل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم   وآل قصى فى الخطوب الأوائل
لعمرى لقد كلفت وجدا بأحمد   وإخوته دأب المحب المواصل
حليم رشيد عادل غـــير طائش   يوالى إلهاً ليس عنه بغافــــل

كان هذا الحب الصادق من أبى طالب لابن أخيه المبعوث (صلى الله عليه وسلم) والمشاعر الطيبة نحوه . . خير عزاء فى هذه المحنة . . إلى جانب تلك الفدائية الرائعة من صحابته وجلدهم معه . . ثم مواساة زوجه وحدبها وأملها الكبير فى نصرة قريبة مثله . . وهو (صلى الله عليه وسلم) كان ينتظر الفرج بين كل ساعة وأخرى . . والله سبحانه ينزل عليه من آياته البينات ما يطمئن بها قلبه ويشد بها عزيمته والمؤمنين معه . . رضوان الله عليهم . .

الهجـــرة الثانيـــة

منذ بداية كتابة الصحيفة . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لمن يريد من المسلمين أن يهاجر إلى الحبشة . . تخلصا من الحصار الذى فرض عليهم . . ومن العذاب الذى يلاقونه من قريش ومن سفهائها . .

فسافر كثيرون . . وقدر عددهم بثلاثة وثمانين رجلاً وتسعة عشر امرأة . . فى مقدمتهم : جعفر بن أبى طالب وزوجه ، وعبد الله بن مسعود ، وعثمان ابن عفان وزوجه ، وعبد الرحمن بن عوف . . وغيرهم من مختلف القبائل . .

وفى الحبشة أنسوا ببعضهم البعض . . وطاب المقام لهم فى حماية (النجاشى) . . حتى إذ ما علمت قريش بأن المسلمين يعيشون فى مأمن واستقرار بالحبشة . . . . راحت تكيد لهم . . بأن أرسلت إلى النجاشى بوفد من رجلين[1] يحملان إليه الهدايا . . ويحاولان إقناعه ، بل أوغروا صدره ليخرج المسلمين من دياره . . ولكن

(١) هما : عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص الذي أسلم فيما بعد .

النجاشي يحاورهما في جدال عنيف ليكتشف النوايا العدائية التي أرسلتهما قريش من أجلها . . وهو قد سمع إلى ما قد آمن به المسلمون . . وما شرحوه له مـــن مقومات الدين الإسلامي الحنيف . . فإذا به يتصدى للرسولين الخاسرين . . ويعيد لهما هدايا قريش البغيضة . . ليرحلا عن أرضه كطريدين . . بعد أن فشل سعيهما وهما يتميزان من الغيظ . . تماما كما أحست قريش بخيبتها وغيظها المكبوت . .

وكان أبو بكر الصديق — صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أراد أن يهاجر إلى الحبشة لما أصابه من أذى قريش — وقد أذن له . .

فالتقى به (مالك بن الدغنة) يسأله : أين يا أبا بكر قال : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي . قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع فأنت في جواري) . .

فعاد معه إلى مكة ، وراح مالك ينادي : (يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير) — كما روت ذلك ابنة الصديق : عائشـــة . .

وكان إذا تقدم رجل من كبار قريش يجير أحداً ، فلا يمكن أن يؤذى . .

وكان بعض من هاجر قد عاد إلى مكة . . وبقي البعض الآخر . . إلى حين . . كما أن بعض العائدين . . قد اضطروا إلى أن يكونوا في جوار بعض كبار القوم . . حتى يأمنوا من الأذى والإساءة في تلك الشدة العصيبة . . وهي لا تلبث أن تزول كما يزول كل باطل ويسحق . . ويبقي صوت الحق أعلى من كل شئ . . وفوق كل شئ . . لأنه صوت الإسلام . . (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) . . صدق الله العظيم . قوله الحق وهو خير الحاكمين .

استكمال خبر الصحيفة

عرفنا بذلك الحصار الذى أرادته قريش من كتابة تلك الصحيفة [1] التى حملت فى طياتها الظلم والكيد بالمؤمنين وبرسولهم صلى الله عليه وسلم . ثم ما يلبث كبار قريش أن يختلفوا بشأنها . . وتنقضها خلافاتهم . . وقد ذكر لهم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب بأن دويبة (الأرضة) قد أتت على ما فى الصحيفة من مظالم ، وهى على جدار الكعبة ولم تترك سوى اسم الله تعالى عليها . فلما رأوا صدق ما قاله صلى الله عليه وسلم فيها . . بيتوا أمر عودتهم إلى العدوان .

واشتدت المقاومة بمختلف وسائل الإساءة . . وتولى هذه المباذل بعض رجالهم ومأجوريهم . . وفى طليعتهم : أبو جهل . وأبو لهب . وشيبة وعقبة ابنا أبى ربيعة . وأمية بن خلف والوليد بن عقبة . وعقبة بن أبى معيط . . وقد انتقم الله منهم وأذلهم . .

ولئن كان حصار الصحيفة قد انبت . . إلا أن مظالم قريش العدوانية ظلت تتالى . . وعنف سوءاتها لا يتوقف إلا ليتجدد . .

ولأبى طالب قصيدة دالية فى استبشاره بتمزيق الصحيفة . . يقول فيها :

قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا   على مهل وسائر الناس رقد
هم رجعوا (سهل بن بيضاء) راضيا   وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام فى حل أمرنا   وكنا قديما قبلها نتودد
وكنا قديما لا نقر ظلامة   وندرك ما شئنا ولا نتشدد

وبقيت مكة آنذاك كأنها سجن كبير . . وليس أمام المسلمين غير الصبر والمجالدة حتى آخر لحظات الصراع . . فى انتظار نصر الله القريب . .

---

(١) في كتب السيرة شرح للصراع الذي حدث بين بعض كبار قريش حتى اتفق ناس منهم على تمزيق الصحيفة .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ
وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ
ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾

سورة فصلت (٤١) الآية ٦ ــ ٩

أول الوفود

بعد أن يتنفس القوم المؤمنون الصعداء . . عند فك الحصار ، ونزولهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعب . . كان هنالك وفد قد قدم إلى مكة من نصارى نجران . . ويتكون من عشرين رجلا . . كانوا قد عرفوا بأمر الدين الجديد من مهاجرى الحبشة . . فكان أول ما اتصلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . واستمعوا منه لدعوة الوحدانية لله . . اطمأنوا لما عرفوا وآمنوا به وبما جاء من كلام الله تعالى . .

وكعادة (أبى جهل) وهو يتحين كل فرصة للإساءة . . فقد اتصل بهذا الوفد الذى آمن . . وراح ينفث سمومه فى أسماعهم التى ملأها الإيمان هدى . . . . فرفضوا جداله العقيم بهذا القول الحاسم الذى وجهوه إليه : (سلام عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه) . .

وعندها أوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) . .

موت خديجة وأبى طالب

نحو نصف العام مضى على الخروج من الشعب . . وفى عام ٦٢٠ للميلاد . . تمرض السيدة الحنون والشريكة الأمينة . خديجة . . زوجة الهادى صلى الله عليه وسلم . . ثم إذا بها تفارقه ، وقد فارقتها الحياة صاعدة بالروح إلى حيث تنعم فى الخالدين . . حياة أخرى أبقى وأعظم . . مخلفة أطيب الذكر إلى جانب سيد العالمين . . وقد افتقد فيها صلى الله عليه وسلم الحبيب والرفيق والأليف الذى لا

ينساه مدى عمره الشريف . . ولقد كان حزنه كبيرا جدا عليها . . والفراغ الذى تركته ،وحش قاتم . . ولكنها تركت فى نفسه الطاهرة أبلغ الآثار . . حتى إنه ظل يذكرها كل حين ويترحم عليها وعلى أيامها . . رضوان الله عليها . .

وما هى إلا أيام وتحين ساعة عمه أبى طالب — الراعى والكفيل — وقد مرض وعجز عن القيام . . وجاءه كبار رجال قريش . . يعودونه ويطلبون منه أن يضع حدا لنشاط ابن أخيه (النبى المرسل) صلى الله عليه وسلم وعدائه لأوثانهم . . وأن يوصيه قبل أن يتركهم . . حتى لا يعود إلى ما كان عليه مما يرونه منافسا، ومحاولة لأخذ السلطة والحكم منهم . .

وبمحضر منهم أرسل أبو طالب يستدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول له : (هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك) . .

فيتجه إليهم صلى الله عليه وسلم : (نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم) . .

بهذه العبارة الجامعة أفصح صلى الله عليه وسلم عن كل ما يطلبه منهم ويرجوه منهم . . ولكن عنتهم لا يريد أن يتوقف . . فيتكلم (أبو جهل) قائلا : نعم وأبيك وعشر كلمات . .

ويقول لهم صلى الله عليه وسلم : (تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه) . .

دعوة الإيمان ليس غير . . وهم فى صمم عنها . . وبإجماع قلوبهم المنكرة، راحوا يصفقون ويقولون : (أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحداً إن أمرك لعجب) . . ويلتفتون إلى بعضهم البعض ، وتنطق نواياهم بألسنة السوء : (إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه) . .

ويأسى أبو طالب ، كما يأسى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . . على هذا الموقف البالغ الحرج . . ويزيد أساه صلى الله عليه وسلم أن راح يكرر دعوته لعمه أن يقول بشهادة الإسلام قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . . ولايجد منه صدى إلا الاستمرار على حاله القديم بكبريائه فى قومه . .

ويموت أبو طالب . . ويزداد حزن ابن أخيه عليه لفراقه ولكونه لم يدخل فى ظلال دينه القويم ليكون له خير شفيع فى آخرته . .

ولفقد القطبين : خديجة . . وأبى طالب . . سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك العام بعام الحزن . . لشدة كربه على غيابهما عنه . . ثم لما قد ناله عليه الصلاة والسلام من شدة أذى قريش له ، حتى قال : (ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب) . .

عنف المأساة

بعشوائية وحمق كانت تفكر قريش . . والمؤلم فى تصرفاتهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذات . . الاستهتار والاستهزاء به شخصيا . . وقد أوعزوا إلى سفلتهم بهذه المنكرات . . وتعددت الحالات التى كانوا يأتون فيها بنفايات بطون ما يذبح من الغنم والإبل . . ويلقونه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو قائم يصلى — حتى اتخذ له ما يستتر به عنهم إذا جاء يصلى . .

وقد روى ابن مسعود حادثة من ذلك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى عند الكعبة ، فحرض (أبو جهل) رجلا بأن قام وألقى بين كتفى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ساجد : سلا جزور ، وراح يتضاحك مع أصحابه ، حتى ذهب من أخبر ابنته فاطمة التى سارعت لتطرح عن أبيها السوء ، وتلتفت لتشتم أولئك السفهاء . . وما كاد ينتهى صلى الله عليه وسلم من صلاته ، حتى يعلو صوته بالدعاء : (اللهم عليك بقريش . . اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعقبة

ابن أبى ربيعة ، وشيبة بن أبى ربيعة والوليد بن عقبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة ابن أبى معيــط) . .

وقتل هؤلاء — بعد لأى — فى موقعة بدر الشهيرة ، وسحبوا إلى القليب مع من قتل من المشركين . . إلى أسوأ نهاية . .

هكذا ظل الوضع البيىء متأزماً . . ومكة تغلى بأحقاد قريش . . حتى تمر أعوام ثلاثة ، ليأذن الله للمسلمين بالهجرة إلى دار الأمان والنصرة . . والرسول صلى الله عليه وسلم يقودهم من نصر إلى نصر . .

رحلة إلى بنى ثقيف

فى أوج الصراع المحتدم . . وبعد أن استقر نفسياً رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مما عاناه من موت زوجه وعمه . . أراد أن يجرب خطوة جديدة . . فقصد إلى الطائف يرافقه مولاه زيد بن حارثة . . ليعرض دعوته على بنى ثقيف . . علهم يؤمنون بالحق ويكونون عوناً له على سفهاء قومه من قريش . .

ذلك أن له صلى الله عليه وسلم خؤولة فى بنى ثقيف . . فعاتكة السلمية — أم هاشم بن عبد مناف — من بنى سليم بن منصور . . وهؤلاء حلفاء أوفياء لبنى ثقيف . . غير أن الظن خاب فيهم . . فما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقى برؤسائهم : (عبد ياليل ومسعود وحبيب) أولاد عمرو بن عمير الثقفى .. يعرض عليهم الوقوف إلى جانبه فى محنته مع قريش . . حتى استكبروا وبغوا . . واستقبلوه بالعداء . . وسلطوا عليه غلمانا لهم يقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه . . وكان يدرأها عنهم زيد بن حارثة حتى شج رأسه . . وبكى لما قد أصاب سيده العظيم الذى يهون عليه الأمر ويقول له صلى الله عليه وسلم : (لا تبك فإن الله أمــرنى بالصبر على المكاره)

وينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وزيد إلى ظل شجرة كرم في جوار حائط بستان . . ويرتفع ابتهال الرسول إلى ربه يستعطفه : [1]

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أرجى لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) . .

وكان الحائط لبستان لابني ربيعة : عتبة وشيبة . . اللذان شهدا الرسول صلى الله عليه وسلم ومرافقه . . فما لبثا أن أرسلا لهما مع مولاهما (عداس) — وهو نصراني — شيئا من العنب . . وظهر البشر على وجهيهما . . ويمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ليأكل ويقول : (بسم الله الرحمن الرحيم) . مما جعل عداسا كأنما يقول لنفسه بأن هذا ليس من كلام أهل هذه البلاد . . فيسأله صلى الله عليه وسلم : من أي البلاد أنت وما دينك ؟ فيرد عليه : نصراني من نينوى (بالعراق) . . فيقول له صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . . فيسأل عداس : وما علمك بيونس ؟ فيقرأ صلى الله عليه وسلم قصة يونس كما وردت في القرآن الكريم . . وتهتز نفس (عداس) لعظمة ما سمع وتهفو إليه ، وقد غمر قلبه الهدى . . فيدنو يقبل يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وينال حظ الحياة السعيدة التي وعدها الله لعباده المؤمنين . .

هذا ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وزيد في الطائف عشرة أيام . . وإنه لخارج منها في طريقه إلى مكة . . جاءه جبريل مواسياً ليقول له : (إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه بك) . . ولكن رسول الله صلى الله

(١) عرف هذا الدعاء بدعاء الطائف .

عليه وسلم يدعو الله قائلا : (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) . . فيرد جبريل قائلا : (صدق من سماك الرءوف الرحيم) . .

إنه نبي الهدى والرحمة . . عليه أفضل الصلاة والسلام . .

فى جوار مطعم بن عدي

فى طريقه صلى الله عليه وسلم إلى مكة .. نزل وزيد بوادى نخلة .. حيث أمضيا الليل . . ولما كان عليه الصلاة والسلام يصلى فى جوف الليل ويتلو القرآن . . كان نفر من الجن يستمعون إليه وتعجبهم الآيات البينات . . ثم ينصرفون ، لينذروا قومهم كما ورد فى خبرهم من سورة الأحقاف ، قال الله تعالى: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) . .

هذه صورة من الصور التى يتحدث عنها القرآن الكريم . ويدركها رسول الله صلى الله عليه وسلم إحاطة بما يجرى حوله من أحداث يريد الله تعالى أن يطلعه عليها ويطمئنه بها . .

وسار صلى الله عليه وسلم ومرافقه إلى مكة . . وقصدا إلى بنى خزاعة . . ولجأ صلى الله عليه وسلم إلى مطعم بن عدى[1] طالبا جواره ليكون فى حمايتــه من قريش ومكرها به . . فيرحب (مطعم) بدخول رسول الله صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة فى جواره وفى حمايته . . وينادى (مطعم) على بنيه وقبيلته يتسلحون لهذا الأمر . . ويتجهون إلى البيت الحرام . . ورافق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وزيدا حتى وصلوا إلى الكعبة – وهو ينادى منذرا : (يا معشر قريش إنى قد أجرت محمدا فلا يهجه منكم أحد) . .

---

(١) عدى بن نوفل بن عبد مناف .

وأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه بالبيت العتيق . . ويذهب إلى بيته فى حراسة مجيره (مطعم) وبنيه المسلحين . .

كان ذلك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الواحد والخمسين من عمره . . وكانت صلاته التى كان يؤديها كصلاة أبيه إبراهيم عليه السلام . . ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء . .

وفى هذه الفترة كذلك . . بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسودة بنت زمعة القرشية العامرية . . أول زوجة بعد السيدة خديجة — رضى الله عنهما —

وأبو سودة : زمعة بن قيس . . وأمها : الشموس بنت قيس النجارية . .

عود إلى القبـــائل

ما فتئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعـــد عودته من الطائف . . أن يلاحق القبائل بالدعوة إلى الإسلام . . قبيلة قبيلة . . وفى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز . . وفى منى وعـــرفات حيث تسير مواكب الحجيج . . وكان يصادف صلى الله عليه وسلم الإعراض والنكران . . خاصة وأن فى معظم الحالات كان عمه أبولهب يتعقب الناس ، ليكذبوا وينصرفوا عن سماع ما قد يصلح أمور دينهم ودنياهم . .

إلا أن بنى شيبان استطاع صلى الله عليه وسلم أن يتفاهم مع كبارهم . . حين أنصتوا له واستزادوا من تلاوة القرآن . . وتجاوبوا . . معه حتى دعا لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : (اللهم انصرهم) . . وكان برفقته كل من أبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب الذى قال : (أتينا قوماً يحسنون الجواب) . . فيرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لأهل الجاهلية أحلاما ومقدرة على الكلام يتحاجزون بها ويدفع بها بعضهم عن بعض) . .

وكان الذى ينوب عن بنى شيبان فى الحديث والمراجعة : النعمان بن شريك . وقد أسلم ، فكان كبار الصحابة مع العديد من قبيلته . .

الظلمات تتوارى

قال الله تبارك وتعالى :

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) .

نزلت هذه الآية الكريمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجالس بعضا من صحابته المستضعفين : كمولى صفوان بن أمية وعمار بن ياسر وغيرهما . . بعد ما هزأت قريش منهم وادعت بأنه لو كان ما جاء به عليه الصلاة والسلام خيراً لما سبقهم أولئك للإيمان . . وتجهل قريش أن الله لاينظر إلى صورهم ، بل إلى قلوبهم التى امتلأت بالنور الإلهى واستجابت إلى نداء الحق . .

ويجيء وفد جديد من قبيلة دوس يتمثل فى الطفيل بن عمرو الدوسى مـــن أشراف دوس وشعرائهم — وقد أسلم — حالما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليه آيات من القرآن العظيم . ، بهرته وملكت إعجابه . . فقال له صلى الله عليه وسلم بأن يتولى دعوة قومه إلى الإسلام . . ودعا لهم : (اللهم اهد دوساً) . . وبعودة (الطفيل) إلى قومه وفضل دعوته لهم ، آمن الكثيرون . . وهكذا تتبدد الظلمات أمام خطوات الضوء الإسلامى المتدفق بالحياة . .

الرسول صلى الله عليه وسلم وأبناؤه

يا خير من وطئ البساط قاطبــــة

وأنت أفضــل من مشى عــلى قـــــدم

أنت الذى يرتجى الــورى شفاعتـــه

والخلق يأمل من عرب ومـــن عجـم

* من قصيدة للمؤلف فى ديوانه : (أضواء ونغم)

(* هذا فصل لا يلتزم بالتسلسل الزمنى فى كتابنا . . وقد اخترنا موقعه هنا قبل الخروج من موطـــن ولادته ونشــأته صلى الله عليه وسلم *)

صفته .. صلى الله عليه وسلم

الكمال الإنسانى . . الصورة الجمالية الصافية . . الكبرياء فى غير صلف . . سمات الجاذبية الوهاجة . . جلال الطلعة البهيجة . . نظرات الروح المتألقة الحيية . . المحيا المشرق فى بسمة رفافة تتجدد . .

هذه بعض من مظهر طلعة الرسول العظيم . . صلوات الله وسلامه عليه . . وما يحس به من يستشرف مرآه الوادع الجميل . . ويا الله . . ما أبهى وما أروع . ما أحلى وما أبدع . . كم هو رائع أن يتملى المرء هيولى النبوة الواضحة فى رجل اختاره الواحد الموجد وهذبه وأودعه أبهى الصفات . .

وسبحان من أكمل خلقه فى أحسن تقويم . . وزاد سبحانه وأعظم خلقه وهو بشر . . فقال تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) . .

ولئن قال عنه – فيمن وصف وأثنى – الشيخ محمد البوصيرى (صاحب قصيدة البردة المشهورة) :

ومبلغ القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

فلقد سبق أن وضع الإمام على بن أبى طالب ببلاغته الفذة . . صورة وصفية متكاملة فى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حينما قال :

(لم يكن بالطويل الممغط (الممتد) ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة فى القوام ، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط ، كان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم : (كبير الجسم) ولا المكلثم (المستدير الوجه) ، وكان أبيض مشربا ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش (عظام المفاصل) والكتد (ما بين الكتفين) دقيق المسربة (شعر الصدر) ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس

صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم . .

إنها من صفاته الوجدانية التى نشأ وسار عليها وعرف بين العالمين بها صلى الله عليـــه وسلم . .

وإن القلم ليعجز أن يحيط بكل صيغ الكمال التى تحلى بها . . أو ليس هو صبغة رب الناس ليحمل إليهم الدين واليقين . . والحق والعقيدة . . ؟

لهذا أجابت زوجه السيدة عائشة عندما سئلت عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (كان خلقه القرآن) . .

روى الصحابى أنس بن مالك قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول اللهصلى الله عليه وسلم) . .

تلك من حقائق الجمال الفطرى ككل . . وإن البيان ليقصر عن استكمال الصورة الطبيعية لكمال الحسن النبوى . . وقد قال حسان بن ثابت مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى قصائده الجياد :

وأحسن منك لم تر قط عينى   وأجمـــل منك لم تلـــد النســـاء
خلقت مبرأ من كل عيـــب   كأنك قـــد خلقت كمـــا تشاء

ثم قال الشيخ عبد الرحيم البرعى — صاحب القصائد النبوية الشهيرة :—

هدية الله فى الدنيـــا وخيرتـــه   من خلقه ، فهو هادى كل حيران
والله ما حملت أنثى ولا وضعت   كمثل أحمد من قاصٍ ومن دانى

ذلك لأنه المعصوم . . ولأنه جاء بالمعجزة الباقية الخالدة . . فهو صلى الله عليه وسلم مدرسة القرآن . . وحسبه ليكون الإنسان الكامل . . وخاتم الأنبياء والرسل . ونبي الهـــدى والرحمـــة . .

وإذا ذهبنا نستزيد مما سجل في وصفه صلى الله عليه وسلم . . وحفظه لنا التاريخ . . فإننا نستأنس بذلك الوصف الطويل الذى جرى على لسان الصحابـــي هند بن أبي هالة (ابن السيدة خديجة) عندما سأله الحفيد الكريم : الحسين بن على – رضى الله عنهما – عن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فاستوفـــى كل الجوانب لحياته – عليه الصلاة والسلام – ومما قاله فيه ابن أبي هالة :

(كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن ، إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بميسور مـــن القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء ، وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، كان دائم البشر ، سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عتاب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء والإكثـــار وما لايعنيه . . وترك الناس من ثلاث : لايذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورته . . ولا يتكلم إلا فيما يرجى ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهـــم الطير ، وإذا سكت سكتوا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ويقول : (إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه) . . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ .

كان رسول الله متواصل الأحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجـة ، طويل السكوت . . يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه لا بأطراف فمه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئا ولم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . . إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح . . وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام . . يمشي هونا ، ذريع المشية (أى واسع الخطو) . . إذا مشى كأنما ينحط عـن صبب ، وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام . .

كان رسول الله يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ، يتفقد أصحابه ويسأل عما فى الناس ويحسن الحسن ويصوبه . . ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره . . الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة وموازرة . . أ.هـ .

هذا هو الرسول المختار — عليه أفضل الصلاة والتسليم — بكمال خلقه وجمال خلقه . . وقد كان أبو هريرة يقول :

(ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أسرع فى مشيته من رسول الله لكأنما الأرض تطوى له ، كنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث) .

وبعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى — كان أنس

ابن مالك يقول : (لما كان اليوم الذى دخل النبى فيه المدينة أضاء منها كل شئ ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شئ ، وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنـــا) . .

بلاغتـــه .. صلى الله عليه وسلم

كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم دائما بالإيجاز مع شمول فـــى المعنى . . دون أن يتكلف لفظا أو عبارة ، ويرتفع أسلوبه إلى مستوى الفصاحة التى لا تجارى . . فإذا هو متميز عن كلام الغير ، أداء ولفظا ومعنى . . هذا بالإضافة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لا يورد فى كلامه اللفظ الغريب ، أو العبارة التى لاتفهم

وحسبه صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) . . وهو الأمى بفحر ، وقد علمه ربه سبحانه وأحسن تعليمه . . (علمه شديد القوى) . . جل جلاله . ولقد قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم : (أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر) . .

والدليل واضح فى أحاديثه الشريفة التى نقلها الرواة عنه ، من صحابته ، وبعض زوجاته ، وكلها من بليغ القول وبديع اللفظ . .

وجدير بنا هنا أن ننقل فقرة من كتاب (البلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعى ، وقد تحدث عن (نسق البلاغة النبوية) كأروع ما تحدث كاتب منصف فى هذا المجال . . يقول الرافعى رحمه الله :

(إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبى صلى الله عليه وسلم على جهة الصناعتين اللغوية أو البيانية ، رأيته فى الأولى مسدد اللفـــظ محكم الوضع جزل التركيب ، متناسب الأجزاء فى تأليف الكلمات ، فخم الجملة واضح الصلـــه بين اللفظ ومعناه واللفظوضريبه فى التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطربا ، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيا لسره فى الاستعمال ، ورأيته فى الثانية حسن المعرض ، بين الجملة ، واضح

التفصيل ، ظاهر الحدود، جيد الرصف ، متمكن المعنى ، واسع الحلية في تصريفه ، بديع الإشارة ، غريب اللمحة ، ناصع البيان ، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها ، ولا ترى اضطرابا ولا خطلاً ، ولا استعانة من عجز ، ولا توسعا من ضيق ، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه) . .

ولقد كتب غير الرافعي قدامى ومحدثون في أسرار البلاغة النبوية . . على صاحبها أفضل الصلاة والسلام القائل : (أوتيت جوامع الكلم) . .

وهي معين لا ينضب من جمال التركيب وروعة الأداء وسمو التعبير . . إنه الأسلوب النبوى الذى تنزه عن أى خطأ . .

أسماؤه . . صلى الله عليه وسلم

ذكر ابن قيم الجوزية في كتابه الأشهر (زاد المعاد) في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم – بأن منها : الفاتح ، الشاهد ، المبشر ، البشير ، النذير ، السراج المنير ، نبي الملحمة ، سيد ولد آدم ، صاحب لواء الحمد ، صاحب المقام المحمود ، وسواه . .

وجميع الأسماء التي ترد لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . إن هي إلا نعوت مشتقة من صفاته كأكمل خلق الله . . فلقد روى بعض المؤرخين وعدوا له أكثر من خمسة وعشرين اسما . .

ولعل أوفى ما يمكن أن نعتمد عليه كثقة يطمئن إليها . . ما قد جاء في صحيح مسلم عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذى يمحى به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبي ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبي . .

وفي رواية أخرى إضافة إلى تلك الأسماء – هذان الاسمان : (نبي الرحمة ، نبي التوبة) . .

ويكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا القاسم . . باسم أول أبنائـه (القاسم) . . كما أنه صلى الله عليه وسلم كنى ابنه عبد الله : الطاهر والطيب . . وكنى ابنته فاطمة : الزهراء . . وكان يحب أن يدعوها (أم أبيها) رضوان الله عليهـا[1] . .

رسول الهدى يا رسول السلام عليك الصلاة عليك سلامـى[2]

ومن تكريم الله تعالى . . له صلى الله عليه وسلم أن اشتق لـه أسماء من أسمائه . . فقال عنه : رءوفا رحيما . . رحمة للعالمين) . . و (محمـد) هـو المحمود – وهذا معنى اسم الله عزت أسماؤه : (الحميـد) . .

وإلى هذا أشار حسان بن ثابت في قوله :

وشـق لـه من اسمه ليجلـه فذو العرش محمود وهذا محمد

كما قال عباس بن مرداس :

إن الإلـه بنى عليـك محبـة من خلقه ، ومحمدا سماكـا

ووردت أسماء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتب السماوية فمثلا : فى الزبور جاء اسمه (محمود) . . وعلى لسان عيسى ابن مريم : أحمد . . كما ورد فى الإنجيل : البارقليط . . ومعناه : (روح الحق) الذى يفرق بين الحق والباطل . . وفى التوراة اسمه : أحيد . . وفيها كذلك وردت عدة أسماء كما نقرأ فى أول أسفارها : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا تدفع بالسيئة السيئة) . .

ومن الأسماء التى وردت كذلك فى الكتب السماوية : المختار . . المقدس

---

(١) لنا مؤلف حديث لا يزال قيد التأليف عنها باسم : (سيدة النساء أم أبيها) .

(٢) خاتمة قصيدة لنا بعنوان (نبي الهدى) في ديواننا (عبير الشرق) .

. . مقيم السنة . . الخاتم – بكسر التاء – الخاتم – بفتحها – ويعنى أنه صلى الله عليه وسلم أحسن الأنبياء خلقا وخلقا . .

وهو صلى الله عليه وسلم . . سيد المرسلين . . الشافع المشفع والشفيع . . إمام المتقين . . الصادق والمصدوق . . الطاهر والمصلح . . العربى القرشى . . المكى المدنى . . التهامى الأبطحى . . المجتبى والمتقى . . صاحب الحوض المورود . . والمقام المحمود . . واللواء المعقود . . حبيب رب العالمين . .

وفى القرآن الكريم تتعدد صفات رسول الله وأسماؤه عليه الصلاة والسلام ومنها :

المدثر . . المزمل . . خاتم النبيين . . السراج المنير . . المبشر . . النذير . . المنذر . . النور . . الشاهد . . النبى الأمى . . الشهيد . . الرسول الكريم . . الرسول الأمين . . الرسول المبين . . قدم صدق . . العروة الوثقى . . الهادى إلى صراط مستقيم . . معلم الكتاب والحكمة . . عبد الله ورسوله . . صلوات الله وسلامه عليه

سمى محمد إن الحمـــد مجتمع فيه وفى الاسم للأخلاق تــأويل

قاله عبد الله بن جعفر . . صادقاً . . كما يصدق كل مؤمن يستلهم أعظم إنسان فى البشرية . . وقائد المؤمنين إلى رب العالمين . .

وقال عبد الله بن رواحة :

نفسى الفداء لمن أخلاقه شهرت بأنه خـــير مبعوث إلى البشـــر
عمت فضائله كل الأنام كمـــا عم البرية ضوء الشمس والقمر
لو لم يكن فيـــه آيات مبينـــة لكان منظـــره يأتيـــك بالخـــبر

وقد عرفنا أنه صلى الله عليه وسلم : الأمين . . المأمون . . سيد ولد آدم . . دعوة إبراهيم الخليل . . الولى . . سيد الناس يوم القيامة . . وأول من تنشق عنـــه الأرض . . وقد قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام : (إنما بعثت قاسماً فأنا أبو القاسم أقسم بينكم) . . قسمة عدل بين الناس . . من صحابته ومن غيرهم . . وصدق الله العظيم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . .

أبناؤه .. وبناته (صلى الله عليه وسلم)

• ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجه السيدة الكاملة (خديجة) : ولدان وأربع بنات . .

كان أولهم : (القاسم) . . ولد وأبوه العظيم فى أوائل عامه السادس والعشرين . . وكان آخرهم : (عبد الله) . . فقد ولد بعد البعثة بأحد عشر عاما . . ولذلك كنى بالطيب والطاهر . . تبركا بالعهد الجديد . .

وكما توفى (القاسم) طفلا . . كذلك توفى عبد الله ولم يستكمل بعد عامين . . رحل مخلفا الحزن الأليم لوالديه الكريمين بعد الفرحة الغامرة التى كانت تتطلع إليه كخلف كريم . . ولكنها مشيئة الله الحكيم العليم . .

أم البنين

تلكم هى الطاهرة (خديجة) – كما اشتهرت – رضى الله عنها . . وقد أكرمها الله بأن رزق رسوله المختار منها : أبناءه الستة . . وكانت هى الوحيدة بين أزواجه التى جاءت بالأبناء . . عدا مريم القبطية التى أهداها إليه (المقوقس) حاكم مصر . . عندما أرسل صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام بعد الهجرة النبوية . . فقد ولدت له (مريم) ابنه إبراهيم الذى لم يلبث هو أيضا أن توفى رضيعا . . لحكمة أرادها الله تعالى بنبيه صلواته وسلامه عليه . .

ولنعد إلى السيدة خديجة . . رفيقة شبابه صلى الله عليه وسلم . . وأول من عرف من الزوجات . . وقد كانت الولاء والسند له طيلة حياتها معه . . بمالها وعطفها ورعايتها . . وكان هو صلى الله عليه وسلم يرى فيها الأمل المشرق . . كما وجد فيها كل معانى الإنسانة المتقية البرة المتكاملة . . حتى أن جبريل عليه السلام جاءه بالسلام عليها . . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (يارسول الله هذه خديجة قد أتت معنا إناء فيه إدام وطعام أو شراب فاقرأها عليها السلام منى ومن ربى وبشرها ببيت فى الجنة

من قصب اللؤلؤ المجوف لا صخب فيه ولا نصب) . . وردت خديجة : (لله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام) . .

واللؤلؤ المجوف من مميزات قصور فى الجنة . .

وروت السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : إنها كانت وكانت وكان لى منها الولد . .

ويكفيها هذا فخرا . . فقد كان صلى الله عليه وسلم يتعهد بعدها كل من يلوذ بها . . صلة قرابة أو نسب أو صحبة . . عليها الرضوان والرحمة . .

زينب

(زينب) . . أكبر بنات النبي صلى الله عليه وسلم . . وقبل البعثة ببضعة أشهر . . زوجها – بطلب من أمها – ابن خالتها هالة : أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس . . ولما نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة . . وآمن أهله وبناته . . بقى أبو العاص على حاله لم يسلم . . وأبى أن يطلق زينب . . حتى عندما سعى إليه رجال من قريش يقولون له : فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش . .

غير أنه كان بينه وبين زينب ود متبادل . . فى الوقت الذى كان يمتدح فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق العاص الذى يعرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم مكانته ويقدره . . وإن كان الإسلام قد فرق بين زينب والعاص . . فما كان لأبيها المرسل أن يحل أو يحرم أمرا كذلك وهو بمكة يناهضه فيها كل شئ . . حتى هاجر إلى المدينة . . فأرسل يستدعى ابنته زينب . . ولكن العاص أبى أن تفارقه زينب التى حرصت أن لا يقترب منها . . وبقيت معه إلى أن جاء هو ضمن

من أغرتهم قريش على الخروج إلى بدر فى السنة الثانية للهجرة . . فوقع (العاص) أسيرا بين الأسرى الذين جئ بهم إلى المدينة ، حتى افتدى أهالى مكة من قريش أسراهم . . وأرسلت زينب إلى أبيها صلى الله عليه وسلم تفتدى العاص بقلادة[1] كانت لأمها ، وقد أهدتها لها فى زواجها من ابن خالتها . . وعندما أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقلادة أذكرته الراحلة العظيمة خديجة . . فرق لطلب ابنته وقال لصحابته : (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا) . . فأجابوا : (نعم يا رسول الله) . .

واشترط صلى الله عليه وسلم على العاص بن الربيع مقابل إخلاء سبيله أن يدع زينب تجئ إلى المدينة عندما يبعث إليها من يأتى بها من مكة . . فأرسل إليها زيد بن حارثة وصحابياً من الأنصار لإحضارها . . ولما وصلا مكة طلب منهما العاص بن الربيع — محافظة على زينب — أن يمكثا بمكان يسمى (يأجج) يبعد عن مكة بنحو ثمانية أميال ، حتى يأتى بها إليهما . .

وقد تعرضت لحادث مؤسف بعد أن تجهزت وركبت بعيرها على هودج . . وكان قد خرج بها (كنانة) أخو زوجها . . فى النهار تحديا لقريش ، وهو يحمل سلاحه ليوصلها إلى (يأجج) . . وأثار هذا المظهر رجالاً من قريش . . فاعترض طريقهما : هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس الفهرى . . وخشيت زينب منهما ، وروعها تصرفهما الأحمق . . وقد نخس أحدهما البعير مما تسبب فى هياجه ووقوعها هى عن هودجها أرضا . . وكانت حاملا فأسقطت حملها ، واعتراها نزيف ظل يتكرر عليها حتى توفاها الله بالمدينة بعد إسلام زوجها العاص فى مناسبة سنعرفها بعد لأى . .

ووقف دونها (كنانة) . . إذ أشرع سهامه وحلف إن اقترب أحد منها أو منه ليرشقنه بسهم . . فانصرف الرجلان عنه ومن كان قد تجمع من الناس . . حتى

(١) الذي حمل القلادة الى المدينة هو : عمرو بن الربيع — أخو العاص .

جاءه جمع من قريش معهم أبو سفيان يقول له : كف عنا نبلك حتّى نكلمك ثم اقترب منه وقال له : (إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت[1] وإن ذلك منا ضعف ووهن ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بها ، حتّى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أننا قد رددناها فسلها سرا وألحقها بأبيها) . .

وعاد كنانة بزينب إلى بيت زوجها العاص لتظل أياما عدة . . ثم يخرج بها ليلاً إلى حيث أسلمها إلى زيد بن حارثة ومرافقه . . فصحباها إلى المدينة . . وعن ذلك قال كنانة مفاخرا :

عجبت لهبار وأوباش قومــه ... يريدون إخفارى بينت محمــد
ولست أبالى ما حييت عديدهم ... وما استجمعت قبضاً يدى بالمهند

وإذ وصلت زينب المدينة إلى بيت أبيها (صلى الله عليه وسلم) . . وعرف بخبر عدوان هبار والفهرى . . أحل دمهما جزاء فعلتهما وقال : (فإن ظفرتم بهمــا فاقتلوهمــا) . .

وظلت زينب الوفية بالمدينة . . كما ظل العاص بن الربيع على حاله فى مكة حتّى قبل الفتح عندما خرج فى تجارة له إلى الشام ومعه أموال لبعض من رجالات قريش . . وأثناء عودته من الشام ، تصادف أن التقى بسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهرب منها ، واستولت على تجارته بكاملها ، وساقتها إلى المدينة . . وفى جنح الظلام كان (العاص) قد تسلل وراح يركض إلى أن بلغ المدينة فى الخفاء . . ودخل على السيدة زينب (زوجه) يستجير بها ويطالب بماله ، فأجارته . . وفوجئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤم الناس : يصلى بهم صلاة الفجر — فوجئ بصوت زينب يقول : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيــع) . .

(١) سيأتي الخبر عن غزوة بدر في مكانها وانهزام فلول قريش الساحق فيها ٠

وبعد انتهاء الصلاة يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الناس قد سمعوا ما سمع هو ، فيقول : (أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم) . .

وقام صلى الله عليه وسلم . . قاصداً ابنته زينب ليقول لها عن زوجها : أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له . .

وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى أفراد السرية الذين جاءوا بأموال العاص : (إن هذا الرجل منا حيث علمتم وقد أصبتم له مالاً .. فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فئ الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به) . .

واستجاب الصحب إلى رغبته صلى الله عليه وسلم حبا وكرامة . . وسرعان ما ردوا على (العاص) كل أمواله . .

وانطلق هو بها إلى مكة وفى نفسه أمر . . وما كاذ يؤدى للناس حقوقهم فى تجارته ، حتى قام فيهم يقول : يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما . .

قال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلا م عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت) . .

وهكذا عاد إلى المدينة مؤمنا مرفوع الهامة طاهر الضمير . وقد سر به الرسول صلى الله عليه وسلم. ورد عليه زوجه بنكاح جديد ، لينضم الشمل بأقدس رباط .

وكانت زينب فى أوائل السنة الثانية لزواجها قد ولدت من العاص بنتاً هى (أمامة) التى تزوجها فيما بعد الإمـــام على بن أبى طالب[1] بعد وفاة زوجه

---

(١) قبل وفاة الامام علي بن أبي طالب ـ ذكر لزوجه (أمامه) بانه لا يأمن أن يخطبها معاوية ، فان كانت تريد عشيراً ، فانه يرضى لهـا المغـيرة بن نـوفل ابن الحارث بن عبد المطلب ٠٠ وحـدث عند انتهاء عدتها أن أرسل اليها معاوية ابن أبي سـفيان يخطبها بمهر بلغ مائة ألف دينار ، فما كان منها الا أن أرسلت الى المغيرة : (ان كان بك الينـا حاجـة فاقبل) ٠٠ فزوجها اليه الحسن بن علي وقد ولدت (أمامة) للمغيرة (يحيى) فكان يكني به ٠٠ رضوان الله عليهم ٠

(فاطمة الزهراء) بوصية منها . . كما أخلفت زينب كذلك ابنا — هو (على) الذى توفى وقد أصبح فى جاوز الحلم . . رضى الله عنهم وأحسن إليهم . .

أما زينب ، فقد انتقلت إلى جوار ربها مع أوائل العام الثامن للهجرة مروعة الأب والزوج والبنت وقد غدت فتاة ناضجة . .

وعاش العاص حتى زوج ابنته (أمامة) حبيبة جدها (عليه الصلاة والسلام) من خير الرجال : على بن أبى طالب — رضى الله عنهم . .

ومات (العاص بن الربيع) فى أواخر العام الثانى عشر للهجرة . . بأكرم جوار . . رحمة الله عليه . .

والجدير بالذكر أن نسب العاص يلتقى بنسب السيدة زينب فى عبد مناف ابن قصى . . وكانا فى حياتهما الزوجية مثالا للتوافق والمحبة والاحترام . .

رقية وأم كلثوم

ولدت رقية ، وعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لم يتجاوز الثامنة والعشرين . . ولدت بعدها (أم كلثوم) بعام وبضعة أشهر . .

وإنهما وقد غدتا فتاتين صغيرتين . . يتقدم لخطبتهما (عبد العزى بن عبد المطلب) — أبو لهب — لابنيه : عتبة وعتيبة . . وهما ابنا عم أبيهما عليه الصلاة والسلام . . ولئن كانت السيدة (خديجة) لم يرضها أن تعاشر ابنتاها الصغيرتان . . أم الخطيبين . . لكونها تعرف شراسة خلقها ومدى سيطرتها على تصرفات زوجها . . وقد صح الظن بها بعد البعثة وظهر دورها الشيطانى فى شدة الإيذاء هى وأبو لهب . . لرسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وما كانت السيدة (خديجة) لتفصح عن سريرتها خشية أن يساء تفسير عدم رضاها بأنها لا تريد قربى بنى عبد المطلب لزوجها صلوات الله وسلامه عليه . .

وتم العقد لأم كلثوم ورقية . . قبل البعثة ببضعة أشهر . . للخطيبين :

عتيبة وعتبة . . وكان يأمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرى التأييد من عمه عبد العزى (أبو لهب) . . الذى كنى بأبى لهب لإشراق وجهه . . وما كان صلى الله عليه وسلم ليحسب أن عمه هذا سيقف منه — حين يبعث رسولا — موقف التكذيب والعداء . .وهو الذى أعتق جاريته (ثويبة) حين جاءته ببشرى ميلاده عليه الصلاة والسلام . .

وبعد ما جهـــر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة الإسلام . . وجاءه التكليف الإلهى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) . . راح يدعو أهله وعشيرته من قريش . . فإذا بأكثرهم يتنكر له . .وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) يواجـــه مشركى قريش — القريب والبعيد — بالعداء لآلهتهم . . وما يعبدون من دون الله . . ولكنهم يستكبرون ويحقدون . .

وسعى بعضهم لطلاق بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد إشغالـــه بهن كما زعموا . . وليزوجوا أزواجهم بأية امرأة شاءوا من قريش . .

وقد عرفنا موقف العاص بن الربيع . . والذى رفض أن يستبدل بزوجه أية امرأة . . غير أن (عتبة وعتيبة) . . قد أثر عليهما طلب والديهما اللذين أسفرا بالعداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهانة برسالته . . وذهبت (زوجة أبى لهب) : أم جميل[1] . . تجمع الشوك وتلقيه فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلـــم . .

وكان أبو لهب فى إيذائه له صلى الله عليه وسلم يقول له : تباً لك . . فأنزل الله تعالى سورة : (تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . — سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد) . .

---

(١) عن حمالة الحطب هذه — قال شاعر المدينة الشهير عبد الله بن محمد (الأحوص) يومها :

مـــا ذات حبل يـــراه الناس كلهـــم   وسط الجحيم ولا يخفـــى عـــلى أحـــد

كل الحبـــال ، حبال الناس مـــن شعر   وحبلها وسط أهل النـــار من مســـد

إنه حقا لإنذار عظيم . . ولكن القلوب التى طبع عليها الكفر طابعه القاتم . . أنى لها أن تعى . . أو تبصر إلا طريق الوسواس الخناس . .

وكان طلاق عتبة بن أبى لهب لرقية مشروطاً على من أرغمه بأن يزوجوه بإحدى اثنتين : ابنة سعيد بن العاص أو ابنة ابنه أبان . . فزوجوه بابنة سعيد . . ففارق رقية وكان لم يدخل بها . . وهو قد أسلم فيما بعد هو وأخوه (معتب) . .

أما عتيبة فقد ظل مستمسكا بعقد أم كلثوم مما اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلى أن يدعو الله عليه بأن يسلط عليه كلبا من كلابه . . فهجم عليه أسد وهو نائم مع أصحاب له وافترسه . .

وابتهج الأب العظيم صلى الله عليه وسلم بخلاص ابنتيه من قيد المشركين . . وما هى إلا شهور . . حتى يتقدم عثمان بن عفان لخطبة (رقية) فيزوجها له صلى الله عليه وسلم كخير كفء .. ثم ترحل معه فى هجرته إلى الحبشة . . وهناك تلد له ابنهما (عبد الله) . . ثم يعودان به إلى المدينة ، وقد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالخروج إليها كمهاجر فتحت ذراعيها فى أعظم ترحيب . .

وتمرض (رقية) . . وتشتد عليها العلة ، بينما نداء الجهاد يجلجل فى جنبات المدينة للخروج إلى غزوة بدر فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة . . ويضطر زوجها عثمان إلى البقاء إلى جوارها يمرضها . . حتى إذا جاء بشير النصر للمسلمين فى موقعة بدر . . كانت رقية تودع الحياة وتلفظ أنفاسها الأخيرة بين يدى زوجها الملتاع وأمام ابنهما الوحيد . . وقد روع أبوها صلى الله عليه وسلم . . وهى تلحق بأخويها الطفلين إلى رحلة اللاعودة . .

ولم يلبث طفلها (عبد الله) أن لحق بها وقد بلغ نحو الخامسة من العمر . . إذ كان يلعب فى فناء منزل أبيه . . فقفز على محياه ديك نقره فى إحدى عينيه ، مما أدى إلى أن ورم وجهه كله وتسبب فى وفاته . .

وكان حزن عثمان كبيراً على فقد ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطاع صهره عنه . . فأدخل صلى الله عليه وسلم السرور عليه عندما زوجه بابنته الأخرى

أم كلثوم فى أول العام الثالث للهجرة . . وكان عمر بن الخطاب قد عرض ابنته (حفصة) على كل من : أبى بكر الصديق وعثمان بن عفان . . فلم يجبه أبو بكر بشئ . . وقال له عثمان بأنه لا يريد الزواج ذلك اليوم . . فقصد عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يشكو له ويخبره بذلك . . فرد عليه صلى الله عليه وسلم : سيتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة) . .

وهكذا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفصة ابنة عمر . . وتزوج عثمان بأم كلثوم . . التى عاشت تشهد نصر المسلمين إلى ما بعد الفتح . . ثم انتقلت إلى جوار ربها فى شهر شعبان من عام تسعة للهجرة . . رضوان الله عليهم . .

فاطمة الزهراء

ولدت فاطمة قبل البعثة بخمس سنوات . . أى فى منتصف العام الذى كانت فيه قريش تبنى الكعبة . . وما وعت إلا وأبوها صلى الله عليه وسلم قد كلف بدعوة التوحيد . . تتأثر بما ترى . . وفى نشأتها كانت تستقى حياتها فى بيت النبوة . . وتتعقب خطا أبيها عليه الصلاة والسلام . . وهو يسير بالناس إلى الوجود الأفضل حتى أن هيئتها العامـة كانت كثيرة الشبه بالأب الحانى صلى الله عليه وسلم . . ويزداد هو تعلقاً بها وقد فقد ولده الأخير (عبد الله) . . فهى أنسه وسلواه . . وهى حبه ومناه . . حتى إذا كبرت كانت تخرج معه بعض الوقت أو يدعوها إلى إصلاح شأنه إذا ما تعرض له مشركو قريش بالإيذاء . . فهى عند أبيها عليه الصلاة والسلام ذات مكانة عليا . . فقد دعاها (سيدة نساء العالمين) . .

وقد كانت دائما بادية النحول والحزن الخفى . . فلا غرابة أن تلقى كل العطف من صاحب القلب الكبير معلم الإنسانية وسيد العالمين صلى الله عليه وسلم .

وقد اختار لها زوجا هاشمياً . . استقى مثلها الحياة فى بيته النبوى . . وكان أول الفتيان إسلاما . . وتربى معها فى رعاية أبيها ومع توجيهاته الرشيدة . .

لقد تقدم لخطبة فاطمة كل من الصاحبين الكريمين : أبو بكر وعمر . فردهما صلى الله عليه وسلم ردا جميلا . . حتى إذا تقدم لخطبتها ابن عمه : على . . كانت فرحته كبيرة لهذه المصاهرة ليودع أحب الناس إلى أعز الناس . .

وقد روى عن (جميع بن عمير) أنه قال : دخلت مع أمى على عائشة فسمعتها من وراء حجاب وهى تسألها عن على ، فقالت : تسألينى عن رجل والله ما أعلم رجلا كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من على ، ولا فى الأرض امرأة كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة . .

فى رجب من العام الأول للهجرة تمت الخطوبة وعقد النكاح . . وقد سأل الرسول صلى الله عليه وسلم خاطب ابنته عما يمتلكه للزواج . . فلما أجابه : لا شئ . . سأل عن الدرع التى أعطاها له من فئ أحد الغزوات ، . . وإذ جاءه بها . . اشتراها صهره عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهما . . وأخذها صلى الله عليه وسلم . . وبدوره أعطاها إلى مؤذنه (بلال بن رباح) يشترى بجزء منها عطورا . . ويسلم الباقى ليد (أم سلمة) تشترى ما يلزم للعروس من جهاز . .

ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته يشهدهم على أنه زوج ابنته فاطمة إلى على بن أبى طالب[1] بمهر مقداره أربعمائة مثقال فضة . .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه عن الإمام على بن أبى طالب : (لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف ، وهو الذى صبر معه يوم فر غيره ، وهو الذى غسله وأدخله القبر) . .

فقد ازدهرت شخصية الإمام على . . فإذا هو من علماء الرجال الذين يشار إليهم بالبنان . . فكان فقيها وحكيما وعالما وشاعرا . .

أما يوم زواجه الأول . .فقد كان الاحتفال به فخيما وكبيرا . . فى أوائل

---

١) أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف – وهو أصغر أبنائها ، وقيل عنها بأنها أول هاشمية ولدت خليفة . . وقد عاشت بالمدينة بارة بزوج ابنها وأولادهما .

محرم من العام الثانى للهجرة . . وقد أولم حمزة بن عبد المطلب بجملين نحرهما . . حتى أكل كل من كان يومها بالمدينة . .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته العروس فاطمة . . مع (أم سلمة إلى بيت زوجها الهُمام . . وبعد صلاة العشاء قصد إليهما بالبيت الجديد . . وتلا آيات من القرآن على كأس من الماء وأسقاهما إياه . . ثم دعا لهما بهذه العبارات : (اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما) . .

وهكذا استجاب الله تعالى . . وكان نسلهما هو الباقى مدى الأزمان كسلالة طاهرة . . شرفها الله من ذرية خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم . . وسنعرف الخلف المبارك لابنته . . بعد أن نستقصى هذا الحدث :

فقد أراد الإمام على أن يتزوج على فاطمة ابنة أبى جهل (عمرو بن هشام) المعروف بعدائه للإسلام وللمسلمين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه .. لهذا كان غضبه قد ظهر على وجهه الكريم وهو يعلو المنبر فى مسجده يقول لصحابته : (إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها . .

وتطرق صلى الله عليه وسلم إلى ذكر العاص زوج ابنته زينب فقال : (حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ، ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا) . .

وقد ولدت السيدة فاطمة ولدين وبنتين . . الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب . . كما أسماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكان يرى فيهم بنيه هو . . يعنى بهم ، ويدللهم ، ويحنو عليهم . .

ولد الحسن فى منتصف شهر رمضان من العام الثالث للهجرة . . وهو يشبه جده صلى الله عليه وسلم من رأسه إلى صدره . . وولد الحسين فى أواخر العـــام الرابع للهجرة . . ويشبه جده صلى الله عليه وسلم من صدره إلى رجليه . .

وفى طفولة الحسن والحسين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ذكريات حبيبة له معهما . . فقد كان يحملهما ــ أو أحدهما ــ ويخرج بهما إلى السوق أو إلى مجالس صحابته . . وكان صلى الله عليه وسلم مرة يخطب بالمسجد . . وأقبل الطفلان الحبيبان ، فلا يملك نفسه من أن ينزل عن المنبر يحملهما ويعود ليقول للناس : صدق الله : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما) . .

بهذه الأبوة الصادقة . . . . والعاطفة الرحيمة . . كان صلى الله عليه وسلم فى بيته مع أهله وبناته وحفدته . . وقد قال : (خيركم خيركم لأهله) . .

وإننا لنشهد الحسن فيما بعد رجلا وعالما جليلا . . وفى نحو السابعة والثلاثين من عمره . . وقد قتل أبوه الخليفة . . بويع هو بالخلافة فى شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة . . ولكنه لم يبق فى الخلافة إلا قرابة سبعة أشهر . . وكان ينازعه فيهـــا معاوية بن أبى سفيان . . فتنازل له عنها . .

وعاش إلى العام التاسع والأربعين للهجرة . . وتوفى مسموماً فى شهر ربيع الأول ودفن إلى جوار أمه بالبقيع . . وكان رضى الله عنه مزواجا ، إذ عُد له أكثر من مائة زوجة . . ولهذا كان نسله كثيرا ، وانتشر فى عديد من البلدان . . وإليه ينسب (السادة الحسنية) . .

أما الحسين رضى الله عنه فهو الدوحة الثانية لبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والبطل الشهيد الذى ما كان ليستسلم أمام كيد المتآمرين . . وقد وقف دون مبادئ الخلافة السامية . . حتى اضطر إلى أن يخرج إلى كربلاء بأهله وبنيه وبعض من جنده فى مواجهة التحديات المناوئة لقضية الحكم الإسلامى وشرعيته . .

وهناك فى متن التاريخ ، قصة الصراع الدامى بحلقتها الأخيرة . . نبصرها كمأساة مروعة ، حدثت يوم العاشر من محرم سنة إحدى وستين للهجرة . . عندما استشهد مقتولاً بيد سنان بن أنس النخعى ، ثم حز رأسه الشريف : (شمر بن ذى الجوشن الضبابى) الذى عرف بين الناس — وهم يشيرون إليه كلما شهدوه — : هذا قاتل الحسين . . وذلك تنفيذا لأمر الطاغى عبيد الله بن زياد المأمور من قبل الطاغية يزيد بن معاوية — الذى عُرف عهده بنكسة كبرى للمسلمين — فقد كان ماجناً ، وتسبب فى الكثير من المساوئ بعلماء الحرمين وأرضهما المقدسة . .

وجاءت (أم كلثوم) ابنة السيدة فاطمة . . فى السنة الخامسة للهجرة . . سُميت باسم خالتها . . وعندما كبرت تقدم الخليفة عمر بن الخطاب يخطبها من أبيها الإمام على . . فذكره بأنها لازالت صغيرة ، ولكن عمر يقول له: (زوجها لى يا أبا الحسن فإنى أرصد من كرمها ما لا يرصده أحد) . . وقد أصدقهـــا أربعين ألف درهم . . وذهب إلى المهاجرين الأولين بالروضة الشريفة يقول لهم : رفئونى (أى هنئونى) .. فسألوه : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ فأجابهم : (تزوجت أم كلثوم بنت على) . . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كل نسب وسبب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصبي وصهرى ، فكان لى به عليه السلام السبب والنسب والصهر ، وأردت أن أجمع إليه الصهر) . .

وولدت السيدة (فاطمة) ابنتها الأخيرة (زينب) فى أواخر العام السادس للهجرة . . وكان زواجها من السيد عبد الله الجواد بن جعفر الطيار بن أبى طالب . . وقد ولدت له من الأبناء أربعة : جعفر وعوناً الأكبر وأم كلثوم وعلى . . وقد أعقبوا . . ويسمى نسلهم (الزينبيون) . . رضى الله عنهم . .

وقبل ميلاد (أم كلثوم) ابنة السيدة فاطمة الزهراء . . كانت — رضوان الله عليها — قد أسقطت مولوداً كان المنتظر أن يسمى (محسن) — كما أراد جده — عليه الصلاة والسلام . . والذى يكن لبنى ابنته كل الحب . . فهم أكبر فرحه . .

وفيهم يجد سلواه عن ثكله فى بنيه الثلاثة وفى بناته اللواتى انطفأن الواحدة بعد الأخرى . . ولم يبق منهن سوى الأثر من أبناء بعضهن . . وسوى ابنته (فاطمة) التى قال لها مرة : (يا فاطمة ، إن الله يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك) . .

فقد كانت رضوان الله عليها — مثلا عاليا في الخلق . . أليست هى خريجة مدرسة النبوة وألصق الناس بصاحب الدعوة الإسلامية — عليه أفضل الصلاة والسلام — وقد قال أيضا — كما قرأنا فى فصل آخر من كتابنا هذا عن مكانتها الرفيعة كإنسانة متكاملة : (كمُل فى النساء أربع : آسيا امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد) رضوان الله عليهم . .

وتكتمل أيام الابنة الحزينة لتُفارق الدنيا . . بعد أن فقدت أعظم شئ فى حياتها . . بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل بأن ابنته فاطمة أول أهله لحوقاً به . .

فإذا هى الضعيفة الكيان . . والأم الحيرى . . تزداد حزنا واكتئابا . . ولا ترى باسمة إلا فى اليوم الذى همت فيه بترك هذه الفانية . . فلقد أحست بيوم نهايتها لتلحق بأبيها وإخوتها الراحلات قبله عليه الصلاة والسلام . . وتسلم الروح إلى ربها ولم يمض على رحيل أبيها إلا أقل من ستة أشهر . . رضى الله عنها . . رضى الله عنها . . وصلى وسلم على رسوله الخاتم وعلى آله وصحبه . .

ابراهيم

ولد إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى السنة الثامنة للهجرة . . أبيض لأمه . . وقيل عنه بأنه كان جميلا بهياً . .

وأمه مارية بنت شمعون القبطية . . والتى أهداها المقوقس حاكم مصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . عندما أرسل له كتابا يدعوه إلى الإسلام . .

فكانت (مارية) من ضمن الهدايا التى وصلت . . وقد أعجبت بالإسلام وآمنت . فاتخذها الرسول عليه الصلاة والسلام زوجة . . ولم تستكمل العام حتى ولدت له إبراهيم . . فكانت فرحته به بالغة الحد . . وكما يفعل مع أبنائه صلى الله عليه وسلم . . فقد عق عنه يوم سابعه بكبشين ، وحلق شعر رأسه ، وبوزنه فضة تصدق على الفقراء ثم أمر بدفنه فى الأرض . .

واختار له مرضعة هى (أم بردأة) خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى ، زوجة البراء بن أوس . . وقد منحها نخيلاً تستعين بثمارها . . وكانت تقيم فى بنى مازن . . وهناك ترضع إبراهيم ، ثم تأتى به كل يوم إلى بيت أبيه صلى الله عليه وسلم . . المشوق إليه المتعلق به . .

ولم يمهل القدر هذا الطفل الحبيب الذى ملأ حياة أبيه الملتاع بفقد بناته وصغاره . . عليه الصلاة والسلام . . ولم يستكمل عامين ابنه إبراهيم . . ويُفاجأ بموته كما وفوجئت المدينة كلها . . فيحزن عليه بألم . . ويأخذه من حجر أمه إلى حجزه . . وعيناه تدمعان فى صمت وهو يقول :

(إنا لن نغنى عنك من الله شيئا . . إنا يا إبراهيم لمحزونون . . تبكى العين ، والقلب يحزن ، ولا نقول ما يسخط الرب . . وإنا لله وإنا إليه راجعون) . . وصلى عليه . . وبعد دفنه فى بقيع الغرقد . . رش على قبره الماء . . فداك أبى وأمى يا رسول الله . . يارسول الرحمة . . وعليك الصلاة والسلام



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

سورة النجم (٥٣) الآية ١ – ١٨

الإســــراء .. أولاً ثم المعراج

** قال الله تعالى فى افتتاح سورة الإسراء :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . .

روى الصحابى مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم ليلة أسرى به قال :

(بينا أنا فى الحطيم وربما قال الحجر – مضطجع بين النائم واليقظان أتانى آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه – يعنى ثغرة نحره إلى شعرته – فاستخرج قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد) . .

صدق عليه الصلاة والسلام وما قال إلا الحق . . وقد صلى بالنبيين فى المسجد الأقصى ركعتين . . وقال ليلتها : (ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لـــبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك) . .

وللمؤرخين أقوال مختلفة فى طريقة الإسراء من مكة إلى القدس . . وفــى كيفية المعراج من القدس إلى السماء . . فإلى سدرة المنتهى . .

وصحة الإجماع أنه أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وعرج به بالروح وبالجسد إلى السماء . . وعمره إذ ذاك اثنان وخمسون سنة . . أى قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنة فقط . .

ولعل أصح ما يمكن أن نعتمد عليه فى نقل الخبر التام . . هو نفسه ما قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فى متون الصحاح . . وقد اخترنا ما ورد فى تفسير ابن كثير الجزء الثانى . . ما رواه الصحـــابى أنس بن مالك رضى الله عنهما – قال بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أتيت بالبراق وهو دابة أبيض ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : أصبت الفطرة . قال : ثم عرج بى إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل ، فقيل له من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففُتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل له من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه . قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة يحي وعيسى ، فرحبا بى ودعوا لى بخير . ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ، ففُتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففُتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم يقول الله تعالى : ورفعناه مكاناً علياً) ، ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، فقيل : قد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففُتح لنا ، فإذا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففُتح لنا ، فإذا بموسى عليه السلام ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن

معك ؟ قال : محمد ، فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قـــد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها . قال : فأوحى إلى ما أوحى ، وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موســـى ، قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم ، قال : فرجعت إلى ربى ، فقلت : أى رب خفف عن أمتى ، فحط عنى خمسا ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فقال : مافعلت ؟ فقلت : قد حط عنى خمسا . فقال : إن أمتك لاتطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قال : فلم أزل أرجع بين ربـــى وبين موسى ، ويحط عنى خمسا خمسا ، حتى قال : يا محمـــد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر . فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرا ، ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لاتطيق ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت) .

* * *

وهكذا نستدل بأن وقوع الإسراء والمعراج كانا فى ليلة واحدة . . وأن الصلاة فرضت فى هذه الليلة المباركة . . وهـــذه معجزة من معجزات الله جل شأنه وعزت قدرته . .لنبيه المرسل محمد عليه الصلاة والسلام . .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم . . خرج إلى قريش عامة يخبرهم بما قد قام به فى الليل من الإسراء إلى بيت المقدس . . ومن عروجه إلى السماء ولقائه

بالأنبياء . . فتصايح كفار قريش استهزاء ، واستنكروا ما يسمعونه مما قالوا عنه (هذيان محموم) . . وقد ارتد بعض من ضعيفي الإيمان . . ولما جاء أبو بكر قال : (إن كان قال ذلك فقد صدق) . . قالوا : أتصدقه على ذلك ، فرد عليهم : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ، وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخبره عن بيت المقدس ، ليسمع جميع رجال قريش أوصافه . .

فكشف الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم جميع تلك المواقع . . فراح يصفها لهم موقعاً موقعاً ، وكلهم ذاهلون فى عجب عجاب . . وأبو بكر يؤمن على كلامه ، فسمى (صديقا) لذلك . .

ولكن كفار قريش يضيقون بكل الحقائق . . حسدا وكيدا . . ويجادلون بالباطل . . ولن يغنى عنهم كل مـــا يفعلونه . .

ولقد وردت روايات كثيرة عن عدد من الصحابة . . رضى الله عنهم . . وفى أكثر من كتاب . . ومنها : كتاب (دلائل النبوة) للحافظ أبى بكر البيهقى . . وغيره ، وفى كل رواية أخبار عما كان يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة عُرج به إلى السماء . . من أحوال الناس المهتدين منهم والضالين . . فيسأل جبريل عليه السلام عما يرى صلى الله عليه وسلم من تلك الأحوال . . مثل ما روى عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأيت ليلة أسرى بى لما انتهيت إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق ، قال : وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحياة ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل؟ قال : هؤلاء آكلو الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى ، فإذا أنا برهـــج ودخان وأصوات ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم لايتفكرون فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب) . .

وفى رواية أخرى عن عدد من الصحابة الأجلاء نقرأ وقد ورد الحديث عن

سدرة المنتهى قال : ثم انتهى صلى الله عليه وسلم إلى السدرة ، فقيل له : هـذه السدرة ينتهى إليها كل أحد من أمتك على سنتك ، فإذا هى شجرة يخرج مـن أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لـذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لايقطعها ، والورقة منها تغطى الأمة كلها ، قال : فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة ، من حب الله تبارك وتعالى ، قالوا : فكلمه الله عند ذلك ، فقال له : سل . فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيماً ، وكلمت موسى تكليما ، أعطيت داوود ملكاً عظيما وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التـوراة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له الرب عز وجل : (وقد اتخذتك خليلا . وهو مكتوب فى التوراة حبيب الرحمن — وأرسلتك إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معى ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعاً من المثانى لم يعطها نبى قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلتك فاتحاً خاتما) .

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم : (فضلنى ربى بست : أعطانى فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث ، وأرسلنى إلى الناس كافة بشيرا ونذيراً ،

وقذف فى قلوب أعدائى الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجدا) . . رواه كثيرون .

إنذار إلى قريش

فى سورة الإسراء ينذر الله سبحانه وتعالى كفار قريش لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويضرب لهم المثل بمن قبلهم . . قال تعالى :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) . .

وهذا دليل على أن الأمم من قبل النبى نوح عليه السلام بعشرة قرون — أى منذ آدم عليه السلام — كانت الأمم على الإسلام ، وقد أهلك الله الأمم ممن كذبوا الرسل . . ولا بد لكل من ضل أن يلاقى المصير الأسوأ . .

والمعنى كما أورده ابن كثير فى تفسيره : (أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله تعالى : (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى) . أ. هـ

إن الدروس لتترى أمام المشركين من قريش . . إنذاراً ووعيداً . . وإيضاحا لسبل النجاة والسلام . . ولكنهم لا يزالون يترددون فى غيهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . صابر ثابت على الحق . . والآيات البينات تتنزل عليه تقوى من عزائمه . . وتشد من خطواته إلى طريق النور والحياة الحقة . .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

سورة الصف (٦١) الآية ١٠ – ١٣

العرض على القبائل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كعادته كل عام فى موسم الحج . . وفى مواسم العرب للتجارة أو المفاخرة . . يتصل سراً ببعض القبائل . . وعرض عليهم أن يناصروه لأداء رسالة الإسلام . . وتبليغ دعوة ربه تعالى إلى الوحدانية ونبذ الأوثان . . فكان معظمهم : (قلوبهم غلف) . . لا يصغون إلى ما يدعوهم إليه . . وما يريد عليه الصلاة والسلام أن يهديهم به . . وفيهم من يشتد عليه فى الرد . . وينصتون إلى كفار قريش فى تكذيبهم وتحدياتهم . .

ومن شرارهم قبيلة بنى حنيفة الذين منهم (مسيلمة الكذاب) . . كما أن قبيلة (بنى عامر) اشترط رجالها إن هم آمنوا . . أن يجعل لهم الرسول صلى الله عليه وسلم . . الرئاسة من بعده . . فيرد عليهم : (الأمر لله يضعه حيث يشاء) . .

وهناك القلة من أفراد القبائل الذين كانوا يستمعون إلى ما يقوله صلى الله عليه وسلم ، من جميل القول وصادق الدعوة . . ويتأثرون به ، ولكنهم لم يهتدوا . . فيردون عليه بلطف وخشية ، كطريقة من طرق التخلص . . وفيهم من يخاف من من بنى قومهم ، أو يحسب حساباً لمن يقصدونهم فى مكة من قريش . .

أبو عمرو الدوسى

قبل سنة الإسراء . . قدم (أبو عمرو الطفيل الدوسى) إلى مكة . . وهو من كبار قبائل دوس وشاعر مجيد . . وتصدت له فئة من قريش تحذره من أن يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بدعوى أنه يتكلم السحر ، وأنه فرق أمرهم . . وأنهم يخشون عليه منه . . حتى استوثقوا من أنه لن يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولكن (الطفيل) وهو لا يريد أن يستمع إلى شئ . . يرى نفسه مدفوعة إلى حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة . . فيتوقف بالقرب

منه ، ويقول هو نفسه عن ذلك : (فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت قولاً حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب وشاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول) ، .

وانتظر حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته . . وخرج إلى بيته في سكينة ووقار . . ولاحقه يدخل خلفه ويقول : يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا . . وشرح له ما كان منهم وما كان منه . . ثم مد يده بالإسلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأنصت لتلاوة القرآن . ثم قـــال له : يا نبي الله ، إني امرؤ مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا فيما أدعوهم إليه . فدعا له صلى الله عليه وسلم : اللهـــم اجعل له آيـــة) . .

وانصرف الطفيل إلى قومه ، وبينا هو في طريقه بثنية بين جبلين يشرف عليهم . . وقع نور بين عينيه كأنه المصباح . . فدعا ربه أن تكون الآية في مكان آخر خشية أن يظن به قومه أنها مثلة فيه لإسلامه . . فتحول النور إلى رأس عصاه . . فيراه قومه وكأن بها قنديلاً معلقا . . وعندما وصل إليهم . . كان قد عرض على أبيه وزوجه الإسلام فأسلما .. إلا أن قومه تأبوا عليه .. فاضطر إلى أن يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يخبره بعصيانهم ويطلب منه أن يدعو عليهم . . فإذا عليه الصلاة والسلام يقول : اللهم اهد دوسا ، ارجع إلى قومك فادعهـــم وارفق بهـــم) . .

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم واستقبل الكثير من قوم (الطفيل) دعوة الإسلام عن ثقة وقناعة . . حتى إذا كان عام (غزوة خيبر) نزل هو المدينة كما قال : (بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين) .

وبعد فتح مكة استأذن الطفيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . للذهاب

إلى (ذى الكفين) صنم عمرو بن حممة .ـ يشعل فيه النار ويقول راجزا :

ياذا الكفين لست من عبادكـا ميلادنا أقـدم من ميلادكـا

إنى حشوت النار فـى فؤادكـا

وقد عاش (الطفيل) حتى استشهد عام ثلاثة عشر للهجرة . . فى أوائل عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . .

نصارى يسلمون

قال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) .

هكذا جاءت الآية الكريمة تسجل عن هؤلاء النفر الذين اقتربوا من العشرين من النصارى وفدوا من نجران . . وقيل إنهم عرفوا بمجئ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهم فى الحبشة . . فجاءوا إليه بالمسجد الحرام يسألونه وهو يرد عليهم بما أقنعهم . . فدعاهم إلى الإسلام وهو يتلوعليهم آيات من القرآن الكريم . . وأعينهم ترسل الدمع . . وأمنوا ، وقد وجدوا صدقاً عما قد رأوه فى كتبهم . .

وما كادوا ينصرفون من عنـد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى التقى بهم بعض من رجال قريش وفيهم (أبو جهل) . . يسفهونهم ويقولون لهم : بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم بخبر هذا الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال) . . فما ردوا عليهم أكثر من معنى : (لكم دينكم ولى دين) . .

وإذ يستمرئ كفار قريش فعلهم الشائن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستهزئون بصحابته من المستضعفين إذا جلسوا إليـه فى المسجد الحرام . . فينزل الله تعالى على رسوله صلواته وسلامه عليه : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا . أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذ جاءك الذين

يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) . .

إن الله سبحانه رب هذا الدين الحنيف . . لينصرن أهله ، ويجعلنهم الصفوة المختارة لحزبه . . ألا إن حزب الله هم الغالبون . .

وفود من المدينة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قبل هجرته إلى المدينة بنحو ثلاثة أعوام قد التقى بنفر من (الأوس) جاءوا من المدينة لعقد حلف مع قريش ضد جيرانهم من (الخزرج) . . وفيهم أنس بن رافع وأبو الحيسر . . وبعض من بنى عبد الأشهل وعلى رأسهم إياس بن معاذ . .

وتحدث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل لكم فى خير مما جئتم له) . . ثم أخبرهم بأنه النبي المبعوث . . ودعاهم إلى عبادة الله وحده . . وعرض عليهم الإسلام ، وهو يتلو عليهم من كتاب الله بعض الآيات مما قد أعجبهم . . فرد عليه إياس بن معاذ وهو يحدث رفاقه : أى قوم ، هذا والله خيراً مما جئتم له . فصاح فى وجهه زميله أبو الحيسر وألقى عليه حفنة من التراب . . وقام النفر إلى شأنهم وعادوا إلى المدينة . . وحدث آنئذ بين فريقى الأوس والخزرج ما سمى بحرب بعاث . .

يروى أن إياس بن معاذ عند مماته كان يكبر الله ويهلل . . ويجئ إلى مكة وفد آخر فى موسم الحج . . ولكن هذه المرة من الخزرج . . ستة نفر وقف بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندجمرة العقبة .. يسألهم عن أصلهم ،ويستجيبون إلى أن يجلسوا معه يحادثهم . . فيدعوهم إلى الإسلام حتى تلين قلوبهم بآيات من القرآن . . ويحادث بعضهم بعضا : تعلموا والله إنه النبي الذى توعدكم به يهود ؛ فلا تسبقنكم إليه . .

واهتدوا وأقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلنون إسلامهم . . ثم يقولون : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . .

هؤلاء البذرة الصالحة الأولى ، هم :

أسعد بن زرارة ، عوف بن الحارث ، عقبة بن عامر بن نابى ، رافع بن مالك ، جابر بن عبد الله ، أبوزيد قطبة بن عامر) . . وقد انطلقوا إلى المدينة على خير مركب . . يذيعون عن وجود رسول آخر الزمان الذى تحدثت عنه الرهبان . .

أما خبر ما كانت تتوعد به يهود . . جيرانها من الأوس والخزرج . . فهؤلاء اليهود مشركون عابثون . . وطالما أضرموا نار الفرقة بين قبيلتى المدينة الشهيرتين . . وتحدثوا بينهم عن النبى المبعوث تلك الأيام . . وأنهم سوف يقتلونه ويقاتلونهم معه (قتل عاد وإرم) . . عليهم لعنة الله . . ولسوف يأتى اليوم الذى تنعكس ظنونهم عليهم . . وينقلبوا خاسئين . .

البيعة : فى العقبة الأولى والثانية

فى موسم الحج – قبل الهجرة بعام وثلاثة شهور . . قدم من المدينة إلى مكة . . عشرة من بنى الأوس واثنان من بنى الخزرج . . يعلنون موازرتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلامهم . . وطلبوا منه أن يبايعهم كعهد منهم مكتوب بينه وبينهم . . فكتبوا هذه الصيغة : (ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأت ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف) . .

وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لئن وفيتم لكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب) .

وقد سميت هذه البيعة (بيعة العقبة الأولى) لتواجدهم عنـــد جمرة العقبة إلى شمال الصاعد من مكة إلى منى . .

وانتشر الإسلام فى المدينة . . دخل إلى النفوس الطيبة للأنصار ، حتى قيل لم يبق بيت إلا وشرف بالإسلام يومها . .

وأثناء موسم الحج التالى الذى تمت بعده الهجرة النبوية . . وصل إلى مكة جمع كبير من الأنصار : ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . . خليط من الأوس والخزرج — وهؤلاء الأكثرية فيهم — جاءوا خاصة للالتقاء برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وللإعلان عن استعدادهم لحمايته إذا خرج إليهم . . بل وللائتمار بما يوجههم إليه عليه الصلاة والسلام طائعين مختارين . . وفيهم : كعب بن مالك ، مصعب بن عمير ، البراء بن معرور — سيد الأنصار . .

وقد اتصل بعضهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأوعدوه باللقاء عند العقبة . . يوم أوسط أيام التشريق . . حيث راحوا يتسللون أفراداً أفرادا خيفة أن يكتشف أحد من قريش أمرهم . . حتى تجمعوا . .

وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس الذى كان لا يزال على دين قومه . . غير أنه حضر ليستوثق من أمر هؤلاء القادمين . . وقد رأى غالبيتهم من الشباب والفتية . . فقال لهم : يا معشر الخزرج ، إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز فى قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قــد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فقالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك مـــا أحببت . .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن . . داعياً إلى الله ومرغبا في الإسلام ، حتى قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون به أنفسكم ونساءكم وأبناءكم . .

وتقدم البراء بن معرور وأخذ بيده الكريمة وقال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً ، لنمنعنك مما نمنع أزرنا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر . .

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال-(يعنى اليهود) حبالا وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ . . فابتسم صلى الله عليه وسلم وقال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . . وطلب منهم اثنى عشر نقيباً عليهم . . وقال لهم : هؤلاء كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا الكفيل على قومى .

على هذا بايع الوفد الكبير المسلم . . رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد تفاءل بما وجده من إقبالهم عليه . . وكان الاتفاق التاريخى للمناصرة أملاً جديدا للدين الإسلامى ، ستبشر به الرسول عليه الصلاة والسلام . . وقد أرسل مع الوفد إلى المدينة كلا من : الصحابيين : عمرو بن أم مكتوم ومصعب بن عمير . . يعلمان القرآن للمسلمين ، ويقومان بالدعوة إلى رب العالمين الواحد الأحد .

والنقباء الاثنى عشر كانوا تسعة من الخزرج وهم ! البراء بن معرور ، أبو أمامة أسعد بن زرارة ، عبد الله بن رواحة ، سعد بن عبادة ، سعد بن الربيع ، عبد الله بن عمرو بن حرام ، رافع بن مالك بن العجلان ، عبادة بن الصامت ، المنذر بن عمرو ، ومن الأوس ثلاثة : أسيد بن خضير ، سعد بن خيثمة ، رفاعة بن المنذر . .

وسميت هذه البيعة : (بيعة العقبة الثانية) . . ومن وحيها كتب الشاعر

كعب بن مالك . . قصيدة عينية . . سجل فيها أسماء النقباء الاثنى عشر . . منها هذه الأبيات الثلاثة :

وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنـا بأحمد نور من هدى لاح ساطع

فلا ترغبن فى حشد أمر تريده وألب وجمع كل ما أنت جامع

ودونك فاعلم أن نقضْ عهودنا أباه عليك الرهـط حين تبايع

وعلمت قريش ببعض ما كان من أمر البيعة . . فجدت فى بحثه والتعقيب على أصحابها . . حتى تمكنت من القبض على : سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو الذى استطاع التخلص منهم . . إلا أن سعدا أسروه وضربوه . . غير أن جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية خلصاه منهم ، لما كان بينهم وبينه من جوار وحسن تعامـل . .

وهكذا سبق الإسلام إلى (يثرب) . . بل المدينة المنورة بما سوف تستقبل من عهد مجيد . . وهى تفتح صدرها . . للسيد المبعوث : محمـد بن عبد الله عليه الصلاة وأتم التسليم . .



الهجرة إلى الله

* من أقوال الرسول — صلى الله عليه وسلم عن المدينة :

أ — اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة لمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه . .

ب — لا يخرج أحد من المدينة إلا أبدلها الله خيرا منه . .

ج — المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . .

* * *

نادت بمولده أسفار من بعثـوا — للحق قبلا وكان الناس فى سدم

وجاء يحمل قرآناً . . يبصرنـا — هدى السماء إلى الإسلام والعصم

قد جاهد الشرك أوثاناً ومعتقداً — وحرر القوم من قول ومن وخم

* من قصيدة للمؤلف فى ديوانه
(أضواء ونغم) المطبوع عام ١٣٨١هـ *

* * *

أوائل المهاجرين

بينما يتصل أذى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولأتباعه من المسلمين الذين تعلقوا بـــه وبدعوته لله عز وجل . . فإنه عليه الصلاة والسلام يخفف عنهم ويعدهم الحسنى . . ثم يطلب إليهم الخروج من مكة . . وأن يهاجروا إلى بلد كريم سبقهم إليه إخوة لهم فى الدين . . فينطلقون إلى المدينة ، مفتدين عقيدتهم بكل شئ . . حتى كبارهم من أمثال : عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة وعثمان بن عفان وغيرهم . . فيلاقون فى دار الهجرة الاستقرار والأمان وحسن الجـــوار . .

وكان أبو بكر الصديق كلما طلب الإذن فى الهجرة . . يمهله رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فيسأله أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى . . فيجيبه صلى الله عليه وسلم : نعـــم . .

لهذا كان الصديق فى انتظار المشوق . . وقد جهز نفسه لليوم القريب . .

وقد سبق لأبى بكر أن أراد الهجرة إلى الحبشة . . وعندما خرج من مكة ووصل إلى (برك الغماد) لقيه سيد القارة : (ابن الدغنة) ورده عن تلك الهجرة وهو يقول : (إن مثلك يخرج ولا يخرج ، فأنا لك جار) . . لذا فقد قبلت قريش جواره شريطة أن لا يؤدى صلواته وقراءته القرآن إلا داخل بيته . . حتى ضاق أبوبكر بهذا ، وأخلى ذمة ابن الدغنة من جواره . .

نقلة إلى النور الحق

كانت آيات الله تعالى تتنزل على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم بين الحين والحين . . ضياء وموعظة . . خبراً وتهذيبا . . دعوات إلى الإيمان والصبر . . حتى أوحى الله سبحانه بمجابهة المشركين . . بل وقتالهم حتى يؤمنوا . . فنقرأ هـــذه الآيات البينـــات :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) . . (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . .

ولقد علمت قريش بما حصل عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من منعة وأمن فى بلاد الهجرة . . وأحسوا بأنه لابد لاحق بهم . . بل وسيستعد معهم لمجابهتهم وقتالهم . . لهذا كانوا فى شبه دوامة . . حتى اجتمع أهل الرأى والفطنة منهم بدار الندوة . . يقررون ماهم فاعلون بالنبى (محمد) عليه الصلاة والسلام . . رجاء التخلص منه بصفة نهائية . . كما يتوهمون . .

فى الجانب المضئ . . كان رسول الله الحبيب صلى الله عليه وسلم . . ينتظر أمر ربه جل وعلا . . ليأذن له فى الهجرة إلى البلد المختار . . الذى يأمل فيه أن ينطلق بدين الإسلام إلى مجالاته الرحبة . . ونشره بين العالمين يهديهم إلى الصراط المستقيم : صراط الله العزيز الحكيم [1] . .

انتصار الحقيقة بالهجرة

المتآمرون من قريش فى دار الندوة . . يدلى كل منهم برأى . . فى كيفية التخلص من خصمهم عليه الصلاة والسلام . . فلا يتفقون إلا على رأى لأبى جهل

---

(١) روى أن آخر سورة من القرآن نزلت فى مكة : سورة (المؤمنون) . . وتبتدئ بهذه الآيات :
(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون) إلى قوله تعالى : (الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) . . وهذه عشر آيات قال عنهن النبى عليه الصلاة والسلام : (من أقامهن دخل الجنة) . . وقد وصف الفردوس الموعود به صحابته المؤمنين فقال : (خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك) .

ابن هشام . . ويتلخص فى أن يختاروا من كل قبيلة شاباً جلداً يحمل سيفه . . ويتجمهر هؤلاء الشباب المسلحون بسيوفهم الباترة . . ويتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم عند باب بيته ليلاً . . حتى إذا ما خرج فى الصباح ضربوه ضربة واحدة ، فيتفرق دمه بين جميع القبائل . . ولا تقوى قبيلة (عبد مناف) على حرب كل تلك القبائل . . فتضطر إلى قبول الدية عنه . .

قال تعالى عن ذلك اليوم ليطلع نبيه على حقيقة ما قد دار بينهم :

١ – (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) . .

٢ – (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) . .

ويأتى الروح الأمين جبريل عليه السلام – يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد أذن له فى الهجرة إلى المدينة ليفتح له أبواب النصر . . وقد أوصاه ألا ينام تلك الليلة فى داره . . فيتدبر الرسول عليه الصلاة والسلام الأمر بفطنة الملهم ووعى الحكيم . . مؤيدا من ربه تعالى نحو الحياة الحرة الجديدة . . وانتقالا إلى أفضل وجود . . وإلى أكرم الغايات . .

الاعداد لموكب الهجرة

فى تلك الليلة . . وقريش تبيت أمرا عند باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد وقف الشباب المسلح من كل قبائلهم . . وهم أحد عشر فرداً . . :
(أبو جهل ، أبو لهب ، الحكم بن العاص ، النضر بن الحارث ، أمية بن خلف ، عقبة بن أبى معيط ، زمعة بن الأسود ، نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، طعيمة بن عدى)

هذا هو الكمين المتربص بالباب تنفيذا للتآمر الشرس . . ولكن الله لهم بالمرصاد . . وقد ختم على أبصارهم وعلى قلوبهم . . فإذا برسول الله صلى الله عليه

وسلم بعد أن أوصى ابن عمه وربيبه : على بن أبى طالب ، بأن ينام على فراشه . . وأن يبقى بمكة يوزع على الناس ما كانوا استودعوه عنده من أمانات . . ثم أن يلحق به إلى المدينة بعد أيام ثلاثة . . إذا به صلى الله عليه وسلم يخرج على المتربصين وكأنهم نيام . . ويتناول من الأرض حفنة من تراب ، ويدور عليهم يضع منه على رءوسهم . . وهو يتلو من سورة يس : (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . .

وجاء من ينادى فى (الكمين المتربص) : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً . فيسخر بهم قائلا : خبتم وخسرتم ، قد والله مر بكم ، وذر على رءوسكم التراب . . ثم يضيف : شاهت الوجوه ، شاهت الوجوه . .

ولم يصدقوا حتى أصبحوا ووجدوا أن عليا — رضى الله عنه — هو الذى ينام مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولا يكادون يعرفون منه أنه لا يعلم شيئا ، ولا أين ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى تطيش عقولهم ، ويذهل رجال قريش وهم يتميزون من الغيظ . . والواقع يقول لهم : (قل موتوا بغيظكم) . . ويسارعون فى إيفاد الرسل يبحثون عن خصمهم . . وقد استبد بهم ما يشبه الهوس والاضطراب النفسى . . وهكذا هم الحاقدون الضالون . .

العناية الإلهية تلاحق خاتم الأنبياء حيثما حـل وأينما سار . . عليه أفضل الصلاة والسلام . . وبعد أن أمضى ليلته فى مكان ما من مكة ، وعندما أضحى النهار قصد إلى بيت صاحبه الأثير : أبو بكر الصديق . . يطرق عليه ويدعوه ليخرج من كان عنده ، فيقول أبو بكر : (إنما هم أهلك بأبى أنت يارسول الله) . فيخبره أنه قد أذن له فى الخروج إلى الهجرة . . وبلهفة يرد أبو بكر : (الصحبة بأبى أنت يارسول الله) . .

وكان قد استعد بتجهيز راحلتين لهذه الساعة الميمونة . . روت السيدة عائشة الصديقة ، وقالت — تعنى أبيها والرسول عليه الصلاة والسلام — : (فجهزناهما

أحسن الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادون به إلا وعاه حتّى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما عشاً ، وينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث . .

هذا ، وقد استأجر الصاحبان عبد الله بن أرقط من بنى الدئل بن بكر ليكون دليلهما فى الرحلة الطويلة إلى المدينة . .

وكانت قريش قد بثت عيونها فى كل مكان . . وتشتد فى البحث عن رجل السلام (خصمهم المختفى عن أعينهم) . . وهم فى تيه ظنونهم . .

روى الإمام البخارى عن أبى بكر الصديق قال وهو فى غار ثور : (رفعت رأسى ، فإذا أنا بأقدام ، فقلت : يارسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال : اسكتْ يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما) . .

وذلك ما نزل عنه قوله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) . .

سباقون إلى الهجرة

قبل أكثر من عام من الهجرة . . عندما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتباعه المؤمنين . . أن يهاجروا إلى البلد الطيب . . فراراً بدينهم وطلبا للحياة الآمنة

بعيدا عن أذى قريش ومتاعبها المتلاحقة . . هاجر أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى . . وكان قد خرج بزوجه وابنه . . فاستوقفه أصهاره حتى ضايقوا عليه، ومنعوا ولده وزوجه أن يغادرا مكة معه . . وعذبوهما حتى خلعوا يد ابنه . . واضطر هو للهجرة إلى المدينة . . حتى مضى نحو عام ، عندما تركوا زوجه وابنه يلحقـان بـه . .

كذلك فعـل كفار قريش بصهيب بن سنان ، ولم يتركوه يخرج من مكة مهاجرا إلا بعد أن ترك لهم كل أمواله . . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ربح صهيب ، ربح صهيب) . .

وذكر أنه لما هاجر (عامر بن ربيعة) وزوجه وأخوه . . أغلقوا دارهم وتركوها . . فمر بها : عتبة والعباس وأبو جهل . . فقال عتبة : أصبحت الدار خلاء من أهلها . فاتجه أبو جهل إلى العباس يقول له : هذا من عمل ابن أخيك ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع ما بيننا) . . وكانت الهجرة إلى الله على أشدها ، حتى لم يبق من المسلمين فى مكة إلا محصور أو مغلوب على أمره . .

* * *

الى المدينة المنورة

** فى حديث للسيدة عائشة الصديقة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لصحابته وهو بمكة :

(قـد رأيت دار هجرتكم . أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين) . .

** عندما هم (عليه الصلاة والسلام) أن يترك مكة مهاجرا إلى المدينة . . أوحى الله إليه ، فكان يردد قوله تعالى : (وقـل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرجَ صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا) .

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه وهو خارج من مكة دعـا ربه تعالى دعاء قال فيه :

(الحمـد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، وإليك رب فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى ، رب المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين ، أن تحل على غضبك ، وتنزل بى سخطك ، وأعوذ بك من زوال نعمتك وفجاءة نقمتك ، وتحـول عافيتك ، وجميع سخطك ، لك العتبى عندى خير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

* * *

طـلائع الخير

مضت الأيام الثلاثة . . وخرج الدليل (ابن أريقط) بالراحلتين إلى خارج مكة . . حيث وافاه الرسول المنتصر صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة . . وغادر الموكب بطحاء مكة . . يسير بعناية الله قاصداً طريق الساحل . . فى محاولة لتضليل من قد يكون فى أثره من أتباع قريش التى أعلنت عن جعل (مكافأة) مائة ناقة لمن يدل أو يأتى برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

تحدثت أسماء بنت أبى بكر الصديق قائلة : مكثنا ثلاث ليال لا ندرى أين وجه رسول الله حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر :

جزى الله رب الناس خير جزائه   رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحـا   فأفلح من أمسى رفيق محمـد

ليهن بنى كعب مكان فتاتهـم   ومقعدهـا للمؤمنين بمرصـد

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله إلى المدينة . . والشاعر مسلم يتخفى فى مكة . . يبحث عن أخبار المهاجرين ويغبطهم على ما يتحقق لهم من انتصارات . . ونسب شعره إلى الجن . كمـــا يقولون : (لكل شاعر شيطـــان) . .

كان سراقة بن مالك بن جعشم — من بنى مدلج — قد عرف بمسير الموكب النبوى . . وطمع فى الحصول على الجعل . . وما لبث أن تسلح وركب خيله وانطلق رجاء أن يلحق بضالته . . وما يكاد يبصر بالموكب حتى تعثر خيله وتلقيه أرضا . . فيعاود الكرة ويشتد عدو الخيل ، ولكن يديها تخيسان فى الأرض عندما يهم أن يقترب من الموكب . . فى عسفان ويسقط ثانية ، ويلفه إعصار جعله يقول لنفسه : (فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر) . . فناديت القوم : (أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شئ تكرهونه) . .

عندها يتوقف الموكب . . ويحادثونه ، فيطلب سراقة كتاباً كبينة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فيكتبه له أبو بكر بعد أن أن يستوثقا منه بأن لا يدل عليهما . . وانصرف عائداً من حيث أتى . . وقد احتفظ بكتاب رسول الله إلى يوم فتح مكة عندما أعلن إسلامه . .

عند خيمة أم معبد

ويواصل الموكب مسيرته المباركة . . حتى إذا ما بلغ خيمة أم معبد الخزاعية عاتكة بنت خالد . . نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرافقوه — وهم جياع — يسألون عندها عن طعام يبتاعونه . . فلم يجدوا شيئا ، فقد كانت الشاة عازبا والسنة شهباء — كما وصفت أم معبد . . ورأى صلى الله عليه وسلم شاة عجفاء فطلب أن يحلبها . . وما أن مسح بيده على ضرعها حتى (تفاجت عليه) وسمى

الله تعالى ودعاه . . وأخذ بالإناء ، فأدرت حتى امتلأ ، فشرب الكل منه . . وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحلب حتى امتلأ الإناء ثانية ، فتركه عند صاحبته التى بايعته على الإسلام . . وارتحل الركب بعد أن ودعوها . .

وعندما حضر زوجها (أبو معبد) بعد رعيه للغنم الضعاف ، عجب لوجود اللبن بينما لا شاة حلوب عندهم . . فذكرت له زوجه خبر الصحب الطيب الذين مروا بها . . وفيهم : (رجل مبارك له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مفند) ــ كما وصفت أم معبد . . فطلب منها زوجها أن تصفه له فإنه يرى أنه هو (صاحب قريش الذى تطلبه) كما سمع من الركبان . .

وتكلمت أدم معبد بحديث يعتبر وصفاً دقيقاً لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيافته . . قالت عنه :

ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولم تزربه صعلة ، وسيم قسّيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشعاره وطف ، وفى صوته صحل ، وفى عنقه سطع ، أحول أكحل أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو النطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة لا تقتحمه عين من قصر ، ولا تشنأه عين من طول). .

وتمنى (أبو معبد) لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتبعه وإنه لفاعل . . وفيما بعد أسلم أخو أم معبد : حبيش بن الأسلم أيضا ، وقد استشهد أثناء فتح مكة . .

وكما قرأنا تلك العبارات الجامعة . . كيف استطاعت أعرابية فى قلب الصحراء تصف ذلك الوصف الدقيق بإبداع وشفافية .. وتحدد النقاط الجمالية لكيان الإنسان الكامل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مصدر الإلهام والحب والخير والجمال .

الموكب نحو قباء

المسيرة التاريخية لموكب الحياة . . تأخذ طريقها إلى (أمج) ثم إلى (قديـد) . . وهى بعض من الأماكن التى كان الموكب يمر بها وينزل فى بعضها للراحة وتناول الزاد . . ومنها انطلق إلى أعالى وادى العقيق فى اتجاه قرية قباء . . والتى يسكنها بنو عمرو بن عوف . . وقد استراح الصحب الكرام عند الفجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفاقه الحرة (حدود حرم المدينة) حيث وصلوا صلوا صلاة الفجر[1] ، ثم أفطروا . . وهناك التقى بهم الزبير بن العوام ، وكان قادما فى تجارة له من الشام . . وكسا الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه بالثياب البيضاء . . وهم يواصلون سيرهم . . وقد أمضوا فى الطريق من مكة ثمانية أيام بلياليها عند ما لاحت لهم مشارف قباء التى تعلو المدينة ببضعة أقدام . .

وكان الأنصار بالمدينة قد بلغهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للهجرة إلى المدينة . . فكانوا يصعدون كل يوم إلى الحرة يترقبون مقدمه . . حتى جاء اليوم الميمون وأضحى النهار وحميت حرارة الشمس على المتطلعين . . وقـد انصرفوا ليعودوا ثانية مع اقتراب العصر .. وكان أحد اليهود لا يزال يتطلع — ولعل له شأناً — فشاهد الموكب النورانى يتلألأ تحت وهج الشمس بالثياب البيضاء . . وإذا به راح ينادى بأعلى صوته : يابنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء . . هذا جدكم الذى تنتظرونه . .

وتسامع الأنصار بالخبر السعيد المنتظر . . فأقبلوا ومعهم أسلحتهم يتسابقون لتحية خير قادم عليه الصلاة والسلام . . ويعبرون عن فرحتهم الكبرى به بينهم ، وهم يكبرون ، لا تكاد الدنيا تسعهم . . فيدركون الركب عند شجرة بالحرة . . وقد كانوا نحو خمسمائة من الأنصار . . وكأنما قدموا يزفون الحبيب وموكبه يواصل خطاه إلى قباء التى شهدت أول أفراحها . . بل وأعيادها بمقدم سيد البشرية . . نبى الهدى والرحمة عليه الصلاة والسلام . .

---

(١) بنى فيما بعد مسجد فى هذا المكان من الحرة وتسمى (مسجد الصبح) .

كان هذا المشهد العظيم . . والبهجة تعمر كل القلوب قبيل ظهر يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الموافق لشهر سبتمبر سنة ٦٢٢ للميلاد . .

حللت أهلا وقد أنزلت فى سهل والدين باعثك الأسمى إلى الأمم

(للمؤلف من قصيدته فى ديوان : أضواء ونغم)

حط الرحال وبناء المسجد

وسط هذه الفرحة الغامرة . . والأنصار يحيطون بأعظم موكب عرفه التاريخ . . والنفوس تطفر بالبشر وبالمسرة . . يصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منازل بنى عمرو بن عوف . . ويحط رحاله فى بيت أكرمهم : كلثوم بن الهدم . . وجبريل عليه السلام يشارك فى هذا الموقف الجليل بوحى الله تعالى :

(فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) . .

جلال الروحانية كان يحف بكل الجموع الهادرة بالتهليل والتكبير . . وقد ظهر الله عز وجل نبيه على أعدائه . . وأبلغه مأمنه ومستقر دعوته ومنطلقها إلى جميع العالمين . . وإلى كل نفس ظامئة للنور وللقداسة والإيمان . .

روى ابن أبى شيبة عن جابر رضى الله عنهما قالا : (لبثنا فى المدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة) . .

توضيحا لهذا : نعرف أن الأنصار فى قبـــاء . . اتخذوا لهم مصلى فى مربد [1] كلثوم بن الهدم — وهو فى جانب من داره المجاورة لمنزل بنى عمرو بن عوف وقد صلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يصلون إلى بيت المقدس . وأقر هذا المكان ليكون أول مسجد تأسس فى الإسلام . . وفيه نزلت الآية الكريمة . . قال تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) . .

---

(١) المربد : هو المكان الذى يجفف فيه التمر بعد بسطه .

وقـــد وضع عليه الصلاة والسلام أول الحجار فى قبلة المسجد بنفسه . . ثم اشترك معه أبو بكر والأنصار . . وكان مسورا باللبن . . ثم بناه عمرو بن عوف تقربا إلى الله تعالى . .

وعن مسجد قباء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء ، فصلى فيه ركعتين ، كان كأجر عمرة) . .

وبعد ستة عشر شهرا عندما حولت القبلة إلى الكعبة . . واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم مقر المحراب ، بقى كما هو إلى يومنا هذا . . وإن كانت قد حدثت زيادات على المسجد من الجهات الأخرى وتم تعميره أكثر من مرة . .

صلاة الجمعة بوادي الرانوناء

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء منذ وصوله بعد ظهر يوم الاثنين إلى صباح يوم الجمعة . . حيث غادرها على ناقته فى الطريق إلى المدينة . . وهو محفوف بإجلال الأنصار ، ويرافقه أبو بكر و على بن أبى طالب الذى لحق به فى قباء بعد وصوله إليها بيومين[1] . . وبعض من الأنصار . .

وإن الموكب الحبيب ليسير على وجهته المحددة . . وإذا به يدخل إلى منطقة واد يسمى (الرانوناء) ، ووقت صلاة الجمعة قد حان . . فيتوقف ، وينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه عن رواحلهم إلى منزل لبنى سالم بن عوف كذلك . وفى هذا المكان يؤدون أول صلاة جمعة تقام فى المدينة . . وفيها خطب عليه الصلاة والسلام أول خطبة لجمعة فى المدينة . . وجدير بنا هنا أن نثبت أول خطبتين للصلاة خطبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بلد هجرته . .

---

(١) كان الامام على بعد أن أسلم للناس ودائعهم فى مكة ، اشترى الرواحل وصحب معه إلى المدينة الفواطم الأربعة : أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وفاطمة بنت الشهيد حمزة ، وفاطمة بنت أبى طالب (أخته) وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع بعض ضعاف المسلمين .

* خطب عليه الصلاة والسلام خطبته الأولى ـــ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم يقول له ربه ، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى إلا جهنم ، فمن استطاع اتقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشرات أمثالها إلى سبعمائة ضعف) . .

* الخطبة الثانية :

(إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينه فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه مـــن أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلامه وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه مـــن العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يبغض أن ينكث عهده ، والسلام عليكم) . .

هذا . . وحيث أقيمت صلاة الجمعة ، بنى (مسجد الجمعة) المعروف إلى اليوم[1] . .

---

(۱) أصبح الآن هذا المسجد داخل بستان التاجر حسن الشربتلى ، ومحاط بسور من جميع جوانبه وهو يبعد عن مسجد قباء شمالا بنحو خمسمائة متر .

أفـــراح المدينـــة

هللي يا طيبة الإيمـــان . . هذى طلعة الهادى : حبيب المسلمينا

كبرى . . جاء الرسول الحق يبنى موطن الأمجاد . . أهلاً بالمحبينا

(هذان البيتان أملاهما الوقت . . ساعة كتابة
هذا القسم من فصل (إلى المدينة المنورة)

ركب الحب والإيمان . . يتهادى مواصلاً المسير إلى المدينة . . وكأن هـــذا اليوم يوم عيد . . بل لم يكن هنالك عيد حقيقى فى هـــذه البقعة المختارة للهجرة ولنشر الإسلام . .

كان العيد بحق ، هو هذا اليوم الذى تطالع فيه روابى المدينة . . سفوحها . . جبالها . . وديانها . . آبارها . . نخيلها . . مزارعيها . . كل مكان وبقعة فيها . . تطالع يوماً ولا ككل الأيام . . والناس . . الأنصار . . السابقون إلى الهجرة . . المسلمون . . كلهم . . حتى الصبيان والنساء والأطفال والشيوخ . . جميعهم . . قد ملأت البهجة نفوسهم . . وشعروا بفرح لم يشعروا به فى يوم ما . . فلا تسمع فى كل مكان إلا أن رسول الله . . أو النبى . . قد جاء المدينة . . عليك صلاة الله وسلامه ياسيدى يا حبيب الله . .

خرج الجميع فى استقبال حافل لم تشهده هذه البقعة ، بل ولا أى مكان . . بذلك الجلال والنورانية . . يحتفلون بمقدم خير الناس . . وسيد الناس . . مشهد تأريخى هائل لا يستطيع قلم أن يصف عمق المشاعر . . ومسرات كل وجدان . . وهو يرى تلك الجموع المؤمنة بالله . . الموحدة به . . تخرج لأول مرة . . أجل . لأول مرة فى تاريخ الإنسانية كلها . . تخرج المدينة عن بكرة أبيها . . تعلن أكبر أفراحها . . وتتطلع إلى طلعة أكمل خلق الله . . إلى رؤية خاتم أنبياء الله . . إلى الامتلاء من مشرق رسول الله ، وهو يهل على الوطن الجديد . . صلى الله عليه وسلم.

ومن على أسطح المنازل . . وفى بعض الحوارى . . كانت الصبية والنساء يضربون الدفوف وينشدون بأفراحهم . . ويخرج بعضهم إلى عرض الطريق . . يحيون ويهتفون بأناشيد الاستقبال والفرحة[1] . .

يروى أن بعض بنات النجار خرجن إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهن ينشدن فى الترحيب به ويضربن على الدفوف :[2]

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

* * *

فى قلب المدينة

ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشق الطريق فى صعوبة بالغة . . بين دور الأنصار . . هؤلاء القوم الفضلاء الكرماء . . وقد وصل موكبه عليه الصلاة والسلام بين منازلهم . . فيشيرون إليه وإلى الناقة أن تقف . . كل واحد منهم يريد أن يكون له شرف نزول رسول الله الحبيب صلى الله عليه وسلم عنده . .

ومن هؤلاء الأنصار الأوفياء : عتبان بن مالك ، عباس بن عبادة ، زياد بن لبيد ، سعد بن الربيع ، سعد بن عبادة ، المنذر بن عمرو ، عبد الله بن رواحة ، سليط بن قيس . . وغيرهم . .

---

(١) روى ابن عباس رضى الله عنه مرفوعاً أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جلسوا سماطين ، وجاءت جارية يقال لها (سيرين) . معها مزهر تحتلف به بين القوم وهى تغنىهم وتقول : (هل على ويحكم   إن لهوت من حرج)
فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وقال :(لاحرج) .. وذلك فى مناسبة الترحيب بمقدمه الميمون .

(٢) روى عن مالك بن أنس أنه قال عن يوم مجئ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة وعن يوم وفاته : (شهدته يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا ، وشهدته يوم مات ، فما رأت يوما قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات) .

وكان عليه الصلاة والسلام يطلب منهم هؤلاء المرحبين — أن يتركوا ناقته وشأنها : (فإنها مأمورة) . . بالتوقف فى مكان معين . . حتى إذا ما وصلت به أمام دار بنى مالك بن النجار ، توقفت ثم راحت تدور وتعود إليها لتتوقف أمامها . . ثم أناخت ، ونزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويسارع أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ليحمل المتاع ، ويضعه فى منزله المواجه للمربد — حيث بركت الناقة — وهو موضع لليتيمين (سهل وسهيل) ابنى رافع بن عمرو — من بنى النجار — وهما فى كفالة معاذ بن عفراء . . وذلك ما كان يأمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنزول فى المدينة على بنى أخواله . . وطابت نفسه وهو يهتف حيث وقف قبل دخوله منزل أبى أيوب الأنصارى : (ها هنا المنزل إن شاء الله) . ثم يستطرد بقوله تعالى : (رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) . . وكان الصحابى أسعد بن زرارة الأنصارى قد أخذ بزمام الناقة المأمورة يقوم بشأنها . .

وهكذا أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفل منزل أبى أيوب . . كضيف عليه خلال شهر . . وابتنى بعض مساكنه ، بعد أن ابتاع لها وللمسجد أرض المربد ، وقد أبى أن يقبلها بغير ثمن عندما عرض على (أبى أيوب) وعلى بنى عمومته من بنى النجار — أسعد بن زرارة ومعاذ بن عفراء — أن يشتريها . . وطلب من أبى بكر أن يدفع لليتيمين القيمة : عشرة دنانير . .

وكان أسعد بن زرارة يتخذ مصلى إلى بيت المقدس ، فى جانب من المربد . . ويصلى بأصحابه مع من أسلم ، ويجمعهم للجمعة ، قبل مجئ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، كما صلى بهم مصعب بن عمير . .

ونزل أبو بكر فى دار حارثة بن النعمان ، ونزل على بن أبى طالب على (عويم بن ساعدة) . . ريثما ابتنى كل منهما مسكنا مستقلاً . . كما فعل بقية المهاجرين . .

تأسيس المسجد النبوى

وكان أهم شئ أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم . . هو إقامة مسجده الذى اشترك فى بنائه مع أصحابه من المهاجرين والأنصار . . وهم يرتجزون معه :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره
هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وبداية البيت الأول (لاهم) ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطقها بفصاحته . . ويأبى النطق بالوزن المعروف . . وذلك من كمال بلاغته النبوية . .

ويروى أن بيت الشعر ذاك : لسيدة من الأنصار . . وجاء بعده هذا البيت :

وعافهم من حر نار ساعره فإنها لكافر وكافره

قبل بناء (المسجد النبوى) . . كان بالمربد بعض النخيل والشجر وبعض قبور للمشركين . . فنبشت هذه ، وقطعت تلك ، ليستوى مسطحه الذى بلغ مائة متر فى مائة متر . وصفت جذوع الشجر . . على قبلة المسجد نحو بيت المقدس . . وبنيت جداره باللبن والحجارة بارتفاع (قامة) أى ١٧ ذراعا . . وجعلت عمده من جذوع النخل ، كما سقف المسجد بالجريد ، وعملت له ثلاثة أبواب . .

أحدها باسم (باب الرحمة) وهو الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويواجه مساكنه . . والثانى (باب جبريل) تكريما له عليه السلام . .

وباب ثالث أغلق عند تحويل القبلة إلى (الكعبة) البيت الحرام . .

ولقد بدئ فى توسعة (المسجد النبوى) منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب . . وجرت عليها العديد من العمارات والتوسعات عبر السنين حتى القرن الرابع عشر الهجرى . . وكانت أفخم عمارة تلك التى قام بها فى العهد العثمانى : السلطان

وتوحيدا للجهود . . وجدوا التآلف والتصافى بين بعضهم البعض وبين إخوان لهم هاجروا إليهم وأحبوهم . . واستبشروا بوجود القائد والرائد النبي الرسول بينهم صلى الله عليه وسلم وافتخروا ببقائه معهم . . يوجههم ويهديهم سواء السبيل . . وكان ترحيبهم بصحبه من المهاجرين كبيرا . . ففتحوا منازلهم لهم : كل أسرة أو أفراد تحل على بيت لأنصارى . . فتجد لها جناحاً مستقلا . . فمثلا : نزل عمر بن الخطاب ومن معه على رفاعة بن عبد المنذر ، وكان أن نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة ونزلَ عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع ، ونزل طلحة بن عبيد الله على عمير بن معبد ، ونزل سعد بن أبى وقاص على سعد اليمانى . . وغيرهم وغيرهم . .

وكما رأينا . . فقد وجد المهاجرون أحسن المستقر عند مسلمى الأنصار . . ريثما تهيأت لكل منهم الأسباب ، وابتنى مسكناً ، ودبر شئون حياته فى الوطن الجديد . . إلى جوار نبيهم المطاع ، ورمز وحدتهم وعزتهم وتقدمهم . .

وقد كان أول ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إنشاء مسجده . . أن آخى بين الأنصار وبين المهاجرين . . وربط فى أنفسهم الصافية بين الموسر والمقل ليتعاونوا على استقبال الحياة النظيفة .. والخروج بها إلى البناء الصحيح . . وإلى جهاد النفس ، والجد والعمل فى ظلال عقيدة التوحيد . .

وهكذا أصبح التآخى بذرة صالحة لمسيرة دولة الإيمان الوليدة . . وعلى المثال نذكر :

فقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أخا ، وآخى بين أبى بكر الصديق وخارجة بن زيد ، وبين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك ، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت ، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش ، وبين سعد بن زيد بن عمرو وأبى بن كعب ، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان . . وغيرهم ممن هدى

وتوحيدا للجهود . . وجدوا التآلف والتصافي بين بعضهم البعض وبين إخوان لهم هاجروا إليهم وأحبوهم . . واستبشروا بوجود القائد والرائد النبي الرسول بينهم صلى الله عليه وسلم وافتخروا ببقائه معهم . . يوجههم ويهديهم سواء السبيل . . وكان ترحيبهم بصحبه من المهاجرين كبيرا . . ففتحوا منازلهم لهم : كل أسرة أو أفراد تحل على بيت لأنصارى . . فتجد لها جناحاً مستقلا . . فمثلا : نزل عمر بن الخطاب ومن معه على رفاعة بن عبد المنذر ، وكان أن نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة ونزلَ عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع ، ونزل طلحة بن عبيد الله على عمير بن معبد ، ونزل سعد بن أبى وقاص على سعد اليمانى . . وغيرهم وغيرهم . .

وكما رأينا . . فقد وجد المهاجرون أحسن المستقر عند مسلمى الأنصار . . ريثما تهيأت لكل منهم الأسباب ، وابتنى مسكناً ، ودبر شئون حياته فى الوطن الجديد . . إلى جوار نبيهم المطاع ، ورمز وحدتهم وعزتهم وتقدمهم . .

وقد كان أول ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إنشاء مسجده . . أن آخى بين الأنصار وبين المهاجرين . . وربط فى أنفسهم الصافية بين الموسر والمقل ليتعاونوا على استقبال الحياة النظيفة .. والخروج بها إلى البناء الصحيح . . وإلى جهاد النفس ، والجد والعمل فى ظلال عقيدة التوحيد . .

وهكذا أصبح التآخى بذرة صالحة لمسيرة دولة الإيمان الوليدة . . وعلى المثال نذكر :

فقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أخا ، وآخى بين أبى بكر الصديق وخارجة بن زيد ، وبين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك ، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت ، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش ، وبين سعد بن زيد بن عمرو وأبى بن كعب ، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان . . وغيرهم ممن هدى

الله قلوبهم للتقوى . . فأصبحوا جند الله الأطهار ، تحت لواء رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم . . ليمتد بهم نور الحق إلى نعم لا تحصى . . راضين مطمئنين . . وفى أكرم وجـــود . .

دعاء المدينة

كان جـــو المدينة يميل إلى الحرارة الشديدة . . خاصة الأمكنة البعيدة عن البساتين والمزارع . . مما كان يصيب أهلها ألواناً من السقم والحمى . . وقد مرض بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد روت السيدة عائشة عن مرض أبيها وعامر بن فهيرة وبلال بن رباح ، وعن هذيانهم من شدة الحمى . . ثم دخول الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم ودعائه للمدينة بهذه الصيغة :

(اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها وصاعها ، وانقل وباءها إلى مهيعة) . . وهى مكان فى شمال المدينة ، ومنه ميقات الحجاج القادمين من الشام . . واستجاب الله تعالى لنبيه الكريم . . ولم تعد الحمـــى كوباء يصيب المسلمين . .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهـــم اجعل بالمدينة ضعفى ما بمكة من البركة) . .

وجميل بنا أن نورد من الأحاديث الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . مما أثبته (مسلم بن الحجاج) صاحب (صحيح مسلم) فى الدعاء للمدينة . . ومنه فى إظهار مكانتها كذلك :

١ — المدينة حرم مابين عير إلى ثور[1] فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثاً

---

(١) اسمان لجبلين : جبل عير — بذى الحليفة — محرم الحجاج من المدينة ، وجبل ثور : شمال غرب جبل أحد .

فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا . .

٢ — إنى أحرم ما بين لابتى[1] المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها ، المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة . .

٣ — إن الله تعالى سمى المدينة طابة . .

٤ — إنها طيبة — يعنى المدينة — وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة . .

وعن المسجد النبوى والصلاة فيه . . قال صلى الله عليه وسلم :

٥ — صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة — أو كألف صلاة — فيما سواه من المساجد إلا أن يكون المسجد الحرام . .

٦ — مابين منبرى وبيتى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى . .

٧ — لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى . .

٨ — وهناك حديث عن أبى حميد قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، وساق الحديث ، وفيه :

ثم أقبلنا حتى قدمنا وادى القرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى مسرع فمن شاء منكم فليسرع معى ، ومن شاء فليمكث ، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال : هذه طابة وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه . .

---

(١) مابين (لابتى) المدينة = حرتيها الشرقية والغربية .

٩ — كذلك هناك حديث أخير . . عن أن (أول مسجد أسس على التقوى) هو المسجد النبوى . . فقد روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : مر بى عبد الرحمن بن أبى سعيد الخضرى قال : قلت له كيف سمعت أباك يذكر فى المسجد الذى أسس على التقوى : قال ، قال أبى : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه ، فقلت : يارسول الله أى المسجدين الذى أسس على التقوى : قال — فأخذ كفاً من حصبائه فضرب به الأرض — ثم قال : هو مسجدكم هذا (لمسجد المدينة) . قال : فقلت : أشهد أنى سمعت أباك هكذا يذكره .

ولا خلاف فى كل ما ذكر عن أن نزول الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهو فى قباء — ضاحية المدينة العالية — وأن يكون المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجده النبوى الشريف . . الذى إليه تشد الرحال . . وقباء من المدينة ،ومن مواضعها الرئيسية التى إذا ذكرت عرفت أنها من أصل المدينة المنورة .

أهل الصفة

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم . . على أن يكون لكل فئة من الناس مجال حياتهم الكريمة . . لا فضل بينهم إلا بالتقوى . . ولهذا فقد اختص لفقراء المسلمين مكاناً قريبا منه ، وبجوار مساكنه الصغيرة . . وأصبح لهم مأوى كريماً لا تجرح فيه مشاعرهم . . وقد سموا (أهل الصفة) حيث فرغوا من جميع شواغل الدنيا ، وعكفوا على التفقه فى الدين والتدبر فى كتاب الله تعالى . . وقد كانت لا تهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية من الطعام أو ما يمكن أن يفيدون منه إلا حوله وأرسله إليهم . . وكان لهم نصيب من الغنائم التى يحصل عليها المسلمون . . كما كان يفيض عليهم أغنياء المؤمنين من زكاتهم وجودهم بإخوانهم الذين تفرغوا لعلوم الدين . . ليصبحوا من كبار الرواة والمحدثين . . ومنهم : أبو سعيد الخدرى ، سلمان الفارسى ، صهيب الرومى ، عبد الله بن مسعود ، خباب بن الأرت ، عمار بن ياسر ، أنس بن مالك ، سعد بن أبى وقاص ،

أبو هريرة (الراوية الكبير) : . وقد كانوا يوجهون ، ويعلمون الناس ، ويشاركون فى الحروب . . ويزورهم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ويتفقد أحوالهم هو وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين . .

وهناك فى سورة البقرة جاءت عنهم الآية الكريمة بقوله تعالى :

(للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به علـيم) . .

هذه الآية روى أنها نزلت بحق أهل الصفة . . وقد عدهم البعض فى مستوى المبشرين العشرة بالجنة . . الذين سيرد ذكرهم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد ألفت عن (أهل الصفة) بعض الكتب فيما بعد . . لمـا لهم من دور هام فى تاريخ الدعوة الإسلامية ونشر تعاليمها المقدسة . .

وثيقة تاريخية

لعل من أهم أعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولى منذ حلوله هذا الوطن الثانى المحبب . . تلك المعاهدة التى تعتبر وثيقة تاريخية للمسلمين ، وكانت بين الأنصار والمهاجرين واتقاء عدوان اليهود بإقرارهم على دينهم وفق شروط محددة . . وقد أملاها رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً فيها الواجبات والحدود لكل الأطراف ، وكان هذا قبل أن تفرض الجزية على غير المسلمين . . وإن لهذه الوثيقة أهمية كبيرة . . ومن الواجب إثباتها هنا كما وردت بالنص عن الرسول عليه الصلاة والسلام . . فنقرأ :

* (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم) ، بين المؤمنين من قريش والمدينة ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، والمهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم

(أى كحالتهم عنـــد مجئ الإسلام) وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون ربعتهم الأولى (دياتهم) كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .

واستطرد صلى الله عليه وسلم يعدد الأسر والقبائل : بنو ساعدة ، بنو الحارث بنو جشم ، بنو النجار ، بنو عمرو بن عوف ، بنو النبيت ، بنو الأوس) . . ويسجل عليهم نفس ما قد قاله صلى الله عليه وسلم عن بنى عوف . . ثم قال :

(وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأن من اعتبط (قتل) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلى أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر كافراً أو يؤويه وإنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فى شئ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . .

وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين معهم ، وإن اليهود بـــنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ،

إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه ، وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف . .

واستطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدد يهود القبائل فى : (بنى الحارث بنى ساعدة ، بنى جشم ، بنى الأوس ، بنى ثعلبة) . . ثم قال : إلا من ظلم أو أثـم ، فإنه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن (جفنة) بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك بنفسه فتك ، وأهل بيته إلا من ظلم ، وإن الله جار لمن بر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن المدينة حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد (صلى الله عليه وسلم) . وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم المدينة ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . .

ليس بعد ذلك الإقرار والتأكيد من مأخذ لأحد . . عامة المسلمين أو من يجاورونهم بمعروف . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم أوفى بذمته ، وكتب هذا العهد على نفسه ، وعلى المؤمنين ، فى حسن الجوار حتى مع (يهود) الذين لا تخشى بوائقهم . . وهو قد أراد أن يتيح لهم الفرصة لكى يتدبروا وتلين قلوبهم . . ولكن أنى لهم فى هذا . . فهم مردة الإنس لا يحلو لهم إلا الكيد والإساءة إلى عباد الله . ويتشدقون بما ليس فيهم . . ولكنهم بالعبث يعيشون . .

اليهود ينقضون كل ميثاق

وقبل أن نفيض عن موقف يهود المتعنت والمناوئ للتحرك الإسلامى . . لا بد أن نذكر أولئك القلة الذين اهتدوا وآمنوا بما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد عاداهم قومهم اليهود وتبرأوا منهم . .

فقد كان (الحصين بن سلام) من كبار الأحبار والعلماء عند يهود . . وكان يسره أمر إسلامه حين سمع برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد عرف وقته وصفته من الكتب . . حتى وصل المدينة مهاجرا النبى عليه الصلاة والسلام . . راح الحصين يخبر عمته خالدة بنت الحارث . . فلامته ، حتى أوضح لها بأن الرسول هو أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث فاطمأنت فذهب هو إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم ، وقد سماه الرسول : (عبد الله) . ورجع إلى بيته . . وبعد حين عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمه بأن اليهود قوم (بهت) : أى باطل . . وأنه يريد أن يختبئ عنده ، ويحضر اليهود حتى يسألهم عنه ، ثم يخرج عليهم . . وقد قالوا عن الحصين : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا) . . فخرج عليهم يقول : يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه . .

فكذبوه وعنفوه . . فاتجه الحصين (عبد الله بن سلام) إلى الرسول عليه

الصلاة والسلام قائلا : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور . .) . . وهكذا أشهر إسلامه وإسلام أهل بيته . .

كذلك فعل الحبر الآخر : (مخيريق) . . وقد خرج يوم غزوة أحـــد ، وكان يوم سبت ، يقول لليهود : يا معشر يهود إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم سبت ، فرد عليهم : لا سبت لكم عندى) . . وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لقومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله . . وقد منحه الله الشهادة . . ويروى بأن عامة صدقات رسول الله فى المدينة منها عليه الصلاة والسلام .

وقد أسلم آخرون . . والبعض منهم كان يظهر الإسلام ويبطن السوء لمن هم على الإسلام بحق . . فكان شرا من الكفار . . لا عهد لهم ولا ميثاق . .

ويؤلف اليهود فى المدينة ثلاثة قبائل : بنو قريظة ، بنو النضير ، بنو قينقاع . . ولم يكن يتجاوبون إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الهادية . . بل إنهم يتناقضون معه ومع ما فى كتبهم من إشارات صريحة وموجهة إلى ضرورة الإيمان بمحمد النبى الخاتم . . صلوات الله وسلامه عليه . . حتى يكونوا من القوم الصالحين . . ولكن تمردهم على الحق سار بهم فى طريق الفساد والضلال . . فهم يتحينون الفرص لنقض (الصحيفة) . . ويتحرشون بالمسلمين غيظا وحنقا من عند أنفسهم . . ومكيدة وحقدا على نبى الإسلام الداعى ، إلى وحدانية الله تعالى . .

وكان ممن أعلن عن مكائدهم : شاس بن قيس ، المعروف بعدائه وطعنه فى المسلمين . . وقد جاء يوما وأوقع بين قبيلتى : الأوس ، والخزرج ، بالحديث عن يوم (بعاث) . . حتى لقد همت القبيلتان بالعودة إلى الحرب . . وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا . . فجاءهم مع بعض صحابته يقول لهم : (يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية تأخذون وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر وألف بين قلوبكم).

وعبث من يهود كثيرون بين المسلمين ، وازدادوا فى الكيد لهم . . فكانوا يحاجونهم بالباطل ، ويجادلون بغير ما فى كتبهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمل فيهم كأهل كتاب أن يثوبوا ويرعووا . . وأن تلين قلوبهم إلى ذكر الله ويسلموا . . وكان إنصافه لهم فى تلك الصحيفة التى كتبها بينهم وبين المسلمين لأكبر دليل على مدى تسامحه ورغبة فى استدراجهم إلى السبيل القويم . . وأحل لهم كما أحل لصحبه الكرام . . كما جاء فى قوله تعالى : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) . .

ولكن يهود ضربت عليهم الذلة ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فهم يجددون فى حين الغدر والمكيدة . . ولكن الله تعالى يكشفهم ، ويدل على أحقادهم وعلى نواياهم وشرورهم التى لا تنتهى . . فمما نزل من القرآن الكريم فى ذلك قوله جل وعلا : (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانهم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) . . إنه سبحانه وتعالى يحذر المؤمنين منهم . . إلى أن قال جل من قائل : (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) . .

وقال تعالى : (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون)

ومن قوله تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) . . إلى قوله تعالى : (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) . .

تلك بعض من الآيات البينات مما كان يوحيه سبحانه إلى رسوله الكريم عليه

الصلاة والسلام . . عن قوم يهــود ، وعن أدوارهم الشيطانية . . وهم لا يفترون في مؤامراتهم ودسهم وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . . حتى قال تبارك وتعالى : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بهــا ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) . . صدق الله العظيم .

ولسوف نعاود بقية البحث حول هذه الفئة الضالة فى فصل تال . . حسبما سرنا عليه وفق التسلسل الزمنى للأحداث عبر التاريخ . .



خلال العام الأول للهجرة

*** ابتدأ التاريخ الهجرى بهذا العام الذي انتقل فيه رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم من موطن بعثته إلى موطن هجرته . . حيث انتشر الإسلام إلى كل آفاق الدنيا . . يهدى الناس إلى نور الحق . . إلى وحدانية الله تعالى . . هدى للعالمين لأول مرة عبر تاريخ الحياة الطويل . .) ***

المؤلف



الأذان بدءًا

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفكر طويلاً في أمر نداء يرفع به الأذان بالدعوة إلى الصلاة . . ولقد كان يعرض عليه البوق الذى يتخذه اليهود ، كما وقد عرض عليه الناقوس الذى يعلن به النصارى لصلواتهم . . فيعرض صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك ، حتى جاءته البشرى فى رؤيا لعبد الله بن زيد بن ثعلبة ابن عبد ربه — أخو بلحارث بن الخزرج — وقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى له عن الرجل الذى أتاه فى منامه يدله على النداء إلى الصلاة (الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله)[1] . . فقال عليه الصلاة والسلام لفوره : (إنها لرؤيا حق) . . وساعتئذ دعا بلال بن رباح ، وهو حسن الصوت رخيمه . . ليدعو الناس إلى الصلاة بهذا الأذان . . وفيما كان عمر بن الخطاب يستمع إليه جاء إلى رسول الله ليخبره بأنه هو نفسه أيضا رأى نفس الرؤيا . فيعلمه صلوات الله وسلامه عليه بأن الوحى قد سبقه إلى ذلك . .

كذلك كان يوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يلهم بالأصوب والأنفع للمسلمين ولرفعة شأن الإسلام . .

ويروى عن عروة بن الزبير عن امرأة من بنى النجار أنها قالت : (كان بيتى من أطول بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة ، فيأتى بسحر ، فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : (اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك) . . قالت : والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة . .

---

(١) كان الأذان مفردا ، ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تثنيته ، وأضاف بلال (الصلاة خير من النوم) فى أذان الفجر — وأقره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأمر بقتال المشركين

أول آية نزلت في القتال — كما روى ابن عباس — حين ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة ، فقال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن) . . فأوحى الله إلى رسوله :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) . .

وفي المدينة أوحى الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بفرض القتال من قاتل المسلمين دون من لم يقاتلهم ، فقال تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . . حتى نزل الأمر بفرض قتال المشركين وأهل الكتاب إلى أن يؤمنوا . . فقال تعالى : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . .

وقال تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . .

ثم نزل الأمر بالجهاد بالمال وبالنفس كما قال تعالى : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

سرايا ثلاث

أما وقد فرض الله جهاد المشركين . . أو يسلموا . . فكان لا بد من الأخذ بزمام المبادرة ، ومقاومتهم على مختلف الطرق وبشتى الأساليب . . ولابد لقريش أن تدرك أن مقاومتها الشرسة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدعوته ولصحابته

وإخراجهم من الوطن الأم . . قد آن أن تنعكس عليها . . فلقد قوى المسلمون ، وأصبحت لهم الهيبة والإمكانيات لفرض السلطات على منافذ الأقطار التى تسلكها قوافل تجار قريش وأتباعها . . سواء وهى مصعدة إلى الشام أو عائدة منها . . وقد غدت حلالا وغنائم للمسلمين كلما أمسكوا بها . . ويكون أصحابها سجناء إذا ما ألقى القبض عليهم ماداموا على شركهم وضلال سلوكهم . .

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأول سرية ، فى شهر رمضان ، مكونة من ثلاثين رجلا من صحابته المهاجرين ؛ بقيادة عمه حمزة بن عبد المطلب ، وقد حمل له اللواء الأبيض : (أبو مرثد) حليفه . . وذلك للتصدى لعير لقريش كانت تمر بالعيص فى ساحل البحر الأحمر فى طريق عودتها من الشام . . وفى محاولة لإضعاف قوة ذلك العدو ، وإثبات وجود القوة الإسلامية الجديدة . . وكان أبو جهل ضمن قافلة قريش التى تبلغ نحو ثلاثمائة رجل . . ولم يحدث قتال بسبب توسط مخشى بن عمرو الجهنى بين الطرفين . . وهو موادع لهما ، وبعد نظره فى عدم الكفاءة الحربية بينهما . .

وعلى ذكر (السرية) فإنها الغزاة التى لا يشترك فيها الرسول عليه الصلاة والسلام . . ويزيد تعدادها على الاثنين . . والغزوة هى التى يشترك فيها صلى الله عليه وسلم قائدا أو موجها للعمليات الحربية كبطل حكيم . .

السرية الثانية

كانت السرية فى شهر شوال حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيش ، تعداده ثمانون رجلا من المهاجرين بقيادة عبيد الله بن الحارث بن عبد المطلب إلى ثنية المرة (ما يسمى الآن برابغ) . . حيث لقريش عير عليها مائتا رجل بقيادة عكرمة بن جهل ، وقد حدث تراشق بالنبال ، ويروى أن سعد بن أبى وقاص أصيب بسهم ، كما فر من بين رجال قريش كل من : المقداد بن عمرو البهرانى

وعتبة بن غزوان ، وهما مسلمان خرجا بقصد المجئ إلى إخوانهما من المسلمين . .
ولم يحدث حرب بين الطرفين . .

السرية الثالثة

فى شهر ذى القعدة ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد بن أبى وقاص فى ثمانية (وقيل عشرين) من المهاجرين . . وذلك لاعتراض قافلة لقريش محملة بالأطعمة ستمر (بوادى الخرار) الذى يصب بالجحفة . . وقد سار سعد بالجيش على الأقدام ، حيث أمضى خمسة ليال حتى وصل ، فوجد أن القافلة قد مرت قبل وصوله بيوم واحد . . فعاد إلى المدينة . .

وكانت قريش قد تنبهت وأصبحت تغير من مسير قوافلها وتضلل عنها . . ولكنها ستجد نفسها فى يوم ما أن كل حيلها وتضليلها لن يجديا أمام التحرك المتصل للرجال الذين كانوا هدف مطاردتها وفنون تعذيبها لهم . .

الإسلام قوة وإرادة وحياة . . ولهذا فالسيادة له ولأتباعه وجنوده : جنود الحق والنخوة والإيمان. والنصر معقود اللواء لهم بقيادة رسول السلام والنور والهدى عليه الصلاة والسلام . . وهو يبنى لهم دولة العدل والحرية . . الدولة الأولى فى التاريخ عبر كل العصور . . لتعيش الأبد ويكتب لها الخلود . . حياة وحضارة وتقدما . . مساواة وروحانية وإيمانا لن يبيد . . (ألا لله الدين الخالص) . . سبحانه وتعالى له الحكم و الأمر ولو كره الكافرون . .

التاريخ الهجرى

النقلة التاريخية من مكة إلى المدينة . . بداية حياة للإسلام الذى أراد له الله تعالى أن ينطلق بعد جمود . . وأن يحمل رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم اللواء الأقدس معلناً الجهاد فى سبيل الدعوة الدينية الخالصة لتوحيد الله جل جلاله . . فلا يسلم الراية إلا بعد أن يسود الإسلام كافة أنحاء المعمورة ، ويبقى بعده إلى الأبد . . ويروى أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذى أشار بأن يؤرخ المسلمون بالعام الأول لهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (المنورة) . .

العام الثاني للهجرة

فرائض .. وقائع وأحداث .. سرايا .. غزوات

قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا

بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ
ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

سورة البقرة (٢) الآية ١٣٦ – ١٣٧

قال تعالى مؤيدا رسوله صلى الله عليه وسلم وصحبه :

(إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) . .

* * *

جرى الاصطلاح على أن تكون بداية التاريخ الهجرى مع مطلع شهر المحرم . . ولهذا ، فإننا نعتمد فى مجرى الأحداث ببداية هذا الشهر عاما جديدا من هجرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . . إلى الوطن الجديد . .

غـــزوة ودان

فى شهر صفر ــ أول غزوة قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هى غزوة ودان . . وقد استخلف على المدينة سعد بن عبادة ، وخرج بجيشه إلى قرية ودان بالأبواء ــ من نواحى الفرع ــ وتبعد عن المدينة بنحو عشرة كيلو مترات . . يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب . . وذلك بقصد اعتراض تجارة لقريش ، وللتأكد من وضع قبيلةبنى ضمرة (من كنانة) . . ولم يجر قتال آنئذ ، حيث لم يدرك الجيش قريشا . . وقد سالم (بنو ضمرة) رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة زعيمهم : مخشى بن عمرو الضمرى ، بأن ينصروه ويكونوا آمنين ، كما أن لهم النصر من المسلمين . .

غزوتا بواط والعشيرة

ما حدث فى غـــزوة ودان . . حدث كذلك فى كل من (غزوة بواط) و (غزوة العشيرة) .. إذ فاتت فرصة اللقاء بتجارة قريش الأولى والتى كانت فى نحو ألفين وخمسمائة من العير عليها أمية بن خلف مع مائة من رجال قريش . . وكانت فى شهر ربيع الأول ، غزوة بواط هذه . . وتنسب إلى اسم جبل من

جبال جهينة بالقرب من ينبع . . وقد حمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص . . وكان معه مائتان من المهاجرين ، وقد استخلف على المدينة : السائب بن عثمان بن مظعون . . أما خروجه صلى الله عليه وسلم إلى غزوة العشيرة بينبع أيضا ، فكان فى شهر جمادى الأولى ، وحمل اللواء عمه حمزة ، ومعه مائة وخمسون من المهاجرين ، وقد استخلف على المدينة : أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى . . ولكنه صلى الله عليه وسلم عقد حلفا مع قبيلة (بنى مدلج) فى العشيرة من بطن ينبع لمناصرته ودعم رجاله فى تلك المواطن . .

غـــزوة سفوان

(سفوان) : وادى فى منطقة بدر . . وتسمى هـــذه الغزوة كذلك ببدر الأولى . . وسببها : أنه ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل المدينة ويمضى بها عشرة أيام ، حتى يفاجأ بإغارة (كرز بن جابر الفهرى) على سرح (مواشى وإبل) المدينة . . مما اضطره إلى أن يخرج فى جمع من صحابته ، لملاحقة المعتدى حتى وادى سفوان ، ولكنه كان قد ولى هاربا مختفيا عن الأنظار . .

حدث ذلك فى أوائل جمادى الثانية ، وكان صلى الله عليه وسلم قد استخلف على المدينة : زيد بن حارثة ، وحمل لواء مسيرته : على بن أبى طالب . .

القبـــلة إلى البيت الحرام

بعد ستة عشر شهرا من وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . وهو يتطلع إلى ربه تعالى يرجوه الوجهة الأفضل ، نزلت عليه الآية الكريمة :

(قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) . .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – فى زيارة لأم بشر بمنازل بنى سلمة بالقرب من (حرة الوبرة) – شمال غرب المدينة وعلى مقربة من الأبواء أيضا . . وقبل الغذاء حانت صلاة الظهر ، فما كاد يصلى ببعض صحابته ركعتين فى اتجاه بيت المقدس ، حتى أوحى الله تعالى إليه بالتوجه فى صلاته إلى شطر الكعبة المشرفة . . لذا سمى ذلك المكان (مسجد القبلتين) [1] . . وقد حدث تحويل القبلة فى منتصف شهر رجب ، ووافق يومئذ يوم الاثنين . . وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرح المسلمون بهذا التوفيق الإلهى ، ليصلوا إلى بيته الحرام ويدعونه تجاهه .

ولقد كان (تحويل القبلة) [2] امتحانا لكل الفئات . . فاطمأن المؤمنون . . كما تقول المنافقون والسفهاء . . وأصاب الغيظ اليهود والكفار . . فراحوا يجددون تنديدهم بالإسلام وبرسوله عليه الصلاة والسلام . . ولكن الإسلام به يتحرك من نصر إلى نصر . . وينتقل من سبيل إلى سبيل أوضح . . بجهد رجاله وبقوة إيمانهم . . وبقيادة وريادة سيدهم القائد الأول محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام . . يمضى على النهج القويم بعناية الله ونصرته . . وعزته لعباده الغر الميامين المؤمنين . . الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

---

(١) هكذا . . وحيث يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل مكان قصده ، جاء من يبنى عليه مسجداً ويسمى بموضعه أو بأسماء بعض الصحابة رضى الله عنهم .

(٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يصلى إلى الكعبة ، ولما هاجر إلى المدينة كان يتجه إلى صخرة بيت المقدس وباجتهاد منه عليه الصلاة والسلام ، (وليكون أقرب إلى تصديق اليهود) – كما قال بعض الرواة . . وقد قال تعالى : (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) . .

فرض الصوم والزكاة

في أوائل شهر شعبان فرض الله تعالى صوم شهر رمضان . . فأوحى سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من سورة البقرة :

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على
الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿١٨٣﴾ أياما معدودات فمن كان
منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية
طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم
إن كنتم تعلمون ﴿١٨٤﴾ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى
للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه
ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم
اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على
ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴿١٨٥﴾ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب
دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴿١٨٦﴾
أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس
لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم
فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى
يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام
إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله
فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴿١٨٧﴾

تشريع الصيام وموجباته ومحظوراته وحدوده كما أجملها الله سبحانه . . ثم أوضحها رسوله صلى الله عليه وسلم فى عديد من أحاديثه . . وقد قام فى آخر يوم من شعبان بمسجده ، يخطب المسلمين قائلا : برواية الصحابى سلمان الفارسى :

(أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم ، فيه ليلة القدر خير من ألف شهر ، جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وهو شهر المواساة ، وهو شهر يزاد فيه رزق المؤمن ، من فطر فيه صائماً كان له عتق رقبة ومغفرة لذنوبه . .

قلنا : يارسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم . قال : يعطى الله هذا الثواب من يفطر الصائم على مذقة لبن أو شربة ماء أو تمرة ، ومن أشبع صائماً كان له مغفرة لذنوبه ، وسقاه ربه من حوض شربة لا يظمأ بعدها أبدا ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شئ ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، ومن خفف عن مملوكه أعتقه الله من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غنى لكم عنهما . . أما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه ، وأما الخلصتان اللتان لا غنى لكم عنهما : فتسألون ربكم الجنة وتتعوذون به من النار) .

وحسب هذا الشهر الكريم أن قال عنه تعالى فى الحديث القدسى : (الصوم لى وأنا أجزى به) . . شهر القرآن والإحسان والطاعات . .

وعلى ذكر الصوم . . فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم صيام يوم عاشوراء (العاشر من محرم) عندما جاء إلى المدينة — وكان (يهود) يصومونه فى الجاهلية لكونه اليوم الذى خلص الله تعالى فيه النبى موسى عليه السلام من جوف الحوت . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نحن أولى بموسى منهم) . . وعندما فرض صيام رمضان ، أصبح صيام عاشوراء سنة ، ثم وردت أحاديث نبوية فى فضل صيامه والصلاة فيه . .

فريضة الزكاة

فى أول شهر صامه المسلمون لأول مرة . . فرضت زكاة المال وزكاة الفطر . . فقد قال تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ثم قال سبحانه : (قد أفلح من تزكى.وذكر اسم ربه فصلى) . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من أعطى زكاة ماله مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله ، عزمة من عزمات ربنا ، ليس لآل محمد فيها شئ) . .

ونسب الزكاة كما وردت بالنص فى موطأ الإمام مالك — قوله :

(السنة التى لا اختلاف فيها عندنا أن الزكاة تجب فى عشرين دينارا كما تجب فى مائتى درهم) . . هذا فى أقل مال تجب الزكاة فيه . . وكلما ازداد زادت بدورها حصة الزكاة بالنسبة عينها . . وتفصيل الأموال فى كتب الفقه والأحاديث واضحة بينة . .

والزكاة كما شرعها الإسلام ، حق الفقير فى مال الغنى . . وهذا أول مطلب للمساواة والعدالة الاجتماعية فى أكمل نظام سماوى على الأرض . .

وعن زكاة الفطر : وهى زكاة البدن . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ، ذكر أو أنثى ، حر ، أو عبد، مدّان من قمح ، أو سواه : صاع من طعام) . . تؤدى للفقراء كما قال صلى الله عليه وسلم : (أغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم) . . أى يوم العيد الذى تؤدى قبله الزكاة . وقد قال تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) . .

واستن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العيد بانقضاء شهر رمضان . . وأوجبها على المستطيع حضورها من الرجال والنساء فكان هـذا أول عيد عرفه المسلمون ، ويحرم فيه الصوم ، كيوم عيد الأضحى . . وصلاة العيد ركعتان بلا أذان أو إقامة ، يكبر فى الأولى سبعا ، وفى الثانية خمس تكبيرات .

ويعتبر يوم الجمعة عيد المسلمين الأسبوعى . . وقد ود فى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا وافق يوم العيد يوم جمعة ، فإن صلاة العيد تجزئ عنها لمن شاء . . أو يصلى الجمعة إذا أراد . .

سرية عبد الله الأسدى (١)

هذه أول سرية تحارب وتعود بمغنم كبير من مشركى قريش .. فقد عقد لواءها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش الأسدى ، بثمانية من المهاجرين (وقيل اثنى عشر) . . وقد أعطاه كتاباً ليأتمر به ، وأن لا يفضه إلا بعد سفره بيومين . . وخرجت السرية إلى طريق مكة ، وعندما فضه فى موعده ، راح يقرأ أمر القائد الأعلى : (إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارهم) . . وإذا بعبد الله يقول : (سمعا وطاعة) . . وأخبر رفاقه بذلك ، وأضاف : (وقد نهانى صلى الله عليه وسلم أن أستكره منكم أحدا ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) . . فصحبه كلهم ، ولم يتخلف فى طريق بحـران سوى سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان ، بسبب فقدهما لبعيرهما ، فراحا يتعقبانه . . وعندما وصل عبد الله الأسدى ورفقته إلى (وادى نخلة) ، مرت بهم كوكبة من عير محملة بتجارة لقريش عليها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان .

---

(١) تعمدنا تأخير الخبر إلى هنا عن هذه السرية ، لأنها كانت الشرارة التى أثارت حفائظ القرشيين للتفكير فى قدومهم بدرا فى رمضان ، وانهزموا .

وبعد تشاور بين الصحب المؤمنين ، وتذكرهم بأن اليوم كان هو آخر يوم في شهر رجب الحرام . . وخشيتهم من إفلات القرشيين بأموالهم ، ومن تأليب بني قومهم عليهم . . استقر رأيهم على محاربتهم والاستيلاء على تجارتهم . . وابتدأ الصحابي واقد بن عبد الله يرشق بالسهم عمرو بن الحضرمي فيرديه قتيلا ، وأسروا كلا من عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان . بينما استطاع رابعهم (نوفل) التخلص والهرب منهم . وقد اعتبر أولئك الثلاثة أول من أسر وقتل المسلمون . . وغنموا الغنـــائم . .

وعاد عبد الله الأسدي ورفقته بالأسيرين والغنائم جميعها إلى المدينة . . وما كانوا يتوقعون اللوم من رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنكاره عليهم القتال في الشهر الحرام ، وقد أبى التصرف فيما حملوه إليه . . وتقولت قريش باستحلالهم للشهر الحرام ، واتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . . حتى أوحى الله تعالى إليـــــه :

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . .

هنالك اطمأن المؤمنون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبشروا . . وراح يوزع عليهم أربعة أخماس الفيء ، وجعل الخمس لله ولرسوله :

وفي هذه الحادثة قال عبد الله بن جحش الأسدي شعرا ، منه هـــذه الأبيات

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدودكم عما يقول محمـــد ... وكفر به ، والله راء وشاهـــد

وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله في البيت ساجد

فإنا وإن عيرتمونا بقتلـــــه وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقــد
دما وابن عبد الله عثمان بيننــا ينازعه غل من القيد عانــــد

ولقد أسلم الحكم بن كيسان ، بينما ظل عثمان بن عبد الله على شركه . . وفى افتدائهما أرسلت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أبى إلى أن يعود سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، فلما رجعا ، أطلق سراح (عثمان) ليلحق بقومه من قريش ، وأقام (الحكم) بين إخوته المؤمنين ، حتى كتبت له الشهادة فى يوم بئر معونة ــ مما سيأتى الحديث عنه . .

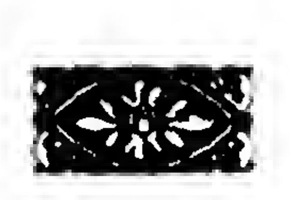


غـــزوة بــدر الكـــبرى

« سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم » **

هكذا نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته المؤمنين إلى هذه الغزوة)

(جعلنا لغزوة بدر فصلا خاصا بها لدورها التاريخى فى النضال الإسلامى . . وكذلك سيكون مع مثيلاتها) .



استكشاف وتوقع

لنبدأ من الخيط الأول فى الرواية . .

فعن ثابت بن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبى سفيان بجيشه ، قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة (الأنصارى) فقال : إيانا تريد يارسول الله ، والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد [1] (أقصى الأرض) لفعلنا . قال : فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ، ووردت عليهم روايا قريش وفيهم غلام أسود لبنى الحجاج فأخذوه ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن أبى سفيان وأصحابه ، فيقول ما لى علم بأبى سفيان ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف . فإذا قال ذلك ضربوه ، فقال أنا أخبركم هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه فسألوه ، فقال ما لى بأبى سفيانٔ علم ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف فى الناس ، فإذا قال هذا أيضا ضربوه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فلما رأى ذلك انصرف وقال : والذى نفسى بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصرع فلان . قال : ويضع يده على الأرض ههنا وههنا قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه سلم . .

ولقد عرفنا من أمر قريش ، بعد سرية (عبد الله الأسدى) . . وحديث النفوس يغلى بحقد قديم ، وقد روعهم ما حدث لقافلتهم مع الحضرمى الذى قتل . . وإذا بأمر مثله كان سيقع وبخسارة أكبر وطعنة قد تكون قاتلة . . فقد خرج كبير الشرك سفيان بن حرب فى رحلة إلى الشام وبتجارة هائلة لقريش ، حتى قيل إنه لم يبق فى مكة من يرسل بمال له معه . . وخلال عودة هذه التجارة الكبيرة بأرباحها

(١) برك الغماد : موضع فى أقصى حجر باليمن .

والتى كان يقوم عليها أكثر من ثلاثين رجلا من كبار قريش : كعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وأبى جهل بن هشام وعتيبة وشيبة ابنى ربيعة وزمعة بن الأسود وغيرهـــم . .

وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعودة القافلة ، فأهاب بالمسلمين : (هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها) .

واستجاب البعض للنداء ، وتثاقل البعض الآخر ، وفى ظنهم أنهم لن يجدوا حربا كما عرفوا من قبل . . وقد حدث هذا فى الوقت الذى كان فيه أبو سفيان قد وصل إلى الحجاز وهو يستطلع الأخبار من الركبان ، ثم بلغه تحرك المسلمين بقصد تجارته وعيره ، الأمر الذى جعله يأخذ بالحيطة ، ويرسل إلى مكة ضمضم ابن عمرو الغفارى ينادى فى قريش يستنفرها إلى أموالها . . بدعوى أن الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته قد تعرضوا لها واستلبوها . . بينما العير قد واصلت سيرها بسلام إلى مكة .

من هنا اشتعل الفتيل فى شعاب مكة . . وخرج الناس يزمجرون ويتجمعون لإنقاذ أموالهم . . وما حسبوا أنهم يتنادون إلى مصارعهم على الرمال . .

إلى منطقة بدر

سرعان ما استجاب القوم فى قريش إلى نداء أبى سفيان تريد الانتقام ، وعبأوا جيشاً قوامه يقترب من الألف محارب . وفيهم من أشرف رجالاتها وكبارها وهم يحلمون أن تكون هذه فرصتهم لكسر المسلمين . . بل ولإيقاف إمامهـــم عن تحقيق غاياته النبيلة . . ويخرجون على نحو سبعمائة من الإبل ومائة من الخيل قاصدين منطقة بدر . . وكان أبو سفيان قد أعلمهم بسلامة التجـــارة . . غير أن أبا جهل فى مقدمة من كان يدعو إلى الحرب والنقمة ، فكان يشد من معنويات القرشيين على الرغم مما قد حدث بينهم من تنازع ومن تغاير فى الأفكار وصل

إلى حد الصراع بين قريش وبين بنى كنانة . . ولكنهم أجمعوا أمرهم لهـــذه الحرب وهم لا يعلمون أنهم ينساقون إلى حتوفهم ، بيد القلة المؤمنة — كما شاء الله — وانتصر لجنده ولعباده المؤمنين . . رضى الله عنهم . .

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروج جيش قريش . . فتأهب وأعد جيشا قوامه ثلاثمائة وأربعة عشر فارسا : ثلاثة وثمانون من المهاجرين ، والباقون من الأنصار — الأوس والخزرج — الذين أظهروا ولاءهم وفـــدائيتهم وحسن نواياهم ، مما أدخل السرور على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومنهم نذكر : عمه حمزة ، وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر وعمر بن سراقة وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون والزبير بن العوام ومالك ابن مسعود . . وغيرهم . .

وقد استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة للصلاة بالمسلمين عبد الله بن مكتوم . . وخرج بجنده يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان . . وكانوا على سبعين فقط من الإبل ، وقد كان معظم الذين ركبوا : كل ثلاثة على بعير . . تتقدمهم رايتا رسول الله السوداوان ، وحملهما كل من على بن أبى طالب وسعد ابن معاذ ، كما حمل لواءه الأبيض مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف . .

وسار جند الإيمان سالكا طريق وادى العقيق إلى ذى الحليفة ، فإلى الروحاء . . فعرق الظبية ، حتى يمين الطريق المؤدى إلى بدر ، فى اتجاه قرية الصفراء (وهى بين جبلى مسلح ومخرئ) . . حيث توقف الجند ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من بسبس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزغباء ، يستجليان له الأحوال حول تلك المنطقة إلى بدر . . وليعرف مدى القوة التى أتت بها قريش واستعداداتها المتوقعة . . ثم نزل بصحبة المسلحين إلى وادى ذفران حيث اتخذ به مستقرهم . . للراحة ولانتظار النتائج . . وما يمكن أن يتخذونه من إجـــراءات عـــلى ضوئهـــا . .

المشـــورة الأخــيرة

بلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنباء الجيش والعتاد الكبيرين ، وقد خرجت بهما قريش مستأسدة واجدة . . فراح يعرض الأمر على أصحابه يستشيرهم فى وضع لم يكن فى الحسبان .. ويسبر فى الوقت نفسه أغوارنفوسهم ويستجلى ما تبطن من مشاعر ودوافع . . وحتى لا يتخذ من عمل إلا بعد الإحاطة بآراء جنده وصحبه

ولقد أشار أبو بكر وعمر عن فدائية القوم وحسن بلائهم . . حتى قال المقداد ابن عمرو : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه . .

وفى مشاعر غبطته صلى الله عليه وسلم يتجه إلى الأنصار : (أشيروا على أيها الناس) . . فإذا بسعد بن معاذ يبادره قائلا بروح المؤمن الصادق : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ، فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . .

وهكذا كانت مسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كبيرة بحزب الله : أنصاره ومهاجريه . . فلقد كان يبعث بالسرايا من المهاجرين دون الأنصار . . وقد وثق الآن بجميعهم . . أسرة واحدة متشابكة ، وحد الإيمان نظرتهم ونواياهم . . فهم جند الإسلام المصلحين العاملين من أجل نصرته ، المندفعين معه إلى كل ميدان : الحياة أو الشهادة . فإذا به عليه الصلاة والسلام ينادى فيهم :

(سيروا . . وأبشروا ، فإن الله تعالى وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر الآن إلى مصــارع القــوم) . .

فى ساحة المعركة

ويترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيشه وادى ذفران ، ويتجه إلى بلدة (الدبة) . . جاعلا يمينه إلى كثيب الحنان العالى ، وينزل بالقرب من بدر حيث حلت الرحال . . ثم يخرج صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر على راحلة تقف بهما إلى شيخ عربى ، ذكر أنه (سفيان الضمرى) يستفسران منه بطريقة المواربة ، عما يعرفه عن قريش وعن محمد وأصحابه ، حتى يفهما منه الموقع الذى يحتمل أن تكون قد نزلت فيه قريش من تلك المنطقة . . ثم يقفلان عائدان إلى مستقر جنــد الإسلام .

وفى المساء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعاً من صحابته على رأسهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص يتحسسون الأخبار عند ماء بدر ، حيث وجدوا عنده الغلام الذى ورد ذكره فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى افتتحنا به الحديث عن هذه الغزوة الهامة . .

وإذ عرف صلى الله عليه وسلم بوجود صناديد قريش وكبارها ، توجه إلى جنده يقول لهم بصوت عال : (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها) . .

وكان قد عاد (بسبس وعدى) رسولاه السابقان ليخبراه بما سمعاه عن وصول عير قريش إلى منطقة بدر التى كان بها سوق العرب تستمر ثمانية أيام . . وقد نزلوا وراء الكثيب المتراكم (العقنقل) بجيش أحسن إعداده .. وما كاد يبصر صلى الله عليه وسلم هــذا الجمع الهائل من قريش حتى اتجه إلى ربه تعالى يدعوه التأييد قائلا : (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك (تعاديك) وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ،اللهم أحنهم — أهلكهم — الغداة).

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأى الحباب بن المنذر بن الجموح . حيث انتقل بالجند المسلم إلى ماء بدر . . يبتنون عليه حوضا يشربون منه ، ثم هم يمنعونه ويحجزون عن قريش مصادره . . كما وأخذ صلى الله عليه وسلم برأى سعد بن معاذ فى أن يبنوا له عريشا كخيمة يستظلها ، وهم حولها يقاتلون عدوهم الذى كان يرسل — هو بدوره أيضا — رسله للتعرف على مدى استعداد جيش المسلمين وتعـــداده . .

وساد الجدل بين زعماء قريش . . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رأى بينهم عتبة بن ربيعة على جمل أحمر . قال عنه : (إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا) . .

فقد كان عتبة ينصحهم بالرجوع عن الحرب . . وقد جاء إليه الوليد بن حزام يقول له : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش ، وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها إلى آخر الدهر ؟ قال . وماذا يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى ، قال : قد فعلت أنت على بذلك إنما هو حليفى ، فعلى عقله من ماله ، فأت ابن الحنظلية[1] . .

واتجه عتبة بن ربيعة إلى قومه ينادى فيهم : (يامعشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه الرجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، ورجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون) . .

النـــداء للحـرب

ويستكمل الرواة : بأن حكيم بن حزام قصد إلى أبى جهل — الذى كان ساعتئذ يثقف درعه — يصدقه المشورة ويبلغه ما قاله عتبة . . فما كان منه إلا أن

(١) الحنظلية : أسماء بنت مخربة من بنى نهشل ، وهى أم أبى جهل بن هشام .

اشتط ، وقال : كلا ، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه

وقام أبو جهل يشعل الفتنة بأن نادى عـلى عامر الحضرمى (أخى عمرو المقتول) يثيره ويدعوه إلى الأخذ بالثأر . . فراح هذا يصرخ : واعمراه ، واعمراه

وتنادى القوم بالحرب . . وتقدم الأسود بن عبد الأسد المخزومى يحلف بأنه ليردن حوض الماء ويشرب منه أو ليهدمنه أو يقتل دونه ، وتصدى له حمزة بن عبد المطلب فقتله عند الحوض . . وبرز ثلاثة من الأنصار : عبد الله بن رواحة وعوف ومعوذ ابنا الحارث . . ولكن قريشا تستهين بهم وتنادى طالبة الأكفاء . . فيدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث . . للتصدى لثلاثى قريش : شيبة بن ربيعة ،والوليد بن عتبة وعتبة بن ربيعة .. فقتلوهم .. وأصيب من الثلاثى المسلم : عبيدة بن الحارث بضربة أقعدته ، فسحبه صاحباه بعد أن أجهزا على عتبة . . واشتعل القتال بضراوة . .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم جنده أن لايتقدموا حتى يأمرهم ، وأن يرموا العدو بالنبال . .

حدث هذا صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان . . ويوافق هذا اليوم أول يوم نزل فيه القرآن قبل أربعة عشر عاماً . .

بشائر النصر

وما كاد يضحى النهار ، حتى يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عريشه . . يسوى صفوف جنده ، ويستوصيهم ويبشرهم ، ثم يعود إلى مكانه ومعه أبو بكر الصديق . . ويظل يدعو الله تعالى بالتأييد والنصرة على الكفر والكفرة . . ومما دعا به قوله : (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد) . . فقال له أبو بكر : (يانبى الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك) . . وهوم

صلى الله عليه وسلم بما يشبه الإغفاء . . ثم تنبه وهو يقول : (أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع) أى الغبار . .

وخرج صلى الله عليه وسلم إلى جنده يحثهم فى الاستبسال ، ويقول : (والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنــــة) . .

فتسابق جند المسلمين القلة ، وقد كثرهم الله فى أعين عدوهم ، كما قلل عدوهم فى أنظارهم . . وقد اشتركت الملائكة بإذن الله معهم فى هذه المعركة . . وإلى هذا تشير الآيات الكريمة فيما قاله سبحانه وتعالى يروى عن واقعها : إلى رسوله الكريم : (وإذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولــو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذا التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمـــور) . .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب مــن الله) . .

ويشرح سبحانه حقيقة الموقف بعد أن أهاب بجند الإيمان ، فقال تعالى :

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) . .

صدق الله وعده . . وانتصر لدينه ولنبيه وللمؤمنين . . وقد أهلك على أيديهم زعماء للكفر وقادة من قريش . . هزيمة ما كانوا يتوقعونها . .

نتائج المعركة

كانت ضحايا المشركين قد بلغوا سبعين قتيلاً من قريش الباغية . . فيهم كبارها من أمثال : أبو جهل ، أمية بن خلف ، البختري بن هشام ، حنظلة بن أبي سفيان ، زمعة بن الأسود ، نبيه ومنبه ابنا الحجاج . . لقوا مصرعهم أذلاء . . كما كان أسراهم سبعين أيضا . . . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يلقى قتلى المشركين في قليبْ (بئر) ويردم عليهم . . وقد روى عن أنس بن مالك قال : سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله من جوف الليل ، وهو يقول : يا أهل القليب . . ياعتبة بن ربيعة وياشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام — وعدد من كان منهم في القليب — هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا . . فقال المسلمون : يارسول الله أتنادي قوما قد جيفوا : فرد عليهم قائلاً : (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني) .

وأنشد حسان بن ثابت قصيدة — منها :

فدع عنك التذكر كل يوم ... ورد حرارة القلب الكئيب

وخبر بالذي لا عيب فيه ... بصدق غير إخبار الكذوب

بما صنع المليك غداة بدر ... لنا في المشركين من النصيب

إلى أن قال :

فغادرنا أبا جهل صريعاً ... وعتبة قد تركنا بالجبوب

وشيبة قد تركنا في رجال ... ذوي حسب إذا نسبوا حسيب

يناديهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب في القليب

ألم تجدوا كلامي كان حقا ... وأمر الله يأخذ بالقلوب

فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذا رأي مصيب

هذا وكان الشهداء من المسلمين أربعة عشر صحابيا — رحمهم الله ورضى عنهم — ومنهم : عبيدة بن الحارث الذى توفى متأثرا بجراحه فى الطريق بالصفراء . . وحارثة بن سراقة وعمير بن أبى وقاص ورافع بن المعلى وعوف ومعوذ ابنا الحارث وعفراء . . (عند ربهم يرزقون) . .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ببشريات النصر إلى المدينة — كلا من عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة . . ثم خرج من بدر بصحابته ، يسوقون أمامهم الأسرى والنفل (الغنائم) . . وفى الطريق بعــد أن تجاوزا وادى الصفراء ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوزع عليهم النفل بالقسطاس ، واحتسب بأسهم للشهداء ولمن عاقهم عن حضور المعركة أسباب قهرية : كالعاصم بن عدى الذى استخلف على أهل قباء ، وعثمان بن عفان الذى كان بمرض زوجه (رقية) ، ومعه أسامة بن زيد الذى قال : عندما سمع بانتصار المسلمين : (فأتانا الخبر ، حينما سوينا التراب على رقية ابنــة رسول الله صلى الله عليــه وسلم التى كانت عند عثمان بن عفان) . .

عن النفل والفداء

قال الله تعالى : (يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) . . نزلت هذه الآية الكريمة بعد اختلاف المسلمين فى ذلك . . وقد روى عن عبادة بن الصامت أنه قال عن الأنفال : (فينا معشر أهل بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل يوم بدر ، فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا ، فرده على رسوله صلى الله عليه وسلم فقسمه بيننا عن بواء) أى على سواء .

بالنسبة لأسرى المشركين ، فقد استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أشار به أبو بكر الصديق بالأخذ بالفداء . . وكان قد فرقهم بين صحابته وهو يقول لهم : (استوصوا بالأسارى خيرا) . . وعرف آنئذ تقدير ثمن الفداء للأسير الواحد بين أربعة آلاف إلى ألف درهم إلا من ليس يمتلك شيئا . .

ولأن كلا من النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط كانا من أشد الناس إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ، فقد جرى قتلهما فى الطريق إلى المدينة . . قتل الأول : على بن أبى طالب ، وقتل الثانى : عاصم بن ثابت (أخو عمرو بن عوف) . . وكان من بين الأسرى : العباس بن عبد المطلب ، وأبو عزيز ابن عمير ،وأبو عزة الجمحى الشاعر ، وعمرو بن أبى سفيان ، وسهيل بن عمرو ، وأبو العاص بن الربيع الذى افتدته زوجه زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وغيرهم من رجالات قريش التى ولولت وناحت بمكة على قتلاها . . وكان فى كل بيت مأتم . .

وقد شعروا بأن كفتهم آخذة فى الانحدار ، وبأن المسلمين تشتد قوتهم ، وتزداد أعدادهم بقلوب عامرة بالإيمان والتضحية . . وبنفوس مطمئنة مليئة بالثقة والعزيمة . . ولها من القدرة الروحية ما يمكنها من التصدى لأى عدوان ، ومن دحر كل اعتداء أو تآمر . . فأصبح بذلك المؤمنون قد أخذوا بزمام المبادرة ولن تتراجع خطاهم .

ولقد أورد القرآن الكريم العديد من الأحداث التى وقعت فى بدر . . كقوله تعالى فى موضوع فـــداء الأسرى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) . . وخطاب آخر من الله تعالى إلى نبيه الكريم : (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم) . . إلى غير هذه الآيات التى كانت تروى ما كان من أمـــر المشركين المعتدين ، ومن صلابة الجبهة المؤمنة الملتفة حول عقيدتها ورسولها العظيم . . صلوات الله وسلامه عليه . .

حديث الشعر

من عادة العرب أن يؤرخوا أحداثهم بالشعر . . ومعركة كبدر لابد وأن لها دويا كبيرا فى الأنفس والأحاسيس . . سواء عند المنتصر أم حتى عند المهزوم الذى ينعى ويستثير قومه على الانتقام . .

وهنا نستأنس بقصيدة لحسان بن ثابت – قبلا – . . ونقتطف منها بعض الأبيات يشيد ويستذكر ويفاخر بقومه المؤمنين . . قال رضى الله عنه :

من مبلغ عنى الرسول محمــدا ... بأنك حــق ، والمليك حميــد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى ... عليك من الله العظــيم شهيــد
وأنت امرؤ بوئت فينــا مباءة ... لها درجات سهلة وصعــود
فإنك من حاربتـــه لمحــارب ... شقى ومن سالمتــه لسعيــد
ولكن إذا ذكرت بدراً وأهلــه ... تأوب مابى : حسرة وقعود

وعن المعركة قال حسان :

قومى هم الذين آووا نبيهم ... وصدقوه ، وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هم سلف ... للصالحين مع الأنصار أنصــار
مستبشرين بقسم الله قولهــم ... لما أتاهم كريم الأصل مختــار
أهلا وسهلا ففى أمن وفى سعة ... نعم النبى ونعم القسم والجــار
فأنزلوه بدار لا يخــاف بها ... من كان جارهم دارا هى الدار
وقاسموهم بها الأموال إذ قدموا ... مهاجرين وقسم الجــاحد النار
سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لويعلمون يقــين العلم ما ساروا
دلاهم بغرور ثــم أسلمهــم ... إن الخبيث لمــن والاه غــرار
وقال إنى جار لكم فأوردهم ... شر الموارد فيه الخزى والعــار
ثم التقينا فولوا عن سراتهــم ... من منجدين ومنهم فرقــة غاروا

وهذه صورة أخرى يقدمها حسان عن قتلى قريش :

لقد علمت قريش يوم بــدر ... غداة الأسر والقتــل الشديــد
بأنــا حين تشتجر العـــوالى ... حماة الحرب يوم أبى الوليد

قتلنا ابنى ربيعـــة يـــوم سارا　　إلينا فى مضاعفـــة الحديـــــد

وفر بها حكيم يـــوم جـــالت　　بنو النجار تخطـــر كالأسود

وكما رثى شعراء المسلمين شهداءهم وافتخروا بنصرهم الساحق . . كذلك قام فى قريش النعاة والندابون فى صرعى رجالهم . . ونجتزئ هنا ببعض القول . . فمن قصيدة لأمية بن أبى الصلت — نذكر هذين البيتين عن الحال فى مكة :

ألا تـــــــرون لمـــــا أرى　　ولقـــد أبـــان لكـــل لامـــح

أن قـــد تغـــير بطـــن مكـــ　　ــــة فهى موحشة الأبـــاطـــح

وهذه أبيات أربعة من قصيدة لمعاوية بن زهير بن قيس المخزومى يصف جانبا من هزائمهم قال :

ولما أن رأيت القـــوم خفـــوا　　وقد شالت نعامتهـــم لنفـــــر

وإن تركت سراة القوم صرعى　　كأن خيارهم أذبـــاح عـــتر

وكانت جمة وافت حمـــامـــا　　ولقينـــا المنايـــا يوم بــــدر

نصد عن الطريق وأدركونـــا　　كأن زهـــاءهم غطيان بحـــر

* * *

الفوز بالإيمان

لقد كانت معركة بدر ، فاتحة خير للإسلام وللجند المؤمنين الذين شاركوا في القتال بقوة الإيمان . . وقال الله تعالى عنهم ولهم :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) . . أى قليلين مستضعفين . .

ولأنها الغزوة الأولى ، كانت بحق الفأل الحسن الذى استبشر به كل مسلم . . كما كانت عبرة للكثير من القبائل المشركة . . بل وعلامات مضيئة فى طريق الدعوة الإسلامية . . حتى لقد دخل الرعب فى معظم تلك النفوس التى ظلت تكابر وتستهين بالدين الجديد ، وتأبى التوحيد لله تعالى ، وهى تقاوم وتتشدد فى صرامتها مع رسول الهدى والرحمة عليه الصلاة والسلام ومع أصحابه المؤمنين . .

بتوفيق من الله وتأييده تحقق النصر ، مع القيادة الحكيمة التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المعركة . . فجعل لجيشه ميمنة عليها : الزبير بن العوام ، وميسرة عليها : المقداد بن عمرو الكندى ، ومؤخرة عليها : قيس بن أبى صعصعة كما جعل قيادة كتيبة المهاجرين لعلى بن أبى طالب ، وكتيبة الأنصار لسعد بن معاذ مما حفظ التماسك لجنوده صلى الله عليه وسلم . . وائتمارهم بتوجيهاته العسكرية . . وحرصهم على الشهادة أو النصر . . وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء المعركة : (لن تقوم للشرك بعد اليوم قائمة فى الجزيرة العربية كلها) . .

وسمى يوم بدر : يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان . . كما ورد فى القرآن الكـــريـــم . .

* * *

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ
إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾

سورة آل عمران (٣) الآية ١٨٣

سرية عمير

المتعارف عليه أن السرية ما زاد على واحد . . غير أن مؤرخى السير جعلوا هذه الحادثة ضمن ما سجلوه من السرايا التى ترسل لأداء مهمة حربية أو تطويع أناس مردوا أو خرجوا على المسلمين . .

فعمير بن عدى الخطمى الضرير كان يعرف عن المرأة اليهودية (عصماء) بنت مروان) وزوجة يزيد بن زيد الخطمى . . يعرف مدى عدائها للإسلام . . وكانت تعيبه ، وتؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحرض عليه بقول الشعر . . وقد سمعها عمير وهى تهجو المسلمين خلال المعركة فى بدر . . فنذر إذا عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من بدر ليستأذنه فى قتلها . . وقد بر بنذره حال ما وصل صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . فذهب إليها فى منتصف الليل وهى نائمة بين أولادها . . فتحسس مكانها ، وتمكن من طعنها بسيفه حتى أخرجه من ظهرها . . وهب يسرع ليدرك صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسجد . . رضى الله عنه . .

وحدث هذا فى شهر رمضان كذلك . .

غزوة بنى سليم

فى شهر شوال ، ولم يمض على عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر أكثر من أسبوع حتى خرج فى جمع من صحابته يريد غزو بنى سليم . . وذلك بعد أن استخلف على المدينة : سباع بن عرفطة الغفارى ، وللصلاة : عبد الله بن أم مكتوم وحمل لواءه الأبيض : على بن أبى طالب . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل ومن معه بماء لبنى سليم يدعى (الكدر) ويبقى به ثلاثة أيام . . ولم يعترضه أحد بحرب ، إلا أنه وجد من غنائمهم نحو خمسمائة بعير . . فاستاقها صحابته ، ولما بلغوا موضع (ضرار) قسمها بين الغازين معه . . ثم اتجهوا إلى المدينة .

قتـال اليهود

قال الله تعالى يحدث عنهم :

(ولمـــا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) .

** وروى عن جابر بن عبد الله يقول : أخبرنى عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما) .

* * *

غزوة بنى قينـقاع

فى شهر شوال أيضا . . وقد روى عن أبى هويرة قال : بينا نحن فى المسجد إذ خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : انطلقوا إلى يهود . فخرجنا معه حتى جئناهم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداهم فقال : يا معشر يهود أسلموا تسلموا ، فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ذلك أريد . فكررها عليهم ثلاثاً وهم يجيبون . ثم قال : (اعلموا إنما الأرض لله ورسوله وإنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله) .

وقد أخبر الله تعالى رسوله الكريم عن حال يهود فى عديد من الآيات ، ثم قال سبحانه : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) .

وقد ظلوا يتحرشون بالمسلمين ، ويظنون أنهم بحلفهم سيدوم لهم سوء عملهم . . وحدث فى يوم أن عمد بعض تجارهم بسوق بنى قينقاع إلى الإساءة لامرأة مسلمة ذهبت تبيع ذهباً لصائغ ، فحاولوا معها أن تسفر أمامهم . . فأبت عليهم ،

فراح الصائغ يشبك طرف ثوبها من الخلف ، حتى إذا ما مشت وانكشفت وبانت سوأتها ، فتضاحكوا عليها . . ولم يتمالك أحد المسلمين أن يرى هذا العبث ويسكت . . فقام وهجم على الصائغ اليهودى وقتله . . فتجمهر عليه بعض اليهود وأخذوا بالثأر وقتلوه . . وهب أهل القتيل المسلم يستصرخون إخوانهم المسلمين على يهود . . وقد طفح الكيل ، ولابد من عمل حاسم ضدهم . .

وجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء يهود بنى قينقاع فى سوقهم وقال لهم : (يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا) . . . وحذرهم مغبة الغدر والاعتداء والاستمرار فى الخروج على العهد . . فواجهه بعضهم باستهزاء يقولون له : يامحمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش ، وكانوا غماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وإنك لن تلقى مثلنـــا) . .

وكان مولاهم عبد الله بن أبى بن سلول يقرهم على تعنتهم هذا . . وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالبه بالإحسان إليهم ، حتى لقد أدخل يده فى جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ : أربعمائة حاسر (من غير درع) وثلاثمائة دارع منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى امرؤ أخشى الدوائر . . فقال له صلى الله عليه وسلم : هم لك .

ونزلت الآية الكريمة : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) . . ثم قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهـــم نادمـــين) . .

وتم التجهيز لغزوهم . . فبعد أن استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة : بشير بن عبد المنذر . . قصد بجنده إلى (يهود بنى قينقاع) وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، وقد حمل الراية البيضاء : حمزة بن عبد المطلب . .

ثم جاء عبادة بن الصامت يبرأ إلى الله من حلف يهود ولايتهم . . وما لبثوا بعد حصارهم الطويل أن خافوا من الهلاك المنتظر ، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلوا عن المدينة بذراريهم ونسائهم ، على أن يتركوا أموالهم ، وفيها سلاح كثير . .

وعلى هذا وافقهم صلى الله عليه وسلم ، وجعل عبادة بن الصامت ومحمد ابن مسلمة يتعقبان أمر رحيلهم من المدينة إلى غير رجعة . . وذلك خلال ثلاثة أيام ، فرحلوا إلى مكان بالشام . . ولم يمض عام نحو العام حتى أصابهم الله بالفناء جزاء وفاقا . .

سرية سالم الأنصارى

فى أواخر شهر شوال تم قتل اليهودى الشاعر أبا عفك . . فقد كان يهجو المسلمين ، ويحرض الناس على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد قال عليه الصلاة والسلام لبعض صحابته : (من لى بهذا الخبيث) : . . فسارع سالم ابن عمير الأنصارى يقول : (على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه) . . وبهذه الروح الفدائية المغامرة حمل سيفه سالم فى ليلة صائفة ، وقصد إلى فناء دار أبى عفك حيث ينام وأغمد سيفه فى صدره ، فأراح منه ، وأوفى نذره رضى الله عنه . .

غزوة السويق

قبل الحج . . وفى أوائل الشهر . . بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعله جند لأبى سفيان ، جاءوا فى صحبته بناحية العريض — شمال المدينة — .

حيث قاموا بإحراق بعض النخيل وقتلوا أحد الأنصار (قيل إنه معبد بن عمرو الأنصارى) ، وحليفاً لهم فى مكة . . ثم فروا هاربين . .

ذلك أن أبا سفيان فى موقفه مع المنهزمين بمعركة بدر ، نذر أن لا يمس الماء رأسه حتى يغزو محمدا صلى الله عليه وسلم . . فصحب معه مائة رجل ، ونزل فى بنى النضير على سيدهم (سلام بن مشكم) الذى أضافه مع رجاله ، ثم بعث منهم من جاء العريض واستفزوا القوم بفعلتهم النكراء تلك . .

وتأهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقاء المعتدى . . واستخلف على المدينة : بشير بن عبد المنذر (أبا طبابة) ، وخرج ببعض صحابته حتى وصل بهم إلى (قرقرةالكدر) على بعد ثمانية برد [1] بناحية المعدن ، وكان أبو سفيان وجنده قد رحلوا ، وتركوا الكثير من جرب السويق ، لعلهم ألقوها تخففا للرحيل العاجل ، وخشية من أن يصيبهم ما أصاب قومهم يوم بدر . . ولذلك سميت هذه الغزوة بغـــزوة السويق . .



(١) أى تسعين ميلا .

العام الثالث للهجرة

** سرايا .. وغزوات

** تحريم الخمر والربا

« حرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله . .

وحرمت النار على عين دمعت من خشية الله . .

وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله . . »

** حديث شريف **

* * *

سرية لقتل ابن الأشرف

روى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله) . .

فقام محمد بن مسلمة وقال : يارسول الله أتحب أن أقتله ، قال : نعم ، قال : فأذن لى أن أقول شيئا ، قال : قل ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال : قد سألناه صدقة وإنه قد عنانا ، وإنى قد أتيتك أستسلفك ، قال : وأيضا والله لتملنه . قال: أنـــــا) . .

وكعب بن الأشرف شاعر محالف ليهود . . كان يحرض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر ، ثم يؤذى المسلمين بالتشبيب بنسائهم . . حتى انتدب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من : محمد بن مسلمة ، وسلطان ابن سلامة بن وقش ، وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس بن معاذ . . وبعثهم يحتالون على قتله فى منتصف شهر ربيع الأول . . وكانت له وجاهة من مظاهر الغنى والترف . . حتى تمكنوا من الفتك به ، وإزالة أذاه عن المسلمين . .

ولم يفت حسان بن ثابت أن يشير فى شعره إلى مقتل (ابن الأشرف) ومقتل يهودى آخر هو : سلام بن أبى الحقيق [1] فقال :

لله در عصابـــة لاقيتهـــــم ... يابن الحقيق وأنت ياابن أشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحاً كأسد فى عرين مغرف
حتى أتوكم فى محل بلادكم ... فسقوكم حتفاً ببيض ذفـــــف
مستنصرين لنصر دين نبيهـــم ... مستصغرين لكل أمـــر مجحف

---

(١) قتله الخمسة الذين انتدبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم برئاسة عبد الله بن عتيك ، والسرية تسمى به . . وابن الحقيق تاجر بخيبر ، آذى المسلمين وحرض على قتالهم العديد من القبائل .

غـــزوة غطفان

في الثلث الأخير من شهر ربيع الأول ، تحرك جمع من بنى ثعلبة وبنى محارب من قبائل غطفان فى الشرق ، بقصد الإغارة على المدينة . . ووصلت أنباؤهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسارع بالإعداد والخروج إليهم فى ديارهم مع أربعمائة وخمسين فارساً . . بعد أن استخلف على المدينة : عثمان بن عفان . .

وما كاد صلى الله عليه وسلم يصل بهم إلى موضع يدعى ماء (ذا أمر) حتى رأى الجمع قد تفرقوا وهربوا إلى الجبال . .

بينما هم قد واجهتهم أمطار غزيرة ابتلت لها الثياب . . وتحت ظل شجرة كان صلى الله عليه وسلم يخلع ثوبيه ليجفا على الشجرة وهو ينام تحتها . . فتلصص عليه من يسمى (دعثور) من رؤساء بنى ثعلبة ، حتى فاجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له ، وهو مشهر سيفه أمامه : من يمنعك منى اليوم . فيرد عليه بكل طمأنينة : الله . فإذا بسيفه يسقط من يده ، ويحس بمن يدفع به إلى الخلف فيوقعه . . فينهض ويقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن إسلامه ، وقد هداه الله ، ثم يذهب إلى قومه يدعو إلى الإسلام ، فتصلح أحوالهم ، وقد أصبحوا من جند الله الداعين لدينه القويم . . المناصرين له .

وتسمى هذه الغزوة كذلك بغزوة (ذى أمر) . . وقد عاد صلى الله عليه وسلم وجيشه إلى المدينة مع آخر الشهر ، فرحين بمن هداهم الله للإسلام . .

غـــزوة بحـــران

مع أوائل شهر جمادى الأولى ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنباء عن تحرك جمع من بنى سليم لغزو المدينة . .

فبادر صلى الله عليه وسلم وأعد جيشا فى ثلاثمائة فارس ، وخرج بهم لرد الغازين قبل هجومهم ، وذلك بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم . . وما

كاد يصل بجيشه إلى (بحران) بالفرع من أكبر ضواحى المدينة ، حتى كانوا قد تشتتوا ورجعوا عن نواياهم . . فعاد صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى المدينة . . وكلهم عيون تترصد بأى معتد أو غـــاز ليلاقى جزاءه ومصيره ، أو يسلم فيأمن على نفسه وأمواله وأهلـــه .

سرية زيد بن حارثة

عمدت قريش إلى إرسال تجارتها للشام عن طريق العراق ، بعد أن تأكد لها أن السيطرة على طريق المدينة أصبح بيد أهلها ، وخاصة بعد هزيمتهم – أى المشركين – فى بدر . .

وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر هذه التجارة الجديدة الكبيرة التى وفرت لها قريش عدداً من كبارها لحمايتها ، وكان منهم : أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وسواهما . . وقد استأجروا (فرات بن حيان العجلى) يرشدهم الطريق إلى (ذات عرق) فى اتجاه العراق.. وتحوى التجارة الفضة والأموال المختلفة.

فأرسل صلى الله عليه وسلم سرية مكونة من مائة صحابى برئاسة زيد بن حارثة . . فكمنوا للتجارة فى موضع بنجد يدعى (القردة) قريبا من ذات عرق . . وقد صح لهم ما أرادوا ، فما كادت تصل القافلة حتى هاجموها وأسروا (فرات بن لحيان) ، وهرب من كانوا عليها . . فاستولوا على كامل التجارة واستاقوها إلى المدينة حيث عرف بأن خمسها بلغ عشرين ألف درهم . . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأسير فرات : (إن تسلم تترك) . . فأعلن إسلامه.

وهكذا مع الأيام تتزايد هيبة الجند المسلم ، وتصبح لهم المكانة المرجوة بالسيادة والسيطرة على بقية الجزيرة العربية حتى يسود السلام والإسلام . .

غـــزوة أحـــد

قال تعالى :

** (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) . .

هكـــذا أخـــبر الله سبحانـــه نبيـــه الكريم عليه الصلاة والسلام بأمـــر قريش واستعدادها . .

* * *

قريش تتآمر

بعد هزيمة قريش فى بدر ، لم يستقر لها قرار . . فرجالها وقادتها فى هـــم وتفكير كبيرين ، يريدون أن ينتقموا وأن يستعيدوا ماضى هيبتهم التى لن تعود — لو كانوا يعلمون — وإنهم ليكابرون حتى أمام الحق الذى يدمغهم . .

لهذا كانوا يستعدون ويجهزون ليوم يحلمون فيه بأمر بعيد الاحتمال . . فكونوا جيشا تعداده ثلاثة آلاف مقاتل ومائتين من الخيل . . جمعها أبو سفيان المغيظ — وهو يحرض قومه على هذه المؤامرة — حتى تجمع له هذا الجيش الجرار وفيه من الأحابيش والحلفاء والنساء ضاربات الدفوف مع أزواجهم . . وقد استعان بالمال الوافر الذى عاد به من الشام قبل غزوة بدر ، وبعد أن استرضى أصحابـــه للأخذ بثأر ضحاياهـــم . .

وفى منتصف شهر شوال نزل جيش قريش بعدته وعتاده فى موضع يسمى (عينين) بالقرب من جبل أحد ، فى انتظار ما تسفر عنه استخبارات قائده : بالكمون أو التقدم . .

المسلمون يستعدون

ويعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر هذا الجند الباغى ومقدمه . . ويعرض الرأى على صحابته ، وهو أن لا يلتقوا بهم . . بل هم يتحصنون فى المدينة ، فإذا هاجمهم العدو بها ، كانوا فى موقع المدافع عنها . .

وقص عليهم ما قد رآه فى منامه من أنه رأى ثلمة فى سيفه ، وأن يده تدخل فى درع حصينة ، ويقرأ تذبح . وقد أول رؤياه صلى الله عليه وسلم بأن البقر التى تذبح : بقتل بعض أصحابه ، وبأن الدرع هى المدينة ، والثلمة التى بسيفه : إصابة رجل من أهل بيته . .

ووافق البعض على رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن لا يخرجوا ، وعلى رأسهم المنافق عبد الله بن أبى . . ولكن أغلب شباب الصحابة ومن فاته حضور موقعة بدر ، طالب بالخروج بهم وملاقاة عدوهم . . حتى اعتزم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه — وكان يوم جمعة فى العاشر من شوال — فلبس لباس الحرب وصلى بالناس وذكرهم بأن النصر مع الصبر . . ثم وجد من الصحابة من يعرب عن ندمه وأنه إذا شاء لهم قعدوا عن الخروج . . فقال صلى الله عليه وسلم : (ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل) . .

واستخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة للصلاة بالناس : ابن أم مكتوم . . وسار بجيشه مى نحو ألف جندى ، أكثر سلاحهم الإيمان والإقبال على الشهادة . .

وصولهم إلى أحد

فى الطريق إلى أحد . . وقافلة الجهاد تغذ السير برسول الله صلى الله عليه وسلم وجنوده . . إذا بالوجه الكالح للمنافقين يسفر عن مكنوناته ، فينشق عن الجيش عبد الله بن أبى بن سلول ورفاقه بثلاثمائة رجل نكثوا ، وعادوا إلى

المدينة هرباً من الواجب المقدس . . وكان عبد الله بن عمرو بن حزام يستنصحهم ، ويتأبون عليه وأغنى الله عنهم وكفى المؤمنين شرورهم . . وواصل بقية الجيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسياره إلى أن قصد الناحية الجنوبية من جبل أحد بالتجويفة الأكبر . . واتخذ لهم المكان المناسب ، وظهرهم إلى الجبل . .

وقد اختار صلى الله عليه وسلم خمسين جنديا من مجيدى الرمى بالنبل ، وطلب منهم البقاء حيث هم على ثنية الجبل ، لحماية ظهر الجيش ، وأوصى قائدهم عبد الله بن جبير قائلا : (انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك) . .

وكما اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكتيكه الحربى . . فقد اتخذ الميمنة والميسرة والقلب (الوسط) . . وحمل ألويتها الثلاثة كل من : أسيد بن خضير والحباب بن المنذر ومصعب بن عمير . . وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى سماك بن خرشة المعروف بأبى دجانة . . ومن عادة هذا أنه إذا خرج لحرب تبختر فى كبر[1] ، وانطلق يطلب الشهادة . . وهو يقول — بعد أن عصب جبينه — بعصابته الحمراء المعروفة :

أنا الذى عاهدنى خليــــلى ونحن بالسفح لدى النخيــــل
ألا أقوم الدهر فى الكيـــول أضــرب بسيف الله والرسول

هدير المعركة

الجيشان على مرأى متقارب من بعضهما البعض . . وقريش تدل بكثرتها وبقوتها وأسلحتها واستعداداتها . . وقد تقدم حامل لوائها : طلحة العبدرى ، يطالب فرسان المسلمين بالمبارزة . . فاندفع نحوه الزبير بن العوام ، يقفز على جمله ويمسك به يسقطه على الأرض ، وبسيفه يجز رقبته فى سرعة وكأنه شاة . .

---

(١) قال عنه حين رآه صلى الله عليه وسلم : (إنها لمشية يبغضها الله ، إلا فى مثل هذا الموطن) .

ويتلاحم الجيشان ، وكأن جنود الإيمـــان نسور هائجة وأسود ضارية . . يهزون الأرض هزاً ، وهم يقاتلون فى استماتة ، يتقدمون غير هيابين . . كأنهم سبعة آلاف مقاتل وليسوا سبعمائة .. حمزة بن عبد المطلب ، والزبير ، وأبو دجانة وحنظلة ، وأمثالهم . . لا تكل السيوف فى أيديهم ولا تنطـــوى إلا على رءوس المشركين تصرع الواحد تلو الآخر . . وما يسقط منهم شهيد إلا وقد تجندلت عشرات الرقاب الكافرة . . ولعل أسوأ كارثة لحقت بالمسلمين . . اثنتان : مصرع عـــم رسول الله صلى الله عليه وسلم : حمزة . . والنكسة التى أصابتهم بسبب موقف الرمـــاة . .

فلقد أبلى حمزة المغوار بلاء شديدا فى المعركة ، وكان يتربص به غلام جبير ابن مطعم المسمى (وحشى) الذى دفعه سيده جبير إلى قتله (حمزة) ثأرا لمقتل عمه فى بدر ، ولقاء ذلك بعثه ، وكان وحشى يجيد الرماية ، وقد قال فى وصفه لمقدمه على حمزة : (وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوى فغلب فوقع ، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتى ثم تنحيت إلى المعسكر ، ولم تكن لى بشئ حاجة غيره)

النكسة وإصابة الرسول

كانت بوادر النصر قد لاحت أمام المسلمين ، وهم يتفانون فى جهادهم . . وعانت جنود قريش منذ الصباح حتى الضحى من يوم الخامس عشر من شوال . عانت من صلابة جند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرت فلولهم هاربة . . وكان للمعركة أن تنحسم على ما ظهر من نتائج ، لولا تسرع الرماة الخمسين على ثنية الجبل ، وقد شهدوا فرار جنود قريش ، والغنائم التى تركوها ، وفى ظنهم أن لا عودة لهم . . فترك أكثرهم موقعهم الاستراتيجى ونزلوا إلى ساحة الغنائم . .

وكان هناك على ميمنة قريش خالد بن الوليد ، يتحسس ثغرة لجيش المسلمين ،

ووجدها فى مكان الرماة . . فكر بجناحه منها إلى قلب جيش المسلمين ، مما أثـــار الذعر والاضطراب فى صفوفهم . . وانقلب ميزان المعركة فى غير صالحهم

واستحر القتل ، وتجمع بعض الصحابة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محاولة لحمايته . . وكان حوله مصعب بن عمير يحمل الراية ، ينافح بسيفه ، فخاتله (ابن قميئة الليثى) وقتله ، ثم ذهب إلى قريش زاعما أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الذى أصيب على الرغم من الحراسة المشددة حوله بجراح فى وجهه وبكسر فى ثناياه السفلى ، ووقع فى إحدى الحفر التى قام بحفرها أبو عامر الفاسق للكيد بالمسلمين . . وكان الذى أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حجر رماه (عتبة بن أبى وقاص) . . وتسبب فى إصابته تلك . .

وجرى إسعافه ، فأمسك بيده على بن أبى طالب . ورفعه من الحفرة طلحة ابن عبيد الله ، ورشف الدم من وجهه : مالك بن سنان — والد أبى سعيد الخدرى ، واقتلع أبو عبيدة بن الجراح حلقتى المغفر من فمه ، فاقتعلت ثنيتاه وكان صلى الله عليه وسلم يقول : (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم).

وبينما صحبه يسعفونه ، كان يتلقف الدم بيديه ، ويقول : لو سقط منه منه شئ على الأرض لحلت عليهم اللعنة . .

هكذا كان رحيماً حتى بأعدائه ويخشى عليهم اللعنة . . حتى حين قال له عنهم بعض صحابته : (لو دعوت عليهم) . . أجابهم : (إنى لم أبعث لعاناً ، ولكن بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) . .

أى مثل عظيم فى الإنسانية هذا : بأبى أنت وأمى يارسول الله . . يانبى الرحمة . وينزل عليه الوحى بقوله تعالى : (ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) . .

وقال حسان بن ثابت يجابه ذلك المعتدى الآثم عتبة بن أبى وقاص :

إذا الله جازى معشراً بفعالهم   وضرهم الرحمن رب المشارق

فأخزاك ربى ياعتيب بن مالك ولقاكقبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يمينا للنبي تعمـــــدا فأدميت فاه ، قطعت بالبوارق
فهلا ذكرت الله والمنزل الـــذى تصير إليه عنـــد إحدى البوائق

استئناف القتال

كانت قريش بإشاعة مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استشعرت نوعا من الراحة والبرود ، فلم يكن يقاتل من جنودها إلا القليل . . وكانت فرصة ليستجمع المسلمون رباطة الجأش وتوحيد الجهد ، بعد أن سرى بينهم ذلك الزعم الكاذب ، وصدقه بعضهم ، وفترت عزائمهم . .

وخلال إسعاف رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو دجانة يتلقى النبل فى ظهره وهو ينحنى عليه ، بينما سعد بن أبى وقاص يرمى دونه بالسهام حتى قال : فلقد رأيته يناولنى النبل وهو يقول : (ارم فداك أبى وأمى) . حتى أن ليناولنى ماله نصل فيقول : ارم به) . . صلى الله عليه وسلم . .

بعد تلك الإشاعة الكاذبة . . ودمدمة الحزن فى النفوس . . جاء أنس بن النضر إلى جمع من المسلمين حزانى متخاذلين ، وقال لهم : ما تنتظرون ؟ فأجابوه : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبادرهم بالقول : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه .

والتقى أنس بسعد بن معاذ ، وقال له : يا سعد ، إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد . . وتقدم إلى مقاتلة قريش ، حتى قتل . .

ومن جانب آخر . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ لقيادة المعركة مرة أخرى . . وقد رآه كعب بن مالك ، وبفرحة صاح بالناس : يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأسكته بإشارة من يده الكريمة

عليه الصلاة والسلام . . وتجمع حوله المسلمون ممن بلغهم الصوت . . وتسامع الآخرون بأسعد خبر . . وراحوا يتطلعون إلى الشعب الذى كان فيه صلى الله عليه وسلم وعاد إليه تحت راية الأنصار ، وهم خلفه ، وقال للرماة : إنا لانزال غالبين ما ثبتم مكانكم) . . وكان معه كبار صحابته وذوى قرابته : كأبى بكر وعمر وعلى والزبير والحارث بن الصمة رضى الله عنهم . . ولاحقهم أبى بن خلف على خيله ، وكان بمكة إذا التقى برسول الله صلى الله عليه وسلم يهدده أنه سيقتله على خيله هذا . . فيجيبه صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله . .

وإذ بلغ أبى بن خلف إلى مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر العداء بادره برأس حربة الحارث بن الصمة أرسلها إلى رقبته فأصابت منه مقتلا ، وتراجع ، وقد أمسك بترقوته يصيح بقومه : قتلنى والله محمد . . وعندما قفلوا عائدين إلى مكة ، مات بسرف قبل الوصول إلى مكة بنحو تسعة أميال ، متأثرا بتلك الطعنة[1]

وبأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم على بن أبى طالب إلى الجبهة رافع الراية يقول : أنا أبو القصم . . حيث التقى بحامل لواء المشركين : أبا سعد ابن أبى طلحة الذى ارتفع صوته قائلا : أن هل لك يا أبا القصم فى البراز من حاجة ؟ فأجابه على : نعم ، فتبارزا . . فقتله على كما قتل المبارز التالى : سعد ابن طلحة . .

واستمر القتال متفرقا . . وتقدم المسلمون يستعذبون مكانتهم .. يريدون النصر أو الشهادة . . كما اشترك بعض النساء فى الحرب ، فى مقدمتهن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التى أدت موقفا مجيدا فى المعركة . .

وراح جنود قريش يتباعدون ، وقد أحسوا بالكلال . . كما أحسوا بأنهم قد ثأروا لقتلاهم فى بدر . . ووقف أبو سفيان بن حرب على الجبل ينادى بصوت

---

(١) قال حسان بن ثابت فى مقتله عدة أبيات – منها :

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أبى يوم بارزه الرسول

أتيت إليه تحمل رم عظم ... وتوعده وأنت به جهول

عال ليسمع جميع المسلمين : (أنعمت فعال ، وإن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعل هبل) . . فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر بن الخطاب يقول له : يا عمر فأجبه ، فقل : (الله أعلى وأجل ، لاسواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فــى النـــار) . .

فلما سمعها أبو سفيان ، قال : (هلم إلى ياعمر) . . فأذن له صلى الله عليــه وسلم ليعرف ما يريد . . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمدا ؟ فأجابه : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . فقال : أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر . . ورجع عمر إلى مكانه . .

وعاد أبو سفيان يرفع صوته قائلا : إنه قد كان فى قتلاكم مثل ، والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت . . . .

ولكنه راح يتوعد المسلمين بأن موعدهم بدر العام المقبل . . فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى واحد من صحابته يقول له : قل نعم هو بيننا وبينكم موعد.

وانصرفت جنود قريش . . وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب يقتفى آثارهم وقال له : فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وساقوا الإبل (الجنوب) وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفس محمد بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم . .

ولكن قريشاً جنبوا الخيل ورحلوا .. فانظر إلى حكمة القائد (النبي والرسول) الملهم كيف يسير المعارك ، وكيف يتدبر شئونها ، ويلاحظ فى كل صغيرة وكبيرة ، وهو يسير بأبطاله المؤمنين من نصر إلى نصر بعزيمة الواثق الجلد الصبور صلى الله عليه وسلم .. فما عرف عنه فى يوم إلا وهو يحثهم على الصبر والجلد والثقة فى إيمانهـــم وفى أنفسهم كأصحـــاب حق ، وأصحاب مثل ، وأصحاب دعـــوة إلهية خالدة إلى الأبـــد . .

جريمة التمثيل

كانت بعض نساء المشركين قد عمدن بزعامة هند بنت عتبة بالتمثيل بقتلى المسلمين ، فيقطعن فيهم الأنوف والآذان . . وتصدت هند إلى الشهيد حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقرت بطنه واستخرجت كبده ، تلوكها وتلفظها . . وتقول أبياتا منها :

شفيت نفسى وقضيت نــذرى شفيت وحشى غليل صدرى

فترد عليها هند بنت أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بأبيات مطلعها :

خزيت فى بدر وبعد بــــدر يا بنت وقاع عظيم الكفـــــر

إن قريشاً عن بكرة أبيها . . كان يملؤها الحقد وطلب الثأر من أحداث يوم بدر الذى دحرهم الله فيه ، فى أول محاولة لهم لمجابهة المسلمين ، وقتال رسوله صلى الله عليه وسلم وقد ظلت مناحاتهم طيلة العام تجلجل بين شعاب مكة . .

ولهذا كان اندفاع نسائهم إلى ذلك العمل الإجرامى الآخر ، فى التمثيل بالشهداء المؤمنين ، إلى الحد الذى روى أنهن عملن جلاجل وعقوداً من تلك القطع الآدمية إرواء لغل صدورهن ومواجد أهاليهن . . فلعنهم الله . .

ولشد ما كان حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغاً عندما أبصر بعمه الشهيد وقد مثل به ، فقال : لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا . . ثم قال أيضا : لولا أن تحزن صفية (شقيقته) ويكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش ، فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم . . فقال صحابته كلاما قريبا من ذلك لمدى ما تألموا لحزنه صلى الله عليه وسلم . .

وروى ابن عباس — رضى الله عنه — بأن الله جل وعلا أنزل فى ذلك من قول رسوله الكريم وقول أصحابه هذه الآية الكريمة : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل

ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون) .

لهذا فقد عفا وصبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نهى عن كل أفعال المثلة . . وأمر بدفن الشهداء . . وكان بعض المسلمين قد سبقوا وأخذوا بشهدائهم يدفنونهم فى المدينة . . فنهى الآخرين قائلا : ادفنوهم حيث صرعوا [1] . .

وفى كل مجال كان الله سبحانه وتعالى يهون على نبيه عليه الصلاة والسلام ما يجرى من أحداث لاتسره ولا يتوقعها . . وفى هذه الحال . . قال تعالى :

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) . . وقال تعالى : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) . .

قيلت هذه الآية الأخيرة فى أمر الرماة الذى تركوا معسكرهم قبل انتهاء المعركة.

اعتبار ودعاء

أكثر من عظة يمكن استنتاجها مما جرى فى معركة أحد . . أو الغزوة التى انكشف فيها أمر المنافقين ، وخذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدنزل فيهم قوله تعالى : (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) . .

فاستحقوا غضب الله ، ولا بد من أخذ الحذر منهم بل ومنابذتهم . .

---

(١) حدث الصحابى عقبة بن نافع قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد بعد ثمانى سنوات كالمودع للأحياء والأموات . ثم طلع على المنبر فقال : (إنى لكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها) . .

أما الرماة الذين تسرعوا بترك مركزهم ، وإن كان لهم عذرهم ، وقد رأوا هزيمة المشركين وفرار جنودهم حتى مخيم نسائهم . . إلا أن مخالفة القائد فى أمره، لها أخطارها . . ولهذا كان العتاب من الله تعالى[1] حتى قال سبحانه :

(أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير) . . وقال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هـذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) . .

ثم . . الحلم والأناة . . وما يتحلى به القائد الصادق من حميد الأخلاق . . وقد تجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جريمة عدوه . . فبدلا من أن يدعو عليهم ، فإنه دعا لهم (فإنهم لا يعلمون) . . بمكانته وبالهدى الذى جاءهم به . . لعل الله يصلح منهم ويهديهم إلى دين التوحيد والعزة . . وهذا ما جاء به صلى الله عليه وسلم لتكوين أمة من أفضل الأمـم وأكرمها معدنا . . سواء فى حياتهم الدنيوية أم فى تشبثهم بعقيدتهم وروحانية وجودهم . . أو فى جهادهم وفدائيتهم من أجل الله وفى سبيله وإعلاء كلمته . .

ولنذكر هنا عبرة من تلك الروح الفدائية القوية التى تتمتع بها نفوس كل المجاهدين الذين يلتفون حول نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهم مقبلون فى الحروب على قلوبهم رجاء الجنة ، وطلباً لما بعد الحياة هذه . . ويستذكرون دوما أن ما عند الله خير وأبقى . . وقد أنزل الله تعالى فى شهداء أحد هذه الآية الكريمة :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . .

---

(١) وردت فى قسم سابق الآية الأولى فى عتابهم ، وعفو الله عنهم .

روى زيد بن ثابت قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لى : إن رأيته فاقرئه منى السلام ، وقل له يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقلت : ياسعد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ، ويقول أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام ، قل له : يارسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومىْ الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . وفاضت نفسه من وقته . .

هذا هو الحب الذى تعلمه الصحابة من قائدهم ومعلمهم عليه الصلاة والسلام . . وبمثل هذا الحب له وللدين الذى أرسل به ينتصرون ويحققون المعجزات .

هذا وقبل أن يغادر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته منطقة أحد . . كما روى الإمام أحمد بن حنبل قال لهم : (استووا حتى أثنى على ربى عز وجل) . . فصاروا خلفه صفوفاً ، واتجه إلى ربه يدعو :

(اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إنى أسالك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم إنى أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق) .

والعظة الأخيرة التى يجب أن ندركها — وقد دهش المسلمون وتخاذلوا عندما

أشيع مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعدوا عن مجابهة العدو — فأنزل الله تبارك وتعالى قوله : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكـــرين) . .

إنها المكاشفة للمؤمنين بكل الحقائق . . وللمنافقين والكافرين بالدحر فـــى نحورهم ورد مكائدهم عليهم ، والإعلان عن أحقادهم وشرورهم . . وعنهم فى موقف ابن أبى بن سلول بأحد ، قال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليـــه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) .

كانت العظة والعبرة فى هذه المعركة تعرية المنافقين ، كدرس أول . . كما كانت النصرة الساحقة فى غزوة بدر : فتح من الله وبشرى لأتباع رسوله صلى الله عليه وسلم . .

وعلى الرغم من نكسة أحد ، فقد تحقق له النصر الكبير بالقلة المؤمنة .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : ما نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موطن نصره يوم أحد ، فأنكر ذلك عليه ، فقال : بينى وبين من أنكر كتاب الله ، إن كتاب الله يقول : (ولقـــد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم بإذنه) (والحس : القتل) . .

تحريم الربا والخمر

نزل تحريم الربا ضمن الآيات البينات التى نزلت فى أحداث غزوة أحد . . فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين) . .

ثم ورد التحريم صريحا فيما بعد وذلك فى قوله تعالى : (وأحل الله البيـــع وحرم الربـــا) . .

وكان قد نزل تحريم الخمر قبل ذلك بصيغة النهى ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) . .

ثم نزل التحريم نهائيا ، فقال تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) . .

والميسر : هو القمار بأشكاله ، والأنصاب : هى الأوثان ، والأزلام هى الأقداح التى كانت تعملها الجاهلية . .

الشهداء والشعر

أما عن الشعر فى الشهداء ، فكثير جدا ، وقد بلغوا سبعين شهيدا . . فقد انطلق شعراء كلا الفريقين يبكون القتلى ، ويسجلون الأصداء المتغايرة عن معركة أحد . .

وكان مشركو قريش يفتخرون بما أصابوا من نصر موقوت . . بينما شعراء المسلمين يردون عليهم ويفندون دعاواهم الباطلة . . بل ويقررون حقيقة موقف الإسلام العادل وأصحابه الهداة المصلحين . ثم يرثون شهداءهم رضوان الله عليهم

ومن شعر الصحابى كعب بن مالك فى شهداء أحد ، وفيهم الشهيد حمزة ابن عبد المطلب قوله :

فكلهم مات حر البلاء على ملة الله لم يحرج
كحمزة لما وفى صادقاً بذى هبة صارم سلجج

وهذا حسان بن ثابت يرد على (عبد الله بن الزبعرى) :

وقل إن يكن يوم بأحد يعده سفيه ، فإن الحق سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكر هناك رفيع

أمام رسول الله لا يخذلونــــه   لهم ناصر من ربهــم وشفيع

إلى أن يقول يذكر منزلة الشهيد ، ونهاية القتيل المشرك :

فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم   قتيل ثوى لله وهــو مطيــع

فإن جنان الخلــد منزلة لــه   وأمر الذى يقضى الأمور سريع

وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم   حميم معافى جوفها وضريــع

أما ضرار بن الخطاب فقد كان من الجند المحارب ، فقال فى إحدى قصائده :

خيرت نفسى ما كان من وجــل   منها وأيقنت أن المجد مستبق

أكرهت مهرى حتى خاض غمرتهم   وبلــه من نجيع عانك علق

والشعر كثير ، وخاصة فى بكاء الشهيد حمزة . . ومن كان معه من كبار الصحابة الذين استشهدوا — نذكر : عبد الله بن جحش ، حنظلة بن أبى عامر ، عبد الله ابن جبير ، أوس بن ثابت (أخو حسان) عمرو بن قيس ، عمرو بن الجموح ، عبد الله بن سلمة ، أنس بن النضر . . وسواهم ممن أكرمهم الله بالشهادة ، رضى الله عنهم . .

غزوة حمراء الأسد

بعد مغادرة جيش قريش أحداً ، استقر بالروحاء — على بعد ثلاثة أميال من المدينة — وهناك بدا لهم التآمر من جديد فى محاولة للإغارة على المدينة . .

وإذ بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وكان قد عاد إلى المدينة من يوم واحد . . نادى مناديه ليخرج معه من خرج إلى (غزوة أحد) . . وأسرع بسبعين جندياً — وهــو لا يزال جريحا كبعض صحابته — وبث دعاته إلى جيش قريش بوسائل حكيمة لإبلاغ القوم عن مدى الاستعدادات الهائلة التى خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمطاردة فلولهم والقضاء عليهم . . وهو على خيله المسمى (السكب) . .

ولحق بقية الجيش برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزلوا معه بحمراء الأسد ، يوقدون ناراً كثيرة لإيهام جيش العدو بصحة ما ذاع عن مقدم المسلمين بذلك العدد الكبير . . في الوقت الذى يكمدون فيه جراحاتهم التى لم يتمكنوا من علاجها بالدواء . .

ويروى عن السيدة عائشة أن الآية الكريمة من قوله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) . . نزلت بهذا الجيش الذى عاود الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد بقى بهم ثلاثة أيام ، حتى أنزل الله الرعب فى قلوب أعدائه ، ورحل أبو سفيان بجنده خاسرين . .

ومن الروايات المعتمدة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى وهو فى حمراء الأسد ، بمعبد الخزاعى الذى عزاه فى شهداء أحد ، وطلب أن يقدم هو له العون . . وكان بنوخزاعة يكنون الود لرسول الله ولصحابته . . وقام (معبد) بدور هام فى إثناء قريش عن تآمرها ، إذ ذهب إلى أبى سفيان كزائر ، فإذا به يسأله عن خبر المسلمين وسيدهم ليستوثق عما بلغه ، فيرد عليه معبد : تركت محمدا وأصحابه قد خرجوا لطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم شوقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا على أن لا يرجعوا حتى يلقوكم ويثأروا منكم . .

فخذلهم الله . . وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه إلى المدينة يحمدون الله ، ويستعدون ليوم جديد فى سبيل الحق والتوحيد . .

* * *

العام الرابع للهجرة

** سرايا وغزوات ... *

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(مثل المجاهد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله – كمثل الصائم القائم . وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة) . . .



سرية أبي سلمة المخزومي

قبائل بنى أسد — فى نجد تتحرك بدافع من رجلين من رجالها — هما : الأخوان : سلمة وطليحة ابنا خويلد . . فهما اللذان يؤلبان القوم للتجمع وللقيام بشن هجوم على المدينة ، ومحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد نصحهم ونهاهم قيس بن الحارث عن ذلك . . ولكنهم لاينصتون إلا للتأديب . .

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجرى ، فأرسل جيشا قوامه مائة وخمسين من الأنصار والمهاجرين . . وفيهم أسيد بن خضير وأبو عبيدة ، وأمر عليهم عبد الله بن عبد الأسد المخزومي والمعروف بأبى سلمة . . للحاق مسرعا بالقوم المتآمر ، فسلك إليهم طريقاً مهملاً ، لإمكان أخذهم على غرة . .

وقد كان له ما أراد ، وجعل لجنده تقسيما ثلاثياً بحيث يهاجم كل قسم من جانب ، حالما وصل بهم إلى قطن بأراضى بنى أسد بن خزيمة . . فباغتتهم الجنود ، مما جعلهم يتصايحون ويتفرقون هاربين إلى أعالى الجبال ، وقد تركوا إبلهم وشاتهم مع رعاة إماء لهم . . وهرب هؤلاء كذلك ، ولكن جند أبى سلمة استطاع أن يمسك فى الأسر بثلاثة منهم . . ثم العود بهم مع الشاة والإبل إلى المدينة بعد الترقب والتأكد من أن أحداً لن يعترضهم . .

حدث ذلك فى أوائل شهر محرم . . واستغرقت رحلة العودة عشرة أيام . . وذكر بأن الغنائم التى حصلوا عليها من الكثرة بحيث كان السهم منها سبعة من الإبل والشاة لكل من كان فى السرية . .

سرية ابن انيس الجهني

قبل عودة السرية السابقة إلى المدينة من المشرق . . كان النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث بسرية أخرى إلى الجنوب فى اتجاه مكة . . وكانت عبارة عن

شخصية واحدة هي : عبد الله بن أنيس الجهني . . فلقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي يحرض القبائل ضده ، ويجمع الناس لقتال المسلمين . . ومقره في عرنة بالقرب من عرفات . . ووصفه بأنه يستذكر الشيطان إذا رآه ، ويجد قشعريرة من منظره . . فسافر عبد الله متشحا سيفه بقصد التعرف عليه وقتله ، مستأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يقول ما يقول للاحتيال على سفيان حتى يتمكن من قتله . . وإزالة مصدر الشرور منه . .
وإذا التقى به في بطن عرنة عرفة وحوله الأحابيش وشعر نحوه بالرهبة فقال : (صدق رسول الله) . .

ثم دنا منه وادعى بأنه من بني خزاعة ، وقال له بالنص : (سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك) . . فرد عليه سفيان : (أجل إني لأجمع له) . . ولازمه يحادثه حتى قصد بيته ، وانصرف عنه في المساء أصحابه . . ثم خلا به ، وقد هدأ الجو حول المكان ونام الناس ، فخاتله وانقض عليه بسيفه يفصل رأسه عن رقبته . .

ويروى أنه حمل رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسجد في المدينة فلما رآه قال : (أفلح الوجه) فأجابه ابن أنيس : أفلح وجهك يارسول الله .

وكانت عودته إلى المدينة في أول الأسبوع الأخير من محرم ، بعد أن غاب ثمانية عشر يوما .. وقد عرف عنه فيما بعد رواية الحديث والفقه إلى جانب كونه بطلا من أبطال الإسلام رضي الله عنه وعنهم . .

خدعة في الرجيع

وفد من قبائل عضل والقارة — من جنوب الحجاز — يرجع نسبهم إلى الهون ابن خزيمة بن مدركة .. جاءوا إلى المدينة ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأعربوا له بأنهم مسلمون ، وطلبوا منه أن يرسل معهم بعضاً من صحابته يعلمونهم

القرآن وشرائع الدين . . واستجاب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدرك شيئاً من نواياهم الخبيثة الخبيثة . . فبعث معهم بعشرة من المؤمنين : ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار . . وفيهم : زيد بن الدثنة ، خالد بن البكير الليثى خبيب بن عدى — من بنى عوف ، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى — وهو أميرهم . .

وما كاد يصل العشرة المؤمنون إلى موضع ماء هذيل (الرجيع) — بين مكة وعسفان — حتى غدر بهم الوفد ، وأشهروا عليهم أسلحتهم واستنصروا عليهم قوم هذيل . . فدافع العشرة عن أنفسهم بالسيوف ، وغير موافقين على الخدعة التى أرادها بهم الوفد الغادر المنافق ، والذى تغلب عليهم بكثرة . . فقتل منهم ثمانية ، وباع المنافقون الأسيرين الباقيين : خبيب بن عدى[1] وزيد بن الدثنة ، وذلك بأسيرين من هذيل فى مكة ، قتلا بهما . .

وقد روى بأن زيدا وهو فى طريقه إلى القتل ، تجمع حوله نفر من قريش ، منهم أبو سفيان بن حرب متحايلاً ، يقول له : أنشدك الله يازيد . أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك : فأجابه : (والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وإنى جالس فى أهلى) .
أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وإنى جالس فى أهلى) .
فعلق أبو سفيان : (ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمـــد محمداً) . . ثم قتله نسطاس مولى صفوان بن أمية الذى ابتاعه . .

رحم الله شهداء الواجب الدعاة إلى الله وإلى دينه ، ورضى عنهم وأرضاهم . . وقد أنزل سبحانه آنذاك عن أولئك المنافقين :

---

(١) روى عن الصحابى خبيب بأن الذى اشتراه هو عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه ، وعندما أرادوا صلبه طلب إمهاله حتى يصلى ركعتين ، قال لهم بعدهما : (أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة) . . وعلى خشبة الصلب ارتفع صوت خبيب يدعو : (اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا) . ودعا على المنافقين : (اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحداً) . ويعتبر خبيب أول من سن ركعتين عند القتل .

(ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد . ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد) . .

وقد بكى الشعراء — أولئك الدعاة البررة ، كما هجوا الوفد الغادر وأتباعهم الذين باءوا بالخسران والعذاب . . وسخط الله عليهم . .

حدث ذلك فى شهر صفر . . وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء الأبرياء ، وقد قتلوا بتلك الوسيلة الهمجية التى أرضت قريشا ومن لف لفها من الكفار ، ولكنها كانت كنذير وتحذير لأخذ الحيطة والتدبر لئلا يتكرر ما حدث تلك الفئات الباغية المنتشرة من الأعراب عبر الجزيرة ، تكيد للمسلمين . . بل وتتربص بهم وتتآمر عليهم . .

وروى أن من الأسباب التى دفعت بالوفد الغادر إلى عمله الإجرامى . . أن بنى لحيان (وهم من هذيل) — بعد مقتل سفيان — كما ورد فى سرية ابن أنيس — اتصلوا بقبيلتى (عضل وقارة) بقصد الثأر للقتيل ، وجعلوا لهم مقابل مؤامرتهم عددا من الإبل أغراهم . . فكان ما كان . . من الخدعة وقتل الرجال المؤمنين . .

بعثة أخرى إلى الموت

على الرغم من الحدث المفجع الذى صادف الشهداء العشرة — كما عرفنا — فقد جرى حدث آخر أشد وقعاً وألماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإن كان حرصه شديدا أن لا يتكرر ذلك الأمر المؤسف مرة أخرى . .

ففى نفس الشهر صفر وصل المدينة أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ، ويدعى

(ملاعب الأسنة) – لقوله لأخيه (فارس قررل) الذى تركه فى حرب بين قبيلتى تيم وقيس – شعرا :

فررت وأسلمت ابن أمك عامراً يلاعب أطراف الوشيج المزعزع

جاء أبو براء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما . فدعاه إلى الإسلام (فما بعد ولا أسلم) ولكنه قال : يامحمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك) . فرد عليه صلى الله عليه وسلم : (إنى أخشى عليهم أهل نجد) . فأخذ أبو براء على نفسه العهد قائلا : (أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا النّاس إلى أمرك) . .

وبعد ترو ومشاورة ، اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين صحابيا من القراء . . ليكونوا خير دعاة للإسلام فى أواسط الجزيرة العربية . . يبصرون قبائل نجد بأمور الدين ، ويقرئونهم القرآن . . وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدى . . ومنهم : الحارث بن الصمة ، حرام بن ملحان ، نافع بن بديل الخزاعى ، وعروة بن أسماء الصلت السلمى . .

غادر المقرئون المدينة بخطاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم متجهين إلى غايتهم العظمى . . فلما وصلوا (بئر معونة) ماء لقبائل (بنى هذيل) بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم . . حمل الخطاب : (حرام بن ملحان) وتوجه إلى زعيم الكفر عامر بن طفيل الكلابى العامرى ، والذى ما كاد يتعرف على المبعوث حتى بادر إلى قتله ، ومزق الخطاب دون أن يقرأه ، وهب ينادى فى بنى عامر لقتال بعثة القرآن السبعين . . فرفضوا الاستجابة له نظراً للعهد الذى أخذه البراء وقطعه على نفسه وعلى قومه . .

فما كان من (ابن الطفيل) إلا أن استعدى عليهم عدة قبائل من سليم ، فأجابوه وشهروا أسلحتهم ، وواجهوا بعثة القرآن التى فوجئت بهذا العدوان الغاشم المدبر يستهدفها للقضاء عليها . .

فجرد كل منهم سلاحه ، ودافعوا باستماتة بقيادة أميرهم المنذر . . فغلب عليهم تكاثر الأشرار . . فاستشهدوا عن آخرهم ، ولم يبق على رمق إلا كعب بن زيد الذى قدر له أن يعيش ويعود ، حتى كتبت له الشهادة فى غزوة الخندق . .

وكان عن بعد من مكان هذه الجريمة البشعة ، بقية من بعثة القرآن ، كل من المنذر بن محمد — حفيد أحيحة بن الجلاح — ورجل أنصارى من بنى عمرو بن عوف . . وقد عرفا بحال رفاقهما من منظر الطير تحوم على مكانهم ، فرابهما المشهد ، وتحدثا لبعضهما بأنه لابد لذلك من شأن . .

وإذ قصدا إليهم فوجئـــا بهؤلاء الشهداء غـــرقى فى دمائهم . . وعرض (المنذر) أن يذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبراه بما قد جرى . . غير أن الرجل الأنصارى أبى إلا أن يقاتل حيث استشهد إخوة له مع أميرهم المنذر ابن عمرو . . واندفع إلى جانب الأشرار المتربصين ، وقاتلهم حتى استشهد ، وأسروا المنذر بن محمد ، ودفعوه إلى عامر بن الطفيل ، فأخبره المنذر بأنه من بنى مضر ، ، فأطلق سراحه عامر ، وبزعم أنه كانت على أمه رقبة ، فجعـــل عتقه فى ذلك . .

وعندما اتجه المنذر بن محمد — ويسميه المؤرخ ابن اسحاق [1] (عمرو بن أمية) — إلى طريق المدينة . . التقى فى مكان يسمى (قرارة الكدر) ويبعد عـــن المدينة بمائة واثنى عشر ميلا ، التقى برجلين عرف أنهما من بنى عامر ، ، فانتوى أن يثأر منهما ، وانتظر حتى ناما ، فقتلهما . . وانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلعه على خبر . إبادة المقرئين الشهداء ، وما فعله من قتل العامريين ، فرد عليه صلى الله عليه وسلم : (لقد قتلت رجلين لأدينهما) . . أى أدفع ديتهما . .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بديتهما إلى قوم القبيليتين . . وقد اشتد حزنه على مصاب القراء ، وقال : (هذا من عمل أبى البراء ، قد كنت لهذا

---

(١) صاحب كتاب السيرة النبوية — وهو محمد بن إسحاق الكلبى ، من أعلام القرن الثانى للهجرة .

كارها متخوفا) . . وكان عليه الصلاة والسلام يديم الدعاء على أولئك الأشرار قتلة التسعة والستين والعشرة قبلهم . . فيقول : (اللهم اشدد وطأتك على مضر . اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة ورعل وذكوان وعصية ، فإنهم عصوا الله ورسوله) . .

ومما قيل من شعر في استشهاد أولئك الأطهار . . هذه أبيات ثلاثة لحسان ابن ثابت رضي الله عنه وإياهم :

على قتلى معونة فاستهلي ... بدمع العين سحا غير نزر

على خيل الرسول غداة لاقوا ... ولاقتهم مناياهم بقدر

فيا لهفي لمنذر إذ تولى ... وأعنق في منيته بصبر

ولقد كانت غضبة المسلمين كبيرة على تلك الفعلة النكراء التي ارتكبها أرباب الأوثان ، وقد زادوا في تحديهم للقيم الإنسانية وشرف المثل الإسلامية في أشخاص القوم المؤمنين الذين لن تلين لهم قناة . . بل إنهم يزدادون قوة ومنعة ويقاومون كل وسائل الكيد والغدر بثبات وصبر وإيمان . . وبعزيمة لن تقاوم مهما فعل الحاقدون والمجرمون . .

لهذا كان حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم شديدا على ملاحقة الأعداء حيثما كانوا ، وبعث البعوث والسرايا . . والقيام بالغزوات ، ليقطع عليهم أسباب عبثهم وتجمعاتهم الساخطة الماكرة . . وبشتى الوسائل . .

فهو صلى الله عليه وسلم دائب الفكر والتحرك . . متصل الجهد واليقظة . . يبث رجاله يتحسسون أحوال الأعراب . . ويتسمع إلى تحركاتهم المناوئة . . ليرد الكيد على أصحابه ، وليجابه المراوغين والمحتالين والدساسين في جميع خطواتهم ، حتى في المجتمع الجديد المبتلى بفئة المنافقين . . لئلا تقوم لهم قائمة . . ويبقى الدين لله ، ويسود الأمن والعدل والسلام .

محاولة يهودية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض من أصحابه . . ومنهم أبو بكر وعمر وعلى قد قصدوا إلى حى بنى النضير ، ولهم حلف مع بنى عامر . . وذلك كى يطلب منهم المساهمة فى دفع دية القتيلين العامريين . .

فوعدوه لهذا ، وقد انتووا فى أنفسهم أمراً شائنا كشفه الله تعالى لنبيه الكريم . . إذ أنهم تشاوروا فيما بينهم فى مؤامرة لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دان منهم . . وقد جلس هو مع صحابته بجوار أحد منازلهم ينتظرون تنفيذ الوعد . . وإذ هو وعيد على يهود قد كان . .

وأوحى الله تعالى إلى رسوله عليه الصلاة والسلام ينبئه بما هم بنو النضير بتنفيذه . . إذ أنهم استقروا على أن يحمل (عمرو بن جحاش بن كعب صخرة يلقى بها من أعلى البيت بالتحديد على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرتاحون منه — كما قالوا — خسئوا وخابوا ، وأتوا بالدمار على أنفسهم هم ! . .

وعاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . ثم لحق به صحابته . . فأخبرهم عما أرادت فعله به يهود بنى النضير من كيد خاسر . .

ولم يلبث أن أعلن إليهم ضرورة الحرب ضد هؤلاء القوم الذين لا خلاق ولا عهد ولا ميثاق لهم . . وإنهاء المتاعب المتلاحقة بسببهم ، والشرور التى يدأبون على القيام بها بين الناس وفى ديار المسلمين . .

وقد حدث هذا فى شهر ربيع الأول . . وإجلاءهم كذلك عن دار الهجرة .

غـزوة بنى النضـير

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى محمد بن مسلمة إلى يهود بنى النضير ، يطالبهم بالخروج من المدينة نهائياً وخلال عشرة أيام . . وأن من بقى منهم بعد فسيكون مصيره القتل . . وبذلك وجدوا أن لا مناص من القبول بالجلاء . .

ولكن فيما هم يتهيأون للرحيل . . وصل إليهم وفد من رءوس المنافقين : عبد الله بن أبي بن سلول ومالك بن أبي قوقل وغيرهما . . يغرونهم بالبقاء ، لأنهم سيساعدونهم إذا قاومهم أحد: (لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا . وإن قوتلتم لننصرنكم) كما قالوا لهم بالحرف . .

ولم يغنهم ذلك شيئا ولا أفادهم ، حتى الحصون التى تحصنوا خلفها . . بل لقد كانت المواجهة معهم عنيفة . . إذ حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أيام كإعلان للحرب ضدهم ، بل إن بعضاً من الجيش أخذ فى قطع نخيلهم وحـــرقـــه . .

وعادوا يرتجون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ، على أن يخرجوا بأهاليهم وبأموالهم . . وقد ألقى الله الرعب فى قلوبهم . . فاشترط عليهم صلى الله عليه وسلم أن يتركوا جميع أسلحتهم ، ويأخذوا ما استطاعت إبلهم من أموالهم . . فخضعوا واستجابوا مكرهين . .

وأرادوا أن يعلنوا مظاهر الفرحة في خروجهم ، بعزف القيان ودق الدفوف والمزامير . . وكأنهم فى محفل . . فسار كبارهم إلى مدينة خيبر ، وقصد الآخرون إلى بلاد الشام . .

وأسلم من بنى النضير اثنان فقط هما : يامين بن عمير — أبو كعب بن عمرو ، وأبو سعد بن وهب . .

ويروى أن كامل سورة الحشر — والحشر بمعنى الجلاء — قد نزلت بشأن هذه الغزوة . . تصور أفعال اليهود الشريرة ، والنقمة التى حلت بهم . . كما توضح مدى موقف منافقى المدينة الذين وعدوهم بالمساعدة ، والذين يكيدون للمسلمين ، ويسببون العديد من المشاكل . .

قال الله تعالى فى هذه السورة عن يهود بنى النضير :

(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النـــار) . .

وقال تعالى فى هذه السورة عن المنافقين :

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون) . .

وكعادة العرب ، حيث يسجل الشعر كل ما يقع من أحداث . . فقد قيلت عديد من القصائد ، تصف وتنقد وتشرح . . وكلها تعبر عن السخط على يهود وعلى جرائمهـــم . .

قال قيس بن بحر الأشجعى فى قصيدته الميمية :

أهلى فداء لامرئ غير هـــالك ... أحل اليهود بالحسى المزنـــــم

و(الحسى المزنم) : أحل لهم دار غربة فى غير عشيرة . . إلى أن قال الأشجعى :

فمن مبلغ عنى قريشا رسالـــة ... فهل بعدهم فى المجد من متكرم

بأن أخاكم فاعلمن محمـــدا ... تليد الندى بين الحجون وزمزم

فدينوا له بالحق تجسم أموركم ... وتسمو من الدنيا إلى كل معظم

نبى تلافته من الله رحمـــة ... ولا تسألوه أمر غيب مرجـــم

وهذا مطلع لقصيدة كعب بن مالك الرائية :

لقد خزيت بغدرتها الحبور	كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب	عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهما وعلما	وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتابا	وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكر منا جدير

إلى أن قال :

أرى الله النبي برأى صدق	وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير

وفي خبر رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال :

(حاربت النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير ، وأقر قريظة ومن عليهم ، حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم ، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فآمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة : كلهم : بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود المدينة) . .

وسوف يأتي خبر غزوة بنى قريظة في مكانها من الكتاب . .

غزوات للتأديب

كان لابد من تأديب الكفرة والعصاة من الأعراب على طريق نجد . . وقد عرفنا ما حدث من اغتيالات ومحاولات للإرهاب أمام المد الإسلامى ومناهضة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يتكرر الغدر بالقوم المؤمنين الذين أصبح لهم سلطان قوى . . وحتى يكون لهؤلاء الدعاة الأبرار المهابة والخوف . . وحتى يزلزل الله أفئدة المشركين أينما كانوا . .

وفى أوائل جمادى الأولى ، كان قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجموع من القبائل فى نجد تتأهب للقيام بهجمات على المدينة ، مستهدفة التأثير فى معنويات المسلمين ، وإضعاف تلك الجبهات الصلبة من استعدادهم الفطرى وعزائمهم التى لا تفل . .

ولكنهم عبثا يحاولون . . وقد أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا قوامه أربعمائة من فرسانه الشجعان . . وخرج بهم بعد أن استخلف على المدينة أبا ذر الغفارى ، وقصد إلى أن يغزو (بنى محارب بن قيس عيلان ، وبنى ثعلبة بن سعد ابن غطفان ، وبنى لحيان) . . فلما وصل بجنده إلى (وادى الشقرة) أبطأوا فيه ، وبعث عليه الصلاة والسلام بأفراد منهم يجوبون تلك المناطق على خيولهم ، فلما تأكدوا من خلوها من أية تجمعات ، مشوا معه إلى أن هبطوا بأرض غطفان موضعا يدعى (نخلا) . . ثم تبين وجود بعض النساء ، وظهر بعد ذلك مقدم رجال يتجمعون من تلك الجهات ، يتزايدون ثم يواجهون جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهرى : أسلحتهم . . وكادوا يشتبكون فى القتال مع المسلمين ، وأحس كلا الجيشين — كما يقول أكثر الرواة — بالتخوف والإحجام عن الآخر . . وأدركت المسلمين صلاة العصر ، فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف لأول مرة . . ولم يلبث الجيشان أن تباعدا عن بعضهما البعض ، ولم تحدث حرب بينهما . .

وصفة صلاة الخوف ، كما روى عن أبى الزبير عن جابر ، قال : صفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صفين ، فركع بنا جميعا ، ثم سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد الصف الأول ، فلما رفعوا ، سجد الذين يلونهم بأنفسهم ، ثم تأخر الصف الأول ، وتقدم الصف الآخر حتى قاموا مقامهم ، ثم ركع النبى بهم جميعا ، ثم سجد النبى صلى الله عليه وسلم وسجد الذين يلونه معه ، فلما رفعوا رءوسهم سجد الآخرون بأنفسهم ، فركع النبى صلى الله عليه وسلم بهم جميعا ، وسجد كل واحد منهما بأنفسهم سجدتين . .

ثم هناك حديث آخر عن محاولة جرت فى تلك المنطقة حيث كان يعسكر جيش المسلمين ، وكانت عبرة للقوم زادتهم رهبة منهم . . فقد روى عن عبدالله ابن جابر بأن رجلا من بنى محارب يقال له (غورث) قال لقومه من غطفان ومحارب ألا أقتل لكم محمدا ؟ قالوا : بلى وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ، قال : فأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس سيفه فى حجره ، فقال : يامحمد انظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم . (وكان محلى بفضة) فأخذه (غورث) واستله ، وجعل يهزه ويهم ، فيكبته الله ، ثم قال : يامحمد ألا تخافنى ؟ قال : لا ، وما أخاف منك ؟ قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال : لا ، يمنعنى الله منك . . فرد غورث على رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه وولى . .

وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم عن (غورث) ولم يعاقبه ، رغبة منه فى أن يهتدى ، ويعرف الكفار مدى تسامحه ورفقه بالناس استئلافاً لهم وأملاً فى تقربهم إلى الإسلام . .

وحين هم صلى الله عليه وسلم بالعودة إلى المدينة بعث بجعال بن سراقة قبله يبشر بسلامته وجنده ، وكانت مدة الرحلة فى هذه الغزوة نحو خمسة عشر يوما . . وهى غير (غزوة ذات الرقاع) التى أثبتها بعض المؤرخين وكتاب السير فى هذا الشهر من العام الرابع للهجرة . . فهذه وقعت بعد غزوة خيبر — كما سيأتى عنها الحديث فى مكانها من الأحداث . .

الى بدر مرة أخـــرى

كما تحدى أبو سفيان بن حرب في غزوة أحد للقاء بالمسلمين ببدر في شهر شعبان . . فقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم التحدى ، وجند جيشاً قوامه نحو ألف وخمسمائة صحابى معهم عشرة من الخيل عدا رواحلهم من الإبل . . وبعد أن استخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، خرج بهم إلى بدر ، يترقب وجنوده فى لهفة جيش قريش المتخاذل . . ليعلموهم درساً جديدا فى الحرب، هـــم أهلها وفـــرسانها . .

وفى تردده سار (أبو سفيان) بجيشه الذى بلغ الألفى مقاتل ، حتى وصلوا إلى مكان السوق المعروفة (مجنة) بناحية مر الظهران . . ولم يتشجع أبو سفيان أن ينطلق بهم إلى أكثر من ذلك المكان، وكأن النذر الأولى لهزيمتهم فى بدر رمضان قد راحت تزلزل فى كيانه ويتسرب الرعب إلى جنوده . . ففكر فى حيلة ينصرف بها معهم للعودة من حيث أتوا . . فما وجد غير أن نادى فيهم : (إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ،وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا) . . فغادروا عائدين مخذولين بغير حرب . .

ويروى البعض عن إرساليات حدثت بين كلا الجيشين لإخافة بعضهما البعض . . غير أن البين المعتمد ، هو الرهبة التى وجدها جيش قريش ، وتحسبهم من واقعة أخرى تذهب لهم فيها الضحايا العديدة .. فقد أصبحوا يخشون جيش المسلمين المؤيد من عند الله ، وإقبالهم على التضحية فى سبيله والاستشهاد تحت لواء دينهم ، وليس فى سبيل حياة يطمعون لها أو مكاسب دنيوية يرجونها . .

وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم – بجنده الأبطال ثمانية أيام فى (بدر) انتظاراً لأية بادرة أو تحرك يأتى من عدو . .

وفى خلال هذه الفترة كان قد مر به (مخشى بن عمرو الضمرى) الذى سبق أن وادعه فى (غزوة ودان) على بنى ضمرة ، وقال : يا محمد أجئت للقاء

قريش على هذا الماء ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم : (نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك) فقال مخشى : لا والله يا محمد ما لنا بذلك فيك من حاجة . .

وهكذا أصبح للإسلام صولة . . ولرجالاته النصر فى كل جولة . . وعاد جند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة معه ، وهم أشد معنويات ممسا خرجوا ، فالعدو أصبح يرهبهم . . وقريش لم تعد تلك القوة التى لا تغلب مهما حشدت من جيوش ومن عتاد حربى . . وما تحدياتها إلا كنوع من التقاط الأنفاس وإرضاء غرور قومها . . وسيأتى اليوم الذى تستسلم فيه للحقيقة بإذن الله . .

* * *

العام الخامس للهجرة

* غزوات * فريضة الحج
حديث الإفك
تطهير المدينة من اليهود
الحجاب فضيلة كبرى

** (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) **

(من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الأحزاب)



غزوة دومة الجندل

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعراب الشمال تتجمع وتغير على قوافل المسلمين ، تهدد طرقهم قريبا من الشام . . ونشطت بعض القبائـــل بقصد غزو المدينة ، فهى تتجمهر ، وتدير التفكير فى هذا السبيل ، وتسعى إلى تأمين خطواتها العابثة هذه . . فى إثارة الأعراب وضم بعضهم إليها . .

وسرعان ما جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً بلغ ألف مقاتل بطل ، وخرج بهم إلى الشمال .. بعد أن استعمل على المدينة : سباع بن عرفطة الغفارى ، وقد اصطحب معه أحد الأدلاء المهرة ليعبر بجيشه الطريق الطويل . . واتصلت مسيرتهم . . فأمضوا خمسة عشر يوما حتى بلغوا (دومة الجندل) — بضم الدال — . . وما كاد من فيها من أهلها وأعوانهم يشهدون جيش المسلمين الهائل يتقدم نحوهم ، حتى فروا وتبعثروا تاركين حتى خيامهم . . وكانوا قد أعدوا كمينا لجيش أو قافلة تأتى من ديار المسلمين . . فيسلبونهم ويسيئون إليهم . .

ولكنهم هم الذين ذهلوا لمباغتة الجيش المسلم واستعداده للبطش بكل متآمر وسحق كل معتـــد . .

وقد وجد جند رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من الشاة والإبل لبنى تميم ، فكانت لهـــم مغنما . . وبقى بهم يترقب بضعة أيام فى تلك المنطقة ، يتطلعون إلى المنافذ ، ويتحسسون أخبار القبائل ، فلم يظهر لهم أحد . . فعاد بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ازدادوا اطمئنانا . . ويستعد بهم إلى ميـــدان جديد . . وإلى مزيد من الانتصارات . .

غزوة بني المصطلق

كسياسة القائد الحكيم ، والحاكم المسئول لحماية دولته الآمنة ، ومقاومة أسباب الشرور والعدوان . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسقط أخبـــار

القبائل وعربان البوادى وتحركاتهم . . ليتدبر سياسته الدفاعية فى حينها . . وكيف يواجه مؤامراتهم ، ويوجه إلى دعوة الإسلام والترغيب فى طاعته . .

وإذ بلغه عن قبيلة بنى المصطلق من خزاعة . . بأنها تجند رجالها مع بعض العربان ، وتعد العدة بزعامة سيدها : الحارث بن أبى ضرار لإعلان الحرب على المسلمين فى مدينتهم المقدسة . .

قام (صلى الله عليه وسلم) يعد جيشه المؤمن . . وبعد أن استعمل على المدينة زيد بن حارثة ، خرج مع بعض أهله فى جيشه المنظم ، وفيهم من بعض المنافقين الذين طمعوا — أمام انتصارات المسلمين — أن ينالوا نصيبهم من الغنائم . . كعبد الله بن أبـــى . .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنده حتى وصل بهم مقر ماء لبنى المصطلق يدعى (المريسيع) فى اتجاه (قديد) بالساحل . . حيث تجمع جيش القبيلة مستعدا للمجابهة . . إلا أنه تفرق وتباعد ، عند مقدم جيش المسلمين الذى كان شعاره : (يا منصور أمت أمت) . . للموقف العدائى الذى وقفته القبيلـــة العنيـــــدة . .

وبتوجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى عمر بن الخطاب على القوم أن يسلموا ويقولوا : لا إله إلا الله ، فيمنعوا بها أنفسهم وأموالهم . . ولكنهـــم رفضوا الإسلام . . وآثروا المقاومة مع البقاء على الضلال . .

وابتدأ التراشق بالنبال . . وعاد جيش بنى المصطلق يجمع صفوفه . . واشتبك الفريقان . . وكان حتما أن ينهزموا أمام جند الإيمان . . وقد قتل عشرة منهم . . واستسلم للأسر الآخرون ، وحتى باقى القبيلة : نساؤها وصغارها وما تملك من أموال ومعدات ومواشى . .

وقد استشهد من المسلمين : هشام بن صبابة — من بنى كلب — وقتل خطأ

بيد أحد الأنصار . . وتسمى الغزوة كذلك (غزوة المريسيع) باسم الماء الذى جرت عـــده المعركـــة . .

وكان من ضمن الأسرى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار . . وجاء هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالب بها . . فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن فكر فى جذب القـــوم إلى الإسلام بطريقة المصاهرة . . فخطب (جويرية) لنفسه من أبيها ، فلاقى ترحيبا وتزوجها . . وعمرها آنذاك عشرون سنة . .

وبسبب هذه الخطوة الموفقة . وكل خطواته عليه الصلاة والسلام — مكتوب لها التوفيق والنصر . . أطلق جميع الأسرى من بنى المصطلق . . وعاد إليهم كل ما أخذ من أموال وسبى . . وما عتمت القبيلة جمعاء أن دخلت فى الإسلام مـــع سيدها الحارث بن أبى ضرار . . وكتبت لها الحياة الطيبة الآمنة . .

نفاق لم يسبق له مثيل

المنافقون يهتبلون أية فرصة ، ويبحثون عن ثغرة يلجون منها بسمومهم . . وليظهروا كيدهم بالمسلمين . . ويسببون لهم من القلاقل والمشاكل ما يستحقون عليها أشد الجزاء ، بل والقتل كما كان ينادى به بعض الصحابة . . لبتر مصدر الشر والإفساد . . وإبعاد السيئة عن المجتمع الإسلامى الجديد . .

وقد حدث وجيش المسلمين لم يغادر بعد ديار بنى المصطلق . . أن كان البعض منهم يستقى ويسقى خيله ، واشتد الزحام على بئر الماء ، وفيهم : جهجاه بن مسعود — خادم لعمر بن الخطاب — يسقى فرسه ، فالتحم مع سنان بن وبر الجهنى — وهو حليف للأنصار . . وتصايح الاثنان ، واشتبكا مع بعضهما البعض . . فنادى جهجاه : يامعشر المهاجرين ، ونادى سنان : يامعشر الأنصار .

وتحرك عنصر النفاق عند عبد الله بن أبي بن سلول — وقد سمع بالنداء — فحدث بعض رفاقه : أو قد فعلوها : قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، أما والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : (سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . .

وصاح في قومه بكلمات يستثيرهم فيها ، ويصغر من شأن المسلمين . . فقام الفتى زيد بن الأرقم وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلعه على ما سمع من الرجلين وابن أبي بن سلول . . فإذا بعمر بن الخطاب يستأمره في قتل ابن سلول ، ولكنه قال عليه الصلاة والسلام : فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ولكن أذن بالرحيل . . ليشغل الناس عما كانوا يخوضون فيه . .

وحين علم ابن أبي بن سلول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغه ما تكلم به ذهب إليه وأنكر أنه قال ما قال ، وقد حلف على كذبه هذا . .

ولما التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسيد بن حضير ، قال هذا بعد التحية : (يانبي الله ، والله لقد رحلت في ساعة منكرة ، ما كنت تروح في مثلها) . وهذا يعني ساعة قيامهم بالرحيل عند الظهيرة في غير حينه . . فرد عليه صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ فقال أسيد : وأي صاحب يارسول الله ؟ فرد عليه : عبد الله بن أبي ، قال أسيد : وما قال ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . فقال أسيد : فأنت يارسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز . . وبعد لأي عاد يقول : ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا . .

وبعد المسير بيومين ، أنزل الله تبارك وتعالى سورة المنافقين ، وفيها صحة ما نقله ابن الأرقم من مقالة ابن سلول السيئة ، قال تعالى :

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) . .

وقبل هذه الآية ببضعة آيات أخبر الله تعالى عن حلف المنافق :
(اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . .

وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبى ما نزل بحق أبيه . . فقصد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاوره فيما لو أراد قتله ، وأنه سيتولى هذا الأمر ، لأنه لايقوى أن يرى قاتل أبيه ، وقد يضطر إلى قتل مؤمن بكافر . . فهون عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذ قال : بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا . .

كم أنت كبير القلب ، واسع التسامح ، لطيف المعشر ، عظيم الرأفة ، ياسيدى يارسول الله . . عليك صلاة الله وأزكى تسليماته ، وجزاك الله عن أمتك خيرا . كل الخير والوسيلة والشفاعة التى ينتظرها المؤمنون منك يوم الحساب .

حديث الإفك

فى غزوة بنى المصطلق . . اصطحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهله السيدة عائشة — رضى الله عنها — وكان من عادته — عند خروجه إلى الغزوات — أن يقترع بين أزواجه ، فأيها خرج سهمها صحبها معه . .

ونترك هنا السيدة عائشة الصديقة ابنة الصديق تتحدث بنفسها عن الخبر كما حدث — لا كما أرجف به المنافق ابن أبى بن سلول ، وصدقه آخرون — وتشرح مقالتهم . . قالت رضوان الله عليها تستكمل ما بدأته :

(وكنت إذا رحل لى بعيرى جلست فى هودجى ، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملوننى ، فيأخذون بأسفل الهودج ، فيرفعونه فيضعونه على ظهر

البعير ، فشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، وجه قافلاً ، حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى فيه جزع ظفار ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى ، فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ، فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم خلافى الذين كانوا يرحلون لى البعير ، وقد فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه ، كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى ، فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى[1] ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فلما رآنى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا متلففة فى ثيابى ، قال : ما خلفك يرحمك الله ؟ . فما كلمته ، ثم قرب البعير ، فقال : اركبى . واستأخرى عنى ، فركبت ، فأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، فارتج العسكر ، ووالله ما أعلم بشئ من ذلك

ثم قدمنا المدينة ، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغنى من ذلك شئ ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أبوى لا يذكرون لى منه قليلا أو كثيرا ، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بى ، كنت إذا اشتكيت رحمنى والطف بى ، فلم يفعل ذلك بى فى شكواى

(١) تخلف صفوان لأنه (كان على ساقة العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين) .

تلك ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضنى ، قال : كيف تيكم ؟ لايزيد على ذلك ، حتى وجدت فى نفسى ، فقلت : يارسول الله - حين رأيت ما رأيت من جفائه لى - : لـــو أذنت لى فانتقلت إلى بيت أمى فمرضتنى ، قال : لا عليك فانتقلت إلى أمى ، ولا علم لى بشئ مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عربا لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرهها ، إنما نذهب فى فسح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت أمها بنت صخر ابن عامر بن كعب - خالة أبى بكر الصديق - فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح (ومسطح لقب واسمه عوف) ، قلت : بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا . قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ ، فأخبرتنى بالذى من قول أهل الإفك ، قلت : أو قد كان هذا ؟ قالت : نعم والله لقد كان ، فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟ قالت : أى بنية خفضى عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها . .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا الخير ، ويقولون ذلك لرجل ، والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى) . .

وأضافت عائشة : (وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش ، وذلك أن أختها (زينب بنت جحش) كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من نسائـــه

امرأة تناصبني في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله تعالى في دينها فلم تقل إلا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش ، فأشاعت من ذلك ما أشاعت ؟ تضادني لأختها ، فشقيت بذلك . فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قال أسيد بن خضير : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج ، فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . .

وقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يرى رجلا صالحا ، فقال : كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ، فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين . .

وتساور[1] الناس ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل علي ، فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على خيرا ، وقال : يارسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل ، وأما علي فإنه قال : يارسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك . .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ليسألها ، فقام إليها علي بن أبي طالب ، فضربها ضرباً شديدا ويقول : أصدقي رسول الله ، فتقول : والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا أني كنت أعجن عجيني ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله . . . .

ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندي أبواي وامرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي معي ، فجلس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) قام بعضهم إلى بعض .

ياعائشة ، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . .

فوالله ما هو إلا أن قال لى ذلك ، فتقلص دمعى ، حتى ما أحس منه شيئا ، وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتكلما ، وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله فى قرآناً يقرأ فى المساجد ويصلى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئا يكذب به الله عنى ، لما يعلم من براءتى ، أو يخبر خبراً ، فأما قرآن ينزل فى ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك ، فلم أر أبوى يتكلمان ، قلت: لهما : ألا تجيبان عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : والله لانـــدرى بمـــاذا نجيبـــه . .

ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام ، فلما استعجما على ، استعبرت فبكيت ، ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لاتصدقوننى ، قالت : ثم التمست اســـم يعقوب فما أذكـــره ، فقلت : ولكن ســـأقول كمـــا قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) . . فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فأما أنا ــ حين رأيت من ذلك مـــا رأيت ــ فوالله ما فزعت ولا باليت ، قد عرفت أنى بريئة ، وأن الله عز وجل غير ظالمى ، وأما أبواى ، فوالذى نفس عائشة بيده ، ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس ، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان فى يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : (أبشرى يا

عائشة فقد أنزل الله براءتك) . . قلت : بحمد الله ، ثم خرج إلى الناس ، فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان ابن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، فضربوا حدهم .

وهذه آى القرآن الكريم عن أصحاب خبر الإفك . . فقد قال تعالى :
(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عــذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهــو عند الله عظيم) . .

وعبارة (والذى تولى كبره) تعني عبد الله بن أبى بن سلول ورفاقه . . كما أن عبارة (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) تعني حسان ومن صدق بذلك الافــتراء . .

وقد كانت لمسطح قرابة من أبى بكر الصديق ، فكان ينفق عليه لحاجته ، فحلف أن لا يواصل إنفاقه بسبب تلك الفرية الأثيمة ، فأنزل الله تعالى قوله : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) . .

ولحسان بن ثابت . شعر يعتذر فيه عن مقالته مع من قال بالإفك ، وفيه قال عن السيدة البريئة عائشة الصديقة (الزوج والحبيبة والأثيرة) :

حصان رزان ما تزن بريبــة وتصبح غرثى من لحوم الغوافــل
مهذبة قد طيب الله خيمهــا وطهرها من كل سوء وباطــل
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتم فلا رفعت سوطى إلى أناملــى
وكيف وودى ماحييت ونصرتى لآل رسول الله زين المحــافل
فإن الذى قد قيل ليس بلائــط ولكنه قول امرئ بى ماحــل

عدد كبير من القبائل والأعراب ، تحزبوا واشتركوا فى تكوين جيش بلغ نحوا من عشرة آلاف مقاتل . . ولقد توحدت غايتهم وقيادتهم مع قريش وأتباعها من قبائل كنانة وتهامة ونجد وغطفان . .

وكان لكبار اليهود دور فى هذه الحملة الضخمة . . فهم يقولون لكبار قريش : (إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله) وهم يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولعنهم الله حيثما كانوا . .

جرى هذا من قبل ، واستقر المشركون على تنفيذه فى شهر شوال . . وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك التحرك الإجماعى الجديد من ملة الكفر . . ولم يكن أمامه إلا صد العدوان ودحر رجاله المتآمرين ولو كانوا أضعافاً مضاعفة من تعداد جنده المؤمن . . فتشاور مع صحابته حتى آعد منهم ثلاثة آلاف فارس ، كانوا فى مستوى العمل الكبير الذى يقومون به فى سبيل الله وجهاد المشركين .

وبعد أن استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم على المدينة ، خرج فى جيشه . . وقد اعتزم معهم القيام بخندق طويل أمام جبل سلع ، وهــم يقيمون خلفه معسكرهم ، وتصطف فرق الجيوش بتوزيعات يفهم منها الكثرة وقوة الاستعداد . . واشترك عليه الصلاة والسلام مع صحابته فى الحفر ، حتى إذا اعترضت أحدهم صخرة ، جاء صلى الله عليه وسلم يضربها فتلين أمامه . . وكلهم فى جهد متواصل لا يتوقفون إلا لحاجة يستأذنون فيها . . وتعنيهم الآية الكريمة فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) . .

بينما استأخرت فئة المنافقين عن القيام بالمشاركة فى عمل الخندق ، فعنهم قال تعالى : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) . .

فى تلك الأثناء كان المنافق حيي بن أخطب ، يلعب دوره مـــع يهود بنى قريظة ، حتى نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم بعض صحبه يستوثق من ذلك ، فتأكد له ، فإذا به يقول : (الله أكبر يامعشر المسلمين اشتد البلاء) . .

وهذا يعنى أن الله تعالى الكبير المتعال سيكون معهم كلما اشتد بلاء . . والمسلمون الصادقون لايرون فى تعدد البلاء إلا قرب الفرج . . ولقد انخذل من بينهم المنافقون الدساسون ، فقد استأذن بنو سلمة — وهم من بنى حارثة — من رسول الله صلى الله عليه وسلم للعودة إلى المدينة ، ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله:(**يقولون إن** بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا) . .

والتقى الجيشان أمام الخندق الذى امتد على طول شمالى المدينة . . وهى الجهة المفتوحة منها ، بينما باقى الجهات حرار وعرة ، وقد بنيت على جوانبها بعض المساكن كما أقيمت المزارع فى جوانب أخرى . . فلم يكن من منفذ يمكن الدخول منه إلى المدينة سوى الجهة الشمالية . .

وروى أن الصحابى سلمان الفارسى هو الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق . . وقد بلـــغ طوله نحو خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ما يقرب من تسعة أذرع ، أما عمقه فلا يقل عن سبعة أذرع . .

وعمل ضخم كحفر هذا الخندق خلال فترة زمنية قصيرة . ليعد من جلائل الأعمال البطولية التى قام بها جند الإيمان فى همة منقطعة النظير . . وكأنها المعجزات

كان الخندق محكم الحصار حول جيش الأحزاب الذى كان يناور ويحاول أن يجد المنفذ إلى جيش المسلمين الذين ينتظرون اللحظة التى يتقدم فيها المشركون ليسقوهم من كئوس النهاية الملأى على أيديهم . .

واتصلت الحال هذه نحو ثلاثة أسابيع ، وهم يقظون ، ويصدون بالنبل أية محاولة لعبور الخندق ، وهم يقولون ما قد روى الله عنهم فى قوله تعـــالى :

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) . . بينما المنافقون يرددون ما حكى الله عنهم فى قوله تعالى أيضا : (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) . .

ولقد كانت أمام المسلمين أكثر من جبهة يحاربون فيها . . فبعد أن نقض يهود بنى قريظة العهد ، توجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث بفرقة من الجيش لحماية المدينة ، وأن يأمر بإخراج النساء والأطفال منها إلى الحصون والآطام ، صيانة لهم ، وأن يجالد مع جيشه الصابر فى مواجهة العدو المتربص على طول الخنــــدق . .

وبقدر ما كان يصيب العدو من الخوف والجزع والجوع . . كان يصيب جيش المسلمين كذلك . . وقد تكاثر عليهم زحف العدو بكثافه من الجانب الذى فيه مقر رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد محاولة نجاح عبور فريق من العدو من مكان ضيق بالخندق وقد (جالت الخيل بهم فى السبخة بين الخندق وسلع) ، فتصدى لهم على بن أبى طالب مع بعض الفرسان تجمهروا أمام الثغرة التى اقتحمت.

وتقدم من قريش (عمرو بن عبد ود) لمبارزة (على) الذى قال له . إنى أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، فأجابه عمرو : لا حاجة لى بذلك ، فقال على : فإنى أدعوك إلى النزال . . فرد عمرو : لم يا ابن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، فقال على : لكنى والله أحب أن أقتلك . . واستثار عمرو ، واندفع خيله ليلقى حتفه بسيف على . . وكانت خيـــل المسلمين تتحرك فى شوق بمن عليها للمبارزة . . ولما رأى المشركون مصرع قائد منهم تراجعوا هاربين ليعبروا الثغرة التى اقتحمــــوها . .

ويصور القرآن الكريم ما أصاب المسلمين من كرب فى هذه الموقعة ، فقال جل وعلا : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحنــــاجــــر) . .

ولكنه سبحانه أيدهم ، وأرسل على عدوهم ريحاً صرصراً تقتلع خيامهم وتطفئ نيرانهم وتبدد حاجاتهم ، حتى فزعوا . . وكان خلاف قد دب بين قياداتهم ، حتى تشاوروا فى الانسحاب . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو عليهم : (اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب) . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — لعظم الجهد الذى أصاب المسلمين — أراد أن يعقد صلحاً مع رئيسى غطفان : عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، على ثلث ثمار المدينة ، وعرض الأمر على كل من : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة . . فقالا له : يارسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيئا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف . .

ووجد صلى الله عليه وسلم منطق القوة المؤمنة يعلو أمامه ، فقال لهما : إنما هو شئ أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة . .

وفى نفس الوقت هدى الله أحد بنى غطفان : نعيم بن مسعود بن عامر ، وجاء يعلن إسلامه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : إنى أسلمت فمرنى بما شئت ، فرد عليه : إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة . .

وهكذا قام هذا الرجل الذى آمن لتوه بدور خطير وجليل . . فقد راح يقصد (بنى قريظة) كنصيح لهم : (إنكم قد حاربتم محمدا ، وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا استمروا راجعين وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم) . . فسألوه : فما العمل يانعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن ، فأجابوه : لقد أشرت بالرأى ، وهم يجهلون أنه أسلم . .

وراح كذلك (نعيم) إلى قريش ينصحهم : تعلمون ودى ونصحى لكم ؟ أجابوه : نعم ، فقال لهم : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم . .

وبمثل هذه المقالة أيضا ذهب (نعيم) إلى بنى غطفان يخادعهم . . وتمت الخدعة ، وتراسل الأطراف الثلاثة ، فإذا هم فى فرقة وشتات . . وإذا بكل فريق يتخاذل ويود الانسحاب . . حتى بعث الله عليهم تلك الريح العاصفة ، تدفع بهم إلى الهرب من أمام الخندق ، وتعجل برحيلهم مستائين مغمومين ، عليهم الضعة والذلة . . بعد ما كانوا حزباً واحدا جاءوا للدمار ، فدمرهم الله وأخزاهم .

وقد قتل منهم أربعة جنود . . بينما خسر المسلمون ثمانية شهداء — رضى الله عنهم ورحمهم . . ومضى أكثر من شهر عندما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيشه الباسل إلى المدينة . . مستبشرين عـلى أن كبت الله عدوهم ، وشتت الأحزاب ، ورد غيظ الكفار إلى نحورهم . . وتسمى كذلك هذه الغزوة (غزوة الخندق) باسم الموقع الذى تم فيه حفره — كعمل حربى جديد . .

ابادة بنى قريظة

لم يعتبر بنو قريظة بما جرى من قبل بإجلاء بنى قينقاع وبنى النضير . . فطباع اليهود لا تتهذب ولا تحافظ حتى على سلامتها نفسها . . وديدنهم التخريب عبر كل العصور ، وإثارة الفرقة والنعرات ، وخلق العداوات بين كل من جاورهم . . وحقدهم خاصة بالمسلمين وبرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صبر عليهم حتى جاءه من الله نداء قتلهم ، وتطهير بلده الطيب منهم . .

فما كاد صلى الله عليه وسلم يصل المدينة ، ويضع سلاحه حتى أتاه جبريل عليه السلام — وقد اغتسل الرسول فى بيت أم سلمة — يقول له : أو قد وضعت

السلاح يارسول الله ؟ فأجابه : نعم ، فعاد جبريل يقول : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم . .

أمر من ربه تعالى . . وملائكته يناصرونه على أعداء الدين . . أعداء الحياة . وقد أنزل سبحانه بشأن يهود بنى قريظة فى نقضهم للمعاهدة وخروجهم مع الأحزاب ، فقال جل وعلا : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) . .

وبأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى منادى الجهاد إلى المسلمين : (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة) . .

وأقر رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ابن أم مكتوم السابقة على المدينة وأعطى الراية إلى على بن أبى طالب يتقدم إلى بنى قريظة . . بينما الجيش المؤمن خلفه بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ورجع إليه قائلا : يارسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الخبائث ، قال : أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ فرد عليه على : نعم يارسول الله ، قال : (لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا . .)

فلما اقترب من حصونهم صلى الله عليه وسلم قال لهم : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله ، وأنزل بكم نقمته ؟ فأجابوا قائلين : يا أبا القاسم ما كنت جهولا . .

وفى الطريق إليهم سأل صلى الله عليه وسلم بعض صحابته ممن كان فى موضع قرب المدينة يدعى (الصورين) : هل مر بكم أحد ؟ فأجابوه : يارسول الله قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبى ، على بغلة بيضاء عليها رحاله بقطيفة ديباج ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ذلك جبريل ، بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم) . .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه عند (بئر أنى) القريبة من أموال بنى قريظة ، وحاصروهم خمسا وعشرين يوما . . من شهر ذى القعدة . .

فى أثناء ذلك كان يدور حوار وجدال لم يسفرا عن جدوى مع هؤلاء اليهود — كما جرى تفصيله فى كتب السيرة — وانتهى إلى أن ارتضى أخيرا (بنو قريظة) مكرهين على حكم سعد بن معاذ فيهم ، والذى قال أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والأطفال) . . هكذا حكموا على أنفسهم . .

وقد نادى على بن أبى طالب بين رفاقه متقدما بالجيش نحو حصون بنى قريظة ، ومعه الزبير بن العوام : ياكتيبة الإيمان ، والله لأذوقن ما ذاق حمــزة أو لأفتحن حصنهــم . .

فصاح اليهود : يامحمد ننزل على حكم سعد . .

وبأيدى فرسان المسلمين تم إعدام رجال بنى قريظة عن آخرهم بسوق المدينة القديم ، وقد أعدت لهم خنادق ردموا فيها ، فى حين اقترب عددهم من السبعمائة . . فيهم : ابن أخطب — زعيم التآمر والفتن وزميله كعب بن أسد . .

وقد أورد الله تعالى خبرهم ، فى سورة الأحزاب مفصلة — حتى قال سبحانه (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأمــوالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديرا) . .

وقد ذكر فى تفسير (أرضا لم تطئوها) بأنها خيبر التى سيأتى خبر إجلاء يهود عنها نهائياً . . لتنتهى شرورهم من جزيرة العرب . . ديار الإسلام الأولى .

وكما أوضح القرآن نهاية بنى قريظة المحتومة ، ذكر فشل الأحزاب من قبلهم . .
فقال تعالى : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) . .

وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار) . .

فى نهاية الحديث عن إبادة بنى قريظة . . لابد أن نشير إلى أن سعد بن معاذ — كبير الأوس — الذى حكم على يهود قريظة بالإبادة ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات) . . كان قد أصيب بسهم فى (غزوة الأحزاب) . . وكان يدعو الله أن لا يميته حتى تقر عينه من يهود قريظة . . فلما تحقق رجاؤه بنهايتهم المحتومة ، وانهزم الأحزاب قبلهم ، دعا الله فقال : (إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها) وهو يعنى الحرب مع قريش ، ثم جرحه الذى كان على وشك البرء . . ولم يستكمل يوما حتى انفجر جرحه بسيل دم غزير وكان السبب فى وفاته ، وقد اطمأن نفسا وهدأ بالا ، وهو يحمد الله . . وأمه كبشة بنت رافع الأنصارية ، ويروى أنها أول من بايع من نساء الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد عزاها فى فقد سعد وهى على قبره آسية حزينة ، وقد بكته ، وقالت حين احتمل نعشه :

ويـــــل أم سعد سعدا صرامـــــة وحـــدا
وسؤددا ومجـــــــدا وفــــــارسا معـــدا
سد بــــــه مسدا يقـــــدها ماقـــدا

* * *

وفى سورة الأحزاب كذلك ، نزلت آية الحجاب كفضيلة وصيانة لزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزوجات المؤمنين ، من الإيذاء والتعرض للشبهات . . وكان أول ما نزل بشأن زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومطلب تكريمهن ، إلى أن قال سبحانه وتعالى : (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) . . ثم أنزل الله تبارك وتعالى قوله :

(يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما) . .

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : (أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجـــوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينـــــا واحـــدة) . . .

وعن نزول هذه الآية كذلك ، روى عن صفية بنت شيبة عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن ما يشبه الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها . .

وقال تعالى بعد ذلك فى سورة النور : (وقل للمؤمنات يغضضن مـــن أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيـــوبهـــن) . .

ومما يؤكد حجاب وجه المرأة عن غير محارمها ، قول عكرمة فى تفسير الجلباب : (تغطى ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها من أعلى) . .

وهذا أدب شرعى درءاً للمفاتن والمساوئ . . وقد روى (السدى) فى آية الحجاب قوله : (كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل ، حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، فيعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ،

فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها حلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها) . .

وهكذا يعتبر الحجاب تهذيبا خلقيا رفيعا فى المجتمع الإسلامى النظيف .

فريضة الحج

كان الحج مفروضا منذ عهد النبى إبراهيم عليه السلام . . وقد جاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى يوجهه إلى الخليل :

(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . . ثم أنزل الله تعالى على نبيه الهادى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم — فى سورة آل عمران — هذه الآية الكريمة :

(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين)

وقد قيل بأن هذه الآية سبق أن نزلت فى السنة الرابعة للهجرة ، غير أن بعض المفسرين يذكرون عن نزولها بعد غزوة الأحزاب . .

ولم يستطع المسلمون أداء نسك الحج أو العمرة قبل هذا العام لاعتراض قريش سبيلهم ، وكما سنعرف عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أداء فريضة العمرة يوم الحديبية ، مع صحابته ، وما قد واجهتهم به قريش من منع وتمرد ، حتى اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يساير الواقع إلى أجل ، ويوقف شر القتال

والحج والعمرة — مرة واحدة يؤديها المسلم والمسلمة طيلة عمرهما . . وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الحج مرة فمن راد فهو تطوع)

وستتعرف على مناسك الحج ، عندما يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام العاشر للهجرة . . وهو يكمل لأمته شرائع دينهم الحنيف . . وكأنما كان يعرف فيودعهم . . ويودع إليهم أمانة هذا الدين الذى يصلحون به ما داموا قائمين به . . عاملين على ما أرشد إليه من خير ، مجتنبين ما نهاهم عنه من سيئات . . لتكتب لهم الحياة الخالدة يوم لا وجه إلا وجهه سبحانه وتعالى . . إليه الحكم وإليه يرجعون

العام السادس للهجرة

** يوم الحديبية

** سرايا .. وغزوات

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)

** قرآن كريم **

سرية محمد بن مسلمة

السرايا تستمر ما دام فى القوم جاهلية ، وفى الناس كفر . . وما دام بين القبائل والأعراب من يفكر فى اعتراض سبيل المسلمين أو التجمع ضدهم . .

وفى أوائل شهر المحرم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى محمد ابن مسلمة ومعه ثلاثين صحابيا . . فى اتجاه طريق البصرة ، ويقصدون إلى ديار بنى بكر بن كلاب ، حتى وصلوا إلى قريتهم (ضرية) — وهى إلى مكة أقرب من البصرة — وهناك وجدوا القوم لا يقبلون بالإسلام ، فاشتبكوا مع رجالهم ، وقتلوا منهم عشرة ، بينما هرب الآخرون . . فاستولوا على أموالهم من الإبل والغنم التى أربت على الثلاثة آلاف رأس ، ثم عادوا بها إلى المدينة . .

وفى أثناء عودة السرية ، وجدوا أمامهم رجلا غريبا فأسروه ، وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فاتضح أنه (ثمامة بن أثال الحنفى) من زعماء بنى حنيفة . . فأطلق سراحه وأحسن رعايته ، ثم عرض عليه الإسلام ، ولم يلبث وهو يرى تعامل المسلمين الكريم وصلواتهم حتى أسلم ، وكان سببا فى إسلام كثير من قومه ، بعد أن ذهب إلى مكة واعتمر مشهرا إسلامه لا يخاف من قريش التى كانت تخشى من أن يتعرض أحد له بسوء ، فيقطع عنها حبوب اليمامة . . وبالرغم من سلامته فقد حلف أن يحرمهم من الحبوب حتى يسلموا ، واستجاروا برسول الله صلى الله عليه وسلم — يوسط لدى ثمامة — يعيد إليهم الإرساليات الأولى ، فاستجاب لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعادها لهم .

ولعل أهم ما يذكر لثمامة هذا — وقد حسن إسلامه — أن منع أتباعه من الاستجابة إلى الأفاق (مسيلمة الكذاب) الذى ظهر فيما بعد لإضلال الناس فكان ثمامة يقول لقومه : (إياكم والأمر المظلم الذى لا نور فيه إنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه) . .

سرية عكاشة بن محصن

تكونت سرية عكاشة بن محصن — من أربعين جنديا . . وقد أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى أسد . . فسار بهم ، وما كادوا يصلون إلى ماء الغمر لبنى أسد بطريق مكة . . حتى ولى القوم فارين من جند المسلمين ، تاركين رجلا نائما . . فأمنه عكاشة على حياته إذا هو دل على ماشيتهم ، فأجابهم بصدق ، فاستولوا عليها — وكانت مائتين من الإبل — وعادوا بها إلى المدينة ، ولم يكن شهر ربيع الأول قد انتهى . .

سريتان إلى ذي القصة

فى نفس شهر ربيع الأول أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بسرية تأديبية إلى قوم فى (ذى القصة) — وهى فى طريق الربذة — وتبعد عن المدينة بنحو أربعة وعشرين ميلا وذلك عندما بلغه أنهم يبيتون الإغارة على مواشى المدينة ، وهى ترعى بالهيفاء . . وكانت تلك السرية من عشرة جنود بقيادة محمد ابن مسلمة . . وقد واجهوا كمينا من المشركين الذين لم يحدثوا أية حركة تدل عليهم ، عندما قدمت السرية فى الليل . . فراقبوها ، حتى نام أفرادها ، وراحوا يرشقونهم بالنبل ، فما كان من الجند المؤمن إلا أن هب إلى سلاحه ، وقاتلوهم فى ضراوة وبسالة . . ولكن المشركين كانوا نحو المائة ، فغلبوهم بالكثرة وقتلوهم عن آخرهم ، وما بقى على رمق سوى محمد بن مسلمة الذى حمله رجل من المسلمين — كان ماراً بذى القصة — وأوصله إلى المدينة . .

فتألم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقع ، وبادر فى الحال بإرسال سرية أخرى قوامها أربعون جنديا برئاسة أبى عبيدة عامر بن الجراح . .

وعندما وردت السرية إلى ذى القصة ، كان القوم هناك قد هربوا . . فقنص لهم أبو عبيدة ورفاقه ، حتى تعرف على منازلهم وخيامهم . . فانقضوا عليهم فيها ، ولم يكن بها غير أمتعتهم وماشيتهم ، فاستولوا عليها وعادوا بها إلى المدينة .

أربعة سرايا لزيد بن حارثة

أولى السريتين فى شهر ربيع الثانى . . لتأديب بنى سليم الذين كانوا قد شاركوا الأحزاب فى حملتهم عند الخندق ، وكانوا يتحركون للإساءة لمن يعبر بديارهم من المسلمين . .

فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية زيد بن حارثة مع بعض من الجند — لم يحدد المؤرخون عددهم — فسار بهم حتى وصل إلى منطقة الجموم ، وتبعد عن المدينة بأربعة أميال . . وهناك وجد القوم قد ارتحلوا . ولم يجدوا سوى (امرأة من مزينة) أسروها ودلتهم على موضع لبنى سليم فيه من أموالهم : الإبل والشياه ، وزوجها يرعى عليهم ، ومعه بعض رجالهم . . فأسرهم زيد ورفاقه ، وسحبوهم والأموال إلى المدينة . . وبها أعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل إلى زوجه عطفاً منه وإحسانا . .

أما السرية الثانية ، فقد تمت فى أوائل شهر جمادى الأولى ، بعد أن وصل إلى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تجارة لقريش قادمة من الشام فى طريقها إلى مكة . . فأرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة مع مائة وسبعين من جنده ، يلاحقون القافلة . . وقد أدركوها على الساحل بموضع يسمى (العيص) ، وطوقوها واستولوا عليها وأسروا من كان معها . . وفيهم العاص بن الربيع — زوج زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد تكلمنا عن خبره عند الحديث عنها — وكان بالقافلة من الأموال فضة كثيرة لصفوان بن أمية . . وعيرا ملأى بشتى الغنائم . . يستعين بها المسلمون فى تحسين أحوالهم المعيشية . .

والسرية الثالثة فى شهر جمادى الآخرة . . وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وبصحبته خمسة عشر فارسا ، للانتقام من بنى ثعلبة الذين غدروا بسرية محمد بن مسلمة وأبادوا رجالها . . ولهم موضع يبعد ستة وثلاثين ميلا عن المدينة ، ويسمى (الطرف) . . وعندما أحسوا بمقدم سرية زيد

ولوا هاربين تاركين ماشيتهم وغنائمهم ، فاستولى عليها زيد ورفاقه ، وعادوا بها إلى المدينـــة . .

أما السرية الرابعة [1] ففي شهر جمادى الآخرة كذلك . . ذلك أن الصحابى دحية الكلبي ، جاء يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث له وهو فى طريقه من بلاد الروم ، وقد كانت معه هدايا من ملك الروم وتجارة له ، وعند مروره على قرية تعرف باسم (جسمى) خلف (وادى القر) بالشمال ، هاجمه رجال من جذام وفيهم الهنيدى بن عارض وابنه ، واستولوا على ما قد كان معه . . غير أن رجالا من بنى الضبيب أتباع رفاعة بن زيد الجذامي — الذى سبق له أن أسلم — حالما عرفوا ذلك ، توسطوا إلى الهنيدى وأخذوا منه ما استلبه وأعادوه إلى دحية الكلبي . . وهذا أمر لم يكن ليسكت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعد جيشا قوامه خمسمائة جندى ، يتقدمهم زيد بن حارثة ، ومعهم رجل من بنى عذرة كدليل يرشدهم إلى حيث يقصدون . .

وإذ وصلوا إلى قريب من وادى القر ، وجدوا ركب الهنيدى وابنه ، فقتلوهما واستولوا على جميع غنائمهم ونسائهم وصغارهم . . فعلم بذلك رفاعة ابن زيد الجذامى ، فما كان منه إلا أن ركب مع بعض أتباعه ، وقصد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، يخبره بما حدث ، ويقدم له الكتاب الذى سبق أن كتبه له صلى الله عليه وسلم عندما أسلم . . فقال له : كيف أصنع بالقتلى ؟ فرد أبو يزيد بن عمرو : (أطلق لنا يارسول الله من كان حيا ، ومن قتل فهو تحت قدمـــى هاتـــين) .

فأجابه صلى الله عليه وسلم : (صدق أبو يزيد) . . ثم نادى على بن أبـــى طالب يأمره بالمسير إلى زيد بن حارثة لإرجاع كل ما كان قد استولى عليه من القوم . . وهكذا عادت إلى بنى جذام أموالهم وأسراهم ، واطمأنوا . .

---

(١) أجملنا السرايا الأربعة فى قسم واحد ، لكونها كلها بقيادة زيد بن حارثة ، ولذا تأخر قسم (غزوة بنى لحيان) إلى ما بعد الانتهاء من ذكر هذه السرايا .

غـــزوة بنى لحيـــان

الشهداء الأبرياء العشرة الذين لاقــوا حتفهم فى بنى لحيان بتلك الخدعة المدبرة . . كانوا مصدر تفكير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وود لو انتقم لهم .

وفى أوائل شهر جمادى الأولى ، استعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج برجاله المائتين ، وقصد بهم إلى ديار القوم ، سالكا طريق الشام ، ليفاجئهم من حيث لم يحتسبوا . . وينفذ فيهم عقابه ، جزاء جريمتهم الشنعاء تلك . .

غير أن القوم كانوا على حذر يتطلعون إلى أية حركة . . وإذ وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجنده إلى منازلهم بوادى غران — بين أمج وعسفان — نفروا وتبدد جمعهم إلى أعالى الجبال مذعورين . .

فتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لصحبه : لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة . .

فسار بهم إلى وادى كراع الغميم — بين مكة والمدينة — ثم جنح بهم إلى طريق المدينة آيباً بسلامة الله . .

وروى عن جابر بن عبد الله أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين وجه راجعا : (آيبون ، تائبون ، إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر بين الأهل والمال) . .

غـــزوة ذى قـــرد

فى جمادى الأولى أيضا ، حدث أن أغار جماعة من غطفان بقيادة عيينة بن حصن بن حذيفة الفزارى على إبل حوامل بالغابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابن أبى ذر الغفارى وزوجه ليلى . . فاستلبوا الإبل والمرأة ، وقتلوا زوجها ،

وكان أول من علم بهم سلمة بن عمرو الأسلمى ، فأسرع على خيله ومعه

غلام لطلحة بن عبيد الله ، حتى ارتقى ثنية الوداع ، وهو يبصر خيول المعتدين ، فيصيح : واصباحاه ، ثم يعدو نحوهم ، وهو متوشح قوسه ونبله حتى أدركهم ، وراح يرشقهم بالنبال ، ويصيح بهم :

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع . .

والراضع هو اللئيم . .

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجرى ، وسمع بصياح سلمة بن عمرو بن الأكوع . . فنادى بالناس : (الفزع الفزع) . .

وأقبل صحابته الفرسان على خيولهم ، وفيهم المقداد بن عمرو وعكاشة بن محصن وسعد بن زيد . . وسواهم ، فطلب منهم الإسراع بالخروج إلى المعتدين ، بقيادة سعد بن زيد ، ريثما يجند آخرين ويلحق بهم . .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج والناس يتلاحقون خلفه ، حتى وصل إلى جبل بجوار ماء ذى قرد ، وبه نزل . .

وكان الذين سبقوه قد لحقوا ببعض السرح المنتهب ، واشتبكوا مع المعتدين . . وقد قتلوا منهم عدداً ، كما قتل منهم : محرز بن نضلة الأخزم ، ووقاص بن مجزز المدلجى ، استشهدا بعد أن أبليا البلاء الحسن . . واستطاع المسلمون إعادة بعض الإبل ، وكان سلمة بن الأكوع يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (يارسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح ، وأخذت بأعناق القوم) . . فرد عليه صلى الله عليه وسلم : (إنهم الآن ليغبقون فى غطفان) . .

وهذا كناية عن أنهم أدركوا بلادهم وهم يسقون لبن الإبل بالليل . .

سرية إلى بنى فزارة

هناك روايتان لهذه السرية . . ويمكن أن تكون هناك سريتان إلى بنى فزارة . . فقد روى فى صحيح مسلم عن الصحابى سلمة بن الأكوع السلمى قال :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق إلى فزارة ، وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشنينا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل جيش أبى بكر من قتل ، ورأيت طائفة منهم الذرارى فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل ، وأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا وفيهم امرأة — وهى أم قرفة — عليها قشع من أدم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر ، فنفلنى أبو بكر رضى الله عنه ابنتها ، فلم أكشف لها ثوبا ، فقدمنا المدينة ، فلقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ياسلمة هب لى المرأة لله أبوك ، فقلت : هى لك يارسول الله . . فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا فى أيدى المشركين . .

تلك رواية . . أما الرواية الأخرى ، فلبعض مؤرخي السير . . وفيها يذكرون بأن الذى جاء بالمرأة أم قرفة وابنتها هو زيد بن حارثة ، حينما خرج بارا بنذره إلى بنى فزارة ، لينتقم منهم جزاء ما فعلوه به وأصحابه ، عندما كان عائدا فى تجارة من الشام ، وهاجمه بنو فزارة فى وادى القرى ، وضربوه وأصحابه حتى ظنوا أنهم قتلوا ، واستولوا على ما كان معهم . . لهذا كان نذر ابن حارثة ، بعد أن برئ ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جند من الفرسان . . غير أنهم لم يلحقوا بأحد من الأعداء الذين كانوا متربصين بالطرق ، ويفرون إذا رأوا غزاة كثيرين عن بعد ، وكان حدوث هذه السرية فى شهر رجب . .

سرية عبد الرحمن بن عوف

سبق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن غزا قبيلة (بنى كلب) بدومة الجندل . . وأراد أن يجدد عليهم الكرة بسرية أرسلها فى سبعمائة مقاتل ، يرأسهم عبد الرحمن بن عوف . . بعد أن نصحه قائلا : (اغز باسم الله وفى سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله ، لا تغل ولا تغدر ولاتقتل وليدا ، إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم) . . أى رئيس القبيلة ، وهو الأصبغ بن عمرو الكلبى النصرانى .

وعندما وصل عبد الرحمن بن عوف وجنده إلى دومة الجندل ، بقى بها ثلاثة أيام ، يدعو القوم إلى الإسلام ، حتى استجاب الأصبغ وأعلن إسلامه وراح الكثير يسلمون من بنى كلاب . . أما من أبى واستقر على دينه ، فقد فرضت عليه الجـــزيـــة . .

وكوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد تزوج عبد الرحمن بن عوف بابنة الأصبغ (تماضر) ، فهى أم أواخر بنيه . .

وعاد إلى المدينة ورفاقه ، وقد كتب الله على أيديهم كسبا جديدا من القوم المسلمين المهديين إلى صراط الحق . . وكان ذلك فى شهر شعبان على أغلب الروايات.

سرية على بن أبى طالب

مدينة فدك على طريق خيبر ، بها ديار بنى سعد بن بكر . . وقد تفاوضوا مع يهود خيبر على أن يشتركوا فى مهاجمة المسلمين . .

وإذ علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، عقد سرية لعلى بن أبى طالب من مائة جندى . . وهذا فى شهر شعبان . . فخرج بهم حتى بلغوا (ماء الغمج) — بين فدك وخيبر — وإذا بهم يجدون رجلا حاول التضليل عليهم ، ثم اعترف بأنه رسول من بنى سعد إلى يهود لعقد اتفاق التجمع ضد المسلمين . . وذلك مقابل أن يحصلوا — كغيرهم — على بعض من تمور خيبر . .

واستصحب على بن أبى طالب مع جنده ذلك الرجل الذى كشف سر قومه وأقر عن وجود مائتى مسلح للقيام بتدبير هجومهم الأول . . واشترط على قائد السرية أن يؤمنوه إذا دل على أماكنهم . . فسار بهم على طريق ملتوية ، حتى وصلوا إلى مكان مرعى القوم وقد انتشرت فيه الإبل والأغنام . . بينما هم قد تشتتوا حالما أحسوا بمقدم أفراد السرية ، وهربوا خشية من الوقوف أمامهم . . فما كان منهم إلا أن استولوا على الغنائم وساقوها عائدين إلى المدينة . .

سرية عبد الله بن رواحة

بعد مقتل زعيم اليهود (سلام بن حقيق) فى خيبر ، تولى بعده أسير بن رزام الزعامة عليهم . . وقد ظل يتآمر ويفكر فى اليوم الذى يستطيع فيه أن ينفث سمومه ويحقق أغراضه الشريرة بالمسلمين . . فلما وجد الفرصة راح ينفذ نواياه ، ويدفع باليهود فى مغامرة جديدة قد تكون القاضية عليهم . . وقال لهم : والله ما سار محمد إلى أحد من يهود ، ولا بعث أحداً من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد ، ولكن سأصنع معه ما لم يصنع غيرى . فقالوا له : وما عسيت أن تصنع ؟ قال : سأجمع غطفان وغيرها من القبائل ، ونسير إليه فى عقر داره ، فإنه لم يغز أحد فى عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد. فقالوا له : نعم ما رأيت .

وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المؤامرة الشرسة على المسلمين ، فكلف عبد الله بن رواحة وثلاثة معه يخرجون لاستكشاف أمر هذا اليهودى فى السر . . فقامــوا بمهمتهم فى شهر رمضان ، وتوزعــوا على حصون خيبر ، بينما عبد الله بن رواحة دخل أحدها . . حتى شهدوا مدى الاستعدادات التى تدبر ضدهم ، ثم عادوا بعد أيام ثلاثة ، يطلعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما رأوا . . فيتفكر قليلا ، ثم يبعث بعبد الله بن رواحة ومعه ثلاثين جنديا ، لاستدعاء (أسير بن رزام) بخدعة تكون فيها الكمين له . . وإنهاء حياته . .

ويصادف وصول السرية إلى خيبر ، وعيد الفطر قد انتهى . . وقد قصدوا إلى (أسير بن رزام) ، وقال عبد الله بن رواحة : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، فأجابهم أن نعم ، وأضاف : ولى منكم مثل ذلك ، وهنا قال لــه عبد الله متأنيا : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك ليستعملك على خيبر ، ويحسن إليك) . . فاغتبط أسير للعرض هــذا ، وأمهل عبد الله ريثما يتشاور مع أتباعه . . ولكنه وجد من اليهود معارضة لما انشرح هو إليه ، فتركهم وشأنهم . . وراح يجهز ركابه ويختار لصحبته ثلاثين رجلاً من يهود ، ورافق

السرية فى الخروج معها إلى المدينة . . ولكنه ما أن يبلغ موضعاً اسمه (القرقرة) وهو يبعد عن خيبر بحوالى سبعة أميال ، حتى يحس بطبيعة الغدر فى نفسه . . وقد حاول أن يستعمل سيفه ، فتنبه له عبد الله بن أنيس الذى كان رديفا لأسير . . فأمسك بسيفه وجرده ، وفى عنف المقاومة استطاع أن يبتر له فخذه ويوقعه على الأرض ، وإن كان قد أصيب منه بشجة فى رأسه . . ولكنه استطاع أن يجهز عليه ويريح منـــه .

وكانت قد دارت معركة بين أفراد السرية وبين اليهود الثلاثين . . حتى تم القضاء عليهم ، عدا رجل واحد منهم كان يجيد العدو فهرب من القتل . .

وعادت السرية المؤمنة تبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتائج ما قد جرى . . فقال لهم : (قد نجاكم الله من القوم الظالمين) . .

أما عن إصابة عبد الله بن أنيس بالشجة المؤلمة فى رأسه ، فقد بصق فى الشجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعد بعد ذلك تؤلمه . .

أســلموا ، فغـدروا ، فقتـلوا

ثمانية من قبيلتى : عكل وعرينة . . جاءوا إلى المدينة وأسلموا على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يظهر عليهم السقم والاصفرار مع انتفاخ فى بطونهم . . فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوء حالهم وأنهم كانوا : (أهل ضرع) ولم يكونوا أهل ريف ، وأن هواء المدينة لم يوافقهم . .

فأشار عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى الصحراء يعيشون على ألبان الإبل حتى يصحوا ، وأرسل معهم راعياً وعـــدداً من الإبل ترعى ، ويشربــون . .

ولكن الثمانية لم يحمدوا النعمة ، فسرعان ما وسوست لهم أنفسهم بعد أن صحت أجسامهم ، فقتلوا الراعى وكفروا بدينهم ، وخرجوا بالإبل إلى بلادهم ، بعد أن مثلوا بالراعى جزاء إحسانه وخدمته لهم . .

وما أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر حتى أرسل من أسرع خلفهم : عشرين جنديا بقيادة كرز بن جابر الفهرى . . فلاحقوهم وألقوا القبض عليهم وساقوهم إلى نهايتهم . . حيث حكم عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل ، وقد مثل بهم ، كما فعلوا هم بالراعى . . ثم نهى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن التمثيل . . ولكنهم استوجبوا ، وقد غدروا وقتلوا . . فلا معدى لهم عن القتل — قصاص عدل . .

أبو سفيان لا يزال يتآمر

أبو سفيان بن حرب لاينفك يدبر ويناوئ ، وقد أحس أنه يفقد سلطانه رويدا رويدا . . فلم يكن له ذلك الشأن السابق . . ولا تزيده الأيام إلا تقلصا من الأمور التى كان يجدها ويطمع فيها لحياته . . فهو فى نفسيته يتضاءل ، ويريد أن يشعر نفسه على الأقل بأنه الآمر الناهى فى مجتمعه المتفكك . .

ولقد صرح يوما فى مجلسه بمكة لبعض من أشداء قريش الباقين : (ألا أحد يغتال لنا محمداً ، فإنه يمشى فى الأسواق وحده) . . فاندفع إليه أعرابى قائلا — وهو يعنى نفسه — : قد وجدت أجمع الرجال قلباً وأشدهم بطشاً وأسرعهم عدوا ، فإذا أنت فديتنى خرجت إليه حتى أغتاله ، فإن معى خنجرا كجناح النسر ، وإنى عارف بالطريق) . . فسر أبو سفيان وقال له : أنت صاحبنا . . وكأنه وجد ضالته . .

وجهزه وأعطاه راحلة ، وأوصاه بأن يكتم أمره . . وجعل له جعلا ، أسلمه جزءاً منه . . ففرح الأعرابى وحسب أنه سيفوز بمطلبه الباطل . .

وفى أواخر شوال وصل المدينة بعد أن أمضى ستة ليال فى الطريق . . وراح يسأل عن شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعرف عليه فلا يخطئه . . وكان فى مسجد لبنى عبد الأشهل ، وعندما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعد ، قال : (إن هذا الرجل ليريد غدرا ، وإن الله حائل بينه وبين ما يريد) . .

وإذ أقبل الأعرابى يهم بالانحناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمسك به من إزاره أسيد بن حضير يجذبه ، فيسقط منه الخنجر على الأرض ، مما أذهله لانكشاف أمره . . فما كان من أسيد إلا أن هب يمسك به من رقبته بكلتا يديه ويكاد يزهق منـــه الأنفاس . . ويطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأعرابى أن يصدقه من هو ، وأنه إن فعل فهو آمن . . فأخبره الخبر بحذافيره . . فأطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا به يقول : (والله يامحمد ما كنت أخاف الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك ، حتى ذهب عقلى وضعفت نفسى ، ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق) . . قال ذلك ثم أسلم . .

وكعادته صلى الله عليه وسلم يبتسم ، ويطمئن جليسه ويهدأ نفسياً . . ثم يعمد عليه الصلاة والسلام إلى أن يختار كلا من عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم . . وكلفهما بالسفر إلى مكة والاحتيال على قتل أبى سفيان : (إن أصبتما منه غرة فاقتلاه) . . فانطلقا لغايتهما غير هيابين ، حتى وصلا مكة . .

وقصدا إلى البيت الحرام يطوفان بالكعبة . . فعرف بعض الناس عمرو بن أمية ، فصاح منهم من ينادى : هذا عمرو بن أمية ، لم يأت إلا لشر . .

وتنبه الناس حول الرسولين ، ولم يجدا من منفذ إلا أن هربا واختبأ فى جبل ، والقوم فى مكة يبحثون عنهما . . ولكنهما استطاعا الوصول إلى راحلتيهما عنــد إحدى الشعاب ، وخرجا فى الخفاء ، حتى إذا التقيا فى طريقهما برجل من قريش ، قتله عمرو ، وقتل رجلاً آخر كان يردد هذا البيت :

ولست بمسلم مادمت حيـــــا ولست أدين دين المسلمينـــا

وفى الطريق كذلك ، التقيا بجاسوسين لقريش يتسمعان أخبار المسلمين ، فقتل عمرو كذلك أحد الرجلين ، ثم عاد ورفيقه — بالرجل الثانى أسيراً — إلى المدينة وكان أول ما قاما به عند وصولهما ، أن قابلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصا عليه ما لقياه ، وهو يضحك عليه الصلاة والسلام . .

الفتح الأول : يوم الحديبية

** روى عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها فلم يبق فيها قطرة ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ، ودعا ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا ونحن وركابنا) .

فى أوائل شهر ذى القعدة ، كان رسول الله قد رأى رؤيا بأنه داخل مكة . . فحدث صحابته ، ثم انتوى القيام بأداء العمرة . . فخرج معه من صحابته : ألف وأربعمائة . . وعندما وصلوا إلى ذى الحليفة (الميقات) ، قلد الهدى وأحرم بالعمرة) . . ثم بعث برسول له من بنى خزاعة ، يستخبر عن واقع قريش على عجل

وسار صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكان قد استخلف على المدينة : نميلة ابن عبد الله الليثى . .

ولم يكد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل وأصحابه إلى منطقة تدعى (عسفان) ، وهى منهلة فى الطريق إلى مكة بينها وبين الجحفة . . حتى يلتقى برسوله الخزاعى ، وببشر بن سفيان الكعبي ، فيعرف منهما بأن قريشاً تستعد للقائه بحرب . . وقد جمعت الأحابيش ، وخرجت بجيشها ومعها النساء والصبيان ، وأنهم نزلوا بذى طوى — بالقرب من مكة — ينتظرون ، وأنهم (يعاهدون الله لا تدخلها أبدا) . .

وهم يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإذا به يقول : (يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد

على الذى بعثنى به الله حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) . . والسالفة هنا : صفحة العنق . .

وبعد لأى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ . .

وكان خالد بن الوليد قد نزل بخيالة قريش عند كراع الغميم وقام رجل من بنى أسلم يعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه هو الذى سيسير بهم فى طريق مخالف لما نزلت فيه قريش . . . .

وسار موكب الإيمان على الطريق التى سلكها الدليل ، وكانت وعرة بين شعاب ، مما أرهق السائرين حتى بلغوا منقطع الوادى بأرض سهلة . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته : قولوا نستغفر الله ونتوب إليه . فقالوا ، وعاد هو يقول : والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل . وأشار عليه الصلاة والسلام لصحابته إلى طريق أيمن تسلك بهم إلى (ثنية المرار) حيث الحديبية بأسفل مكة . . وبها نزلوا . .

ولم يكن بالآبار ماء ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته سهماً ألقاه فى بئر ، فإذا الماء يعلو منها . . ليشرب المسلمون ودوابهم . . والحديبية قريبة من مكة على مرحلة واحدة ، وقيل إنها داخل الحرم لمكة . .

وبها جرت المفاوضات بالرسل ، بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش . . ليدخل عليه الصلاة والسلام وصحبه مكة يؤدون شعائر العمرة . . وقريش تتأبى ، ويرد فى قول رجالها : (والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب) . .

وقد اختلفوا فيما بينهم ، وكلما بعثوا رسولا رجع إليهم مقتنعا بمطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى الحليس بن علقمة — سيد الأحابيش — ناجزهم

وهددهم بالخروج عليهم إذا هم منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء من أجله . . ولكنهم كبتوا الحليس بقولهم : (كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى بـــه) . .

وتتصل المفاوضات ، حتى يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، إلى أشراف قريش ، يعيد عليهم ، بأنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً للبيت الحرام ومعظما حرمته . .

وإذ دخل عثمان مكة ، أجاره أبان بن سعيد بن العاص ، وذهب إلى أبى سفيان ورفقته . . يعرض عليهم ما أرسله به رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فإذا بهم يقولون له : (إن شئت أن تطوف بالبيت أنت فطف . فأجابهم عثمان : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم) . .

ولكن قريشاً فى تعنتها أمسكت بعثمان عندها . . فأشيع — حينما لم يعـــد بأنه قتل . . فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا نبرح حتى نناجز القـــوم) . .

ونادى صلى الله عليه وسلم على صحابته يبايعونه على الولاء والنصرة تحت شجرة كانت بالقرب من الماء . .

وروى عن جابر بن عبد الله أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر . .

وسميت هذه المبايعة ببيعة الرضوان . . وقد ضرب أثناءها رسول الله صلى الله عليه وسلم — بإحدى يديه على الأخرى كناية عن مبايعته لعثمان ، وقد وصل إليه من أخبره بأن دعوى قتل عثمان باطلة . . ثم ما لبث أن عاد ينقل إليه عتاد القوم

وتعود قريش لترسل بسهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للمصالحة بأن لا يدخل عليهم هذا العام . . ودار جدال طويل بينهما ، حتى وافق صلى الله عليه وسلم على كتابة الصلح بينه وبين قريش . .

وهنالك ثار أبو بكر ، ثم ثار عمر على الرضوخ إلى المصالحة ، وقد قال كل منهما : (فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟) . .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عليهما بحكمته : (أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى) . .

ثم نادى على بن أبى طالب ليكتب المصالحة . . فأملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فإذا بسهيل يعترض بقوله : لا أعرف هذا ، ولكن أكتب : باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم . . ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله — سهيل ابن عمرو . فعاد هذا للاعتراض : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . . فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم لعلى اكتب

(هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بإذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة ولا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه) . .

ومعنى (عيبة مكفوفة) كناية عما تطويه الصدور ، ولا تبدى عداوة . أما — (الإسلال) فهى السرقة فى الخفاء . و (الإغلال) تعنى الخيانة . .

ولعل أهم ما نتج عن عقـــد الصلح من حدث ساعتئذ . . وجوم المسلمين وهمهم ، ثم مجىء أبو جندل بن سهيل وقد أسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا بسهيل بن عمرو يبعده عنه ويقول : يامحمد قد لجت (تمت) القضية بيـــنى وبينك قبل أن يأتيك هذا . .

فراح صلى الله عليه وسلم يبعد أبا جندل عنه ، بينما هذا يصيح : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فيرد عليه رسول الله صلى الله عليه

وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونـــا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم . .

وجرى توقيع صحيفة الصلح من الطرفين ، ووضع شهاداتهم كل من : على بن أبى طالب ، وأبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، وعبد الله بن سهيل بنّ عمرو ومكرزل بن حفص – قبل أن يسلم . .

بعد ذلك اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هديه فنحره وحلق شعره ، وبه اقتدى المسلمون محلقين ومقصرين بعد ذبح هديهم . .

وروى عن عمر بن الخطاب بأنه كان يسير مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلا ، وسأله عن أمر ، فلم يجبه صلى الله عليه وسلم . . وكرر عليه ثلاثا ، فلا يجد رداً فقال عمر : ثكلتك أمك ياعمر ، نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك . وحركت بعيرى ، ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، وجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت على الليلة آية لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : (إنا فتحنا لك فتحـــا مبينـــا) . .

ويقص الله سبحانه ما حدث فى الحديبية على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، فى تلك الساعات العصيبة . . فقال تعالى عن بيعة الرضوان :

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) . .

إلى أن قال سبحانه وتعالى موضحا موقف المشركين ، ونصرة المؤمنين :

(وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليمـــا) . .

ويبشر الله المؤمنين ، بتحقيق رؤيا رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك . . فقال تعالى : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) . . وهو يوم الحديبية ، ثم فتح مكة بعد عامين . .

وكان نصرا مبينا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وفتحا كبيرا ، أن توضع الحرب ، ويتزايد المسلمون حتى يخرجوا إلى مكة بعد ذلك فى عشرة آلاف مؤمن مع رسولهم العظيم عليه الصلاة والسلام ، وقد تحقق له ما أراد وما أرادوا . .

بقى أن نذكر أن المسلمين ، بعد عقد الصلح ، لم يرجعوا إلى قريش النساء المهاجرات للمدينة — وقد أسلمن — وذلك خشية من افتتانهن فى بلد الشرك ، وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجـــرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) . .

أما بالنسبة للزوجات المشركات ، فإن الزوج المسلم يؤدى لها عوضاً ويتركها حيث هى تتصرف كما تشاء ، إذا هى رفضت الإسلام . .

ومن الجوانب التى أسفرت عنها معاهدة الصلح أيضا . . فإن عددا كبيرا ظل يتزايد من المسلمين المستضعفين ، ويرفضون البقاء فى ظل قريش ، ولقد كون بعضهم حامية خارج مكة ، يؤذون من مر بهم حتى فى أموالهم . . ممـــا اضطر أبا سفيان إلى أن يرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجاء السماح

لأولئك المسلمين بالبقاء فى المدينة ، وقد زاد عددهم على السبعين . . وفيهم أبو جندل بن سهيل وأبو بصير الذى له قصة نضال ، حتى رضى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فى الإقامة حيثما شاء ، وقد روى أنه كان فى لحظات حياته الأخيرة ، فمات وعلى صدره كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولعل خير خاتمة لهذا القسم أن نستذكر الآية الكريمة فيما قال الله تعالى : (نصر من الله وفتح قريب) . .

وفادة رفاعة الجذامي

وفد فى شخص واحد ، ذلك هو : رفاعة بن زيد الجذامى . . جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن إسلامه ، ويقدم له غلاماً كهدية ، تقبلها منه وحمد صنيعه ، وكتب له كتابا بهذا النص : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ، إنى بعثته إلى قومه عامة ، من دخل منهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ، فمن أقبل منهم ففى حزب الله ورسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين) . .

وبرجوعه إلى قومه أسلموا وسلموا . .



العام السابع للهجرة

غزوتان .. وسرايا ..

• • أول عمرة • •

** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، **فإذا قالوها عصموا** مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .

ثم قرأ : (إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر) . .

غـــزوة خيـــبر

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف خطورة بقاء يهود فى خيبر ، وذل القوم المؤمنين فى ظلالهم . . فأعلم صحابته بالقصد لغزوهم . .

وبعد أن استخلف نميلة بن عبد الله الليثى على المدينة ، أسلم رايته البيضاء إلى على بن أبى طالب ، وخرج بجنده المسلحين إلى خيبر وعددهم ألف وخمسمائة مقاتل سالكا بهم طريق جبـــل يدعى (عصر) بين وادى الفرع والمدينة . . وفيه أقيم له مسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء سيره طلب من عامر ابن الأكوع أن يقول من (هناته) — أى شعره وخبره — كحداء للإبل . . فقال مرتجـــزا :

والله لولا الله ما اهتدينـــــــا ولا تصدقنـــــا ولا صلينا
إنـــا إذا القـــوم بغـــوا علينـــــا وإن أرادوا فتنـــــة أبينا
فأنزلن سكينة علينـــــــــــا وثبت الأقـــدام إن لاقينا

فكان صلى الله عليه وسلم يقول له : (يرحمك الله) . . وقد قتل فى الغزوة . .

وأول ما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه فى وادى الرجيع . . حيث حذر بنى غطفان من مظاهرة يهود . ثم واصل مسيرته . .

روى عن أنس بن مالك أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار . فنزلنا خيبر ليلا ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبى طلحة ، وإن قدمى لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبلنا عمال خيـــبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش ، قالوا: محمد والخميس معه وأدبروا هربا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، خربت خيبر ، (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) . .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيشه . . يحاصرون حصون خيبر بضعة أيام ، ثم بدأ الزحف ، لافتتاح الحصون الواحد بعد الآخر ، والمسلمون يبذلون جهودا فدائية مستميتة . . وهم قد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وهم مقبلون على خيبر — ويدعو : (اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، اقدموا باسم الله) وذكر أنه عليه الصلاة والسلام كان يقولها لكل قرية دخلها ، حتى تفتح .

ونأخذ هنا مثلا واحدا لشراسة قتال المسلمين ووقوفهم عند الزحف موقف الذى لا يرهب أحداً أو يخشى فشلا . .

فقد روى عن أبى رافع — مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه قال : (خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن ، خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده ، فتناول على باباً كان عند الحصن ، فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ . . فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى ، أنا ثامنهم ، نجهد على أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه) . . قوة من الله المؤيد للمخلص فى جهاده وفى عمله وفى دينه . .

وهكذا تداعت الحصون ، والصراع على أشده . . ولم يبق إلا حصنا : (الوطيح والسلالم) . . فصاح أهلها يرجون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم يخرجون . . جلاء من خيبر إلى الأبد . .

حتى (أهل فدك) استسلموا ووافقوا على الجلاء حقناً لدمائهم . . فخرجوا بغير أموال مخذولين . . وقد كتبت عليهم الذلة أينما كانوا . . وكان الواسطه فى ذلك الصحابى محيصة بن مسعود — أخو بنى حارثة — وقد طلب أهل خيبر أن

يعاملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف فى أموالهم . . فارتضى لهم ذلك . . واعتبرت (فدك) فيئاً خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومدينة خيبر فيئا للمسلمين . . [1]

وقد حدث ـــ عند حصار المسلمين لأقوى حصون خيبر (القموص) نحو عشرين يوما ـــ أن جهدوا وأرهقوا من الجوع ، فذبحوا الحمر ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ عن أكلها . . وفى حديث عن عبد الله بن أبى سعيد عن أبيه قال : أتانا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الإنسية ، والقدور تفور بها ، فكفأناها على وجوهها . .

وورد فى حديث آخر عن مكحول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم يومئذ عن أربع : (عن إتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلى وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم) . .

هذه من التشريعات النبوية التى تستهدف حياة المسلم الكريمة ، بعيدا عن كل سوء وعما قد يضر بالنفس وبالجسم . .

وفى أزمة الجهد والجوع تلك ، ذكر أن أبا اليسر كعب بن عمرو ، طارد غنما لواحد من يهود ، واستطاع أن يمسك باثنتين جاء وألقاهما أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانتا طعاما سائغاً للجميع ، وبورك لأبى اليسر فى عمله . .

وكان من السبايا (صفية) ابنة حيى بن أخطب ـــ من كبار اليهود ـــ فرغب فيها صلى الله عليه وسلم ، فآمنت وأعتقها وتزوجها . . وكانت هى أرملة ، قتل زوجها فى إحدى مواقع الحصار من خيبر . . كما قتل آخرون غيره . .

---

(١) ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم لنسائه من قمح خيبر ، ولابنته ، ولأسامة بن زيد ، وللمقداد بن الأسود ، ولأم رميثة نسباً معينة .

ولعل أشد إيذاء لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر كان من تلك اليهودية.زينب بنت الحارث ، التى أهدت له شاة مطهوة سمتها . . وقد شعر هو بطعم غير مستساغ فلفظ ما أكله منها . . بينما مات (بشر بن البراء) الذى أكل منها وأساغهـــا . .

وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم إحضار ابنة الحارث ، فلم تنكر ما فعلته ، ولما سألها عما حملها على هذا الفعل ، أجابت : بلغت من قومى ما لم لم يخف عليك . .

فصفح عنها ، إلا أنه كان يشتكى من معدته بعد تلك الحادثة طيلة أيامـــه حتى توفاه الله إلى رحمته وعزه . .

ولم يقتل من المسلمين فى غزوة خيبر غير القليل ، ومنهم : محمود بن مسلمة ، وأوس بن قتادة ، وأنيف بن حبيب ، وفضيل بن النعمان ، وثقيف بن عمرو . . وقد كان كبار الصحابة يشتركون فى سحق يهود[1] . حتى تحقق جلاؤهم عن مدن الشمال . . وكان ذلك فى شهر المحرم . . والنصر معقود دائما للمؤمنين الصامـــديـــن . .

وفـــد دوســـس

الطفيل بن عمرو الدوسى ، كان قد أسلم قبل الهجرة ، كما ذكر فى موضعه من كتابنا هذا . . وبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزرة خيبر ، وفد الطفيل فى جمع من قومه . . ونزل بالمدينة بهم على بيوت بنى دوس ، قيل عنها إنها أكثر من سبعين بيتاً . . وهم من قوم أبى هريرة رضى الله عنه . .

---

(١) فى طريق العودة مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى القرى ، فاعترضه بها اليهود مع أحلاف لهم من الأعراب ، فدعاهم إلي الإسلام ، فرفضوا ، وتقدم حيشه إلى مبارزة كل من تقدم منهم ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلا ، ثم اقتحم عليهم المسلمون واضطروهم إلى الاستسلام ، وكذلك بلدة تيماء ، وجرت مصالحتهم كما جرى لفدك وخيبر .

ثم لحق الوفد الذى كان يبلغ أربعمائة رجل ، برسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر . . حيث أعربوا عن ولائهم له ، بعد مبايعته بالإسلام . .

وذكر الطفيل ، بأنه بقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما بعد فتح مكة ، فطلب منه أن يبعثه لهـدم صنم دوس المعروف باسم (عمرو بن حممة) . . فأذن له ، فاشتد يقوم على هدمه وإحراقه وهو يقول هذا الزجل :

ياذا الكفين لست من عبـادكا   ميلادنا أقـدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فـى فؤادكـا

وفد الأشعريين

ينسب الأشعريون إلى أشعر بن أدد ، ومنهم أبو موسى الأشعرى . . وقد جاء يرأس وفد قومه من اليمن . . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لصحابته آنئذ : (يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا) . . فقدم الأشعريون كما قال أنس بن مالك رضى الله عنه . .

وحيا الوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن أفراده إسلامهـم . . واستبشر هو بهم خيرا . . وعنه وردت عدة أحاديث فى شأن اليمنيين ، وما فى استعدادهم من الحب للإيمان وصفاء السريرة . .

غزوة ذات الرقاع

فى نهاية شهر المحرم ، عاد من الحبشة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين مضى على هجرتهم إليها بضعة عشر عاما . . وكان فيهم أبو موسى الأشعرى ، وخالد بن سعيد بن العاص وأسرته . . وغيرهم من عدة قبائل كريمة . ولقد كانت فرحة رسول الله صلى الله عليه وسلم كبيرة بعودة ابن عمه : جعفر بن أبى طالب ، حتى أنه قبل ما بين عينيه وقال : (ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر أم بقـدوم جعفـر) . .

أما عن خبر غزوة ذات الرقاع التى ذكر بعض المؤرخين – خطأ – وقوعها قبل هذا العام . . وقد ورد ما يؤيد أنها وقعت فى أواخر ربيع الثانى مما نذكره هنا

ففى رواية عن الإمام البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ، ونحن ستة بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماى وسقطت أظفارى ، وكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت (ذات الرقاع) لما كنا نعصب من الخرق . .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة : أبا ذر الغفارى ، وخرج بصحابته الستة إلى طريق نجد ، لتأديب بعض الأعراب المنتشرين من عدة قبائل فى الطريق إلى عسفان . . فكانوا يهربون من أماكنهم ، كلما عبر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى بلغ بصحبه موضعاً بين ضجنان وعسفان ، فواجههم قوم من المشركين ، فارتعب المسلمون ، لكون أولئك أكثر جمعا منهم . . وهموا أن يهتبلوا فرصة انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى صلاتهم ، فيميلون عليهم ميلة واحدة . . ولكن الله بعث بالرعب فى نفوسهم ، ورسول الله يصلى ببعض صحبه ، ثم يخلفهم الآخرون ، كما أوحى له جبريل عليه السلام فصلى بهم صلاة الخوف . .

وانصرف عنهم المشركون فى رهبة . . وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه رضى الله عنهم إلى المدينة . . بعد رحلة مرهقة ، ولكنها كانت فى سبيل الله أمتع . .

* * *

الرسائل النبوية

الكتابات التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك عصره ، يدعوهم فيها إلى دين الإسلام . . هناك عند مؤرخى السيرة ، أكثر من خلاف . .

حول الزمن الذى أرسلت فيه . . فمنهم من قال بأنها فى السنة السادسة للهجرة . . ومنهم من جعلها فى السنة التاسعة أو بعد فتح مكة . .

ولعل أصح ما يمكن اعتماده ، هو أنه صلى الله عليه وسلم ، أرسل كتبه تلك ، بعد أن استتب له الأمر ، وأصبح لجيشه المؤمن السيطرة على منافذ المدينة وإلى شمالها . . ثم إلى جنوبها . . وخاصة بعد إنهاء حالة الحرب مؤقتا ، بسياسته الحكيمة فى صلح الحديبية . . ولهذا فرسائله صلى الله عليه وسلم تبتدئ بعد انتهاء موسم الحج ، لينفذ بعوثه فى الوقت المناسب . . وقد اخترنا إثبات خبرها هنا ، قبل أن نستوفى بقية أحداث هذا العام . .

موقف ما بعد الصلح

روى عن أبى بكر الهذلى قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التى صد عنها يوم الحديبية ، فقال : إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم ، فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ قال : دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثا قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التى بعث إليها . .

وروى آخرون ذلك بعبارات متقاربة عنه صلى الله عليه وسلم . .

وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة ، عليه اسمه (محمد رسول الله) ، بثلاثة أسطر تقرأ من أسفل إلى أعلى . . ليختم به كتاباته .

ويروى أنه أول ما لبس ، خاتماً من ذهب ، ولبس مثله من استطاع شراءه . . فنزل عليه جبريل عليه السلام بتحريم الذهب على الرجال إلا لضرورة . . فترك الذهب ونهى عن لبسه أصحابه . .

أما عن خاتم الفضة باسمه عليه الصلاة والسلام . . فقد كان فى يده حياً ، فلما توفى لبسه أبو بكر ، ثم لبسه عمر ، ثم لبسه عثمان ، ووقع منه فى بئر أريس ، ولم يعثروا عليه . .

الى هرقل ـ ملك الروم

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى رسائله إلى هرقل ملك الروم ، ويدعى (قيصر) ، لأن أمه فى ولادته ماتت ، فشق بطنها ليخرج ، ثم يسمى كل ملك للروم بقيصر .

وقد حمل إليه الكتاب الصحابى : دحية الكلبى . . ولما وصل هذا إلى حاكم بصرى بالشام ــ واسمه الحارث ــ وسطه ليوصل الكتاب إلى ملك الروم . . فأرسل معه عدى بن حاتم ، حتى إذا استلم القيصر الكتاب ، دعى بترجمانه . . فلما عرف خبره ، طلب أن يسأل بعضاً من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرف عنه وعن دعوته . .

وكان أبو سفيان بن حرب فى الشام فى تجارة له ، فدعى إلى مجلس القيصر حيث دار حوار طويل ، ذكر عنه أبو سفيان أنه صدق فى كل إجاباته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يود لو كذب ، وطعن فى خصمه آنذاك . . ولكنه استحيا وخشى أن ينقل عنه الكذب ويتحدثون عنــه بهذا ، وكان يجيب القيصر ، ، ومعه جمع من قومه . .

وهذا نص كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ، (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . .

وفى نهاية الحوار ، قال القيصر : (فعلمت أنه نبى ، وقد علمت أنه مبعوث ، ولم أظن أنه فيكم ، وإن كان ما كلمتنى به حقاً فسيملك موقع قدمى هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك) . .

وفى حمص التقى قيصر بكبار الروم ليقول لهم : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى . .

قال الراوى : (فحاصوا حيصة حمر الوحوش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال : ردوهم على . ثم قال لهم : إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم ، فسكتوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الإسلام) . .

إثر ذلك كتب قيصر الجواب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فيه : (إنى مسلم ولكنى مغلوب) . . وهو كاذب فى دعواه . . وقد أرسل جوابه مع دحية وبعث بهدية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وفى رواية لأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم بعث مرة أخرى إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وذلك أثناء رحلته إلى غزوة تبوك . . ولكن طبع الله على قلب القيصر ، فلا يحرص إلا على حكمه ورعيته وهو يخشى غضبتها . .

الى النجاشي ملك الحبشة

وإلى النجاشى — ملك الحبشة — أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو ابن أمية الضمرى بكتاب قال له فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته

وأن تتبعني وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى) .

واستقبل النجاشى الخطاب بحفاوة بالغة وقال لعمرو : إنى أعلم والله أن عيسى بشر به ، ولكن أعوانى فى الحبشة قليل ، فأنظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب . . وكتب كذلك كتابا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه . . واسمه : أصحمه .

ومعروف أن هذا النجاشى هو الذى أكرم المسلمين المهاجرين إلى الحبشة . . وذكر أنه توفى فى السنة التاسعة ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلاة الغائب . . وهو غير النجاشى الآخر الذى جاء بعده ولم يسلم ، بالرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل له بدعوة الإسلام ، فلم يجب ، وآثر الضلال الذى هو فيه . .

إلى المقوقس ملك مصر

كان المقوقس حاكماً لمصر من قبل قيصر فى الشام . . وقد أرسل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا مع الصحابى حاطب بن أبى بلتعة . . وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، (قل يا أهل الكتاب تعالوا . .) الآية . .

فلما وصل (حاطب) إلى المقوقس ، وكان بالإسكندرية ، وأسلمه الكتاب ، قرأه وقال له : (ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجه من بلده إلى غيرها) . .

فرد عليه حاطب : أنت تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله ، فماله حيث آذاه قومه وأرادوا أن يصلبوه أن لايكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه إليه.

فقال المقوقس : أحسنت ، حكيم جاء من عند حكيم . . وقد وعد أنه سينظر فى أمر هذا الدين . .

وكتب جوابا مع حاطب وأرسله بهدايا ذكرها فيه . . وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك جاريتين لهما مكان عظيم فى القبط وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركبها ، والسلام . . ولكنه لم يسلم . .

وإحدى الجاريتين ، هى مارية القبطية التى رزق منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنه إبراهيم ، بينما أهدى أختها إلى حسان بن ثابت . .

الى كسرى ملك فارس

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى كسرى ملك فارس مع عبد الله بن حذافة السهمى . . ويروى أنه كان كثير السفر إلى فارس والالتقاء بكسرى . .

وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس . .

وما أن وصل ابن حذافة بالكتاب إلى كسرى ، حتى تسلمه هذا بحماقته ومزقه . . فكان هذا الجواب العنيف ، غضبة عليه .

وإذ عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، دعا فقال : (مزق الله ملكه كل ممزق) . . فكان أول الممالك الكافرة التى ظلت تسقط الواحـــدة بعـــد الأخـــرى . .

إلى ملكي عمان

فى اليمن بلاد باسم عمان بن سبأ . . تسمى (عمان) ، وكان عليها ملكان جيفر وعبد ابنا الجلندى . . فأرسل لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم — كتابا مع عمرو بن العاص ، بهذا النص :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله ، إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما . .

ووصل عمرو بالكتاب إليهما . . وبعد نقاش فى أسئلة الملكين ، وعمرو يرد على ما يستفسرانه من أعمال وحسنات الإسلام وكونه يأمر بالعدل والبر ، وينهى عن الأوثان والظلم والزنا وغيره . . حتى اقتنعا وأسلما ودعوا قومهما للإسلام.

وروى أن جيفرا كان متصلبا ، خاصة فى أمور الزكاة حتى أقنعه أخـــوه عبد ولان قلبـــه . .

إلى المنذر ملك البحرين

المنذر بن ساوى التميمى أمير البحرين . . أرسل له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العلاء بن الحضرمى ، بكتاب الدعوة إلى الإسلام بهذه الصورة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلم أنت ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية .

وما أن قرأ المنذر الكتاب . حتى انشرح صدره للإسلام فآمن . وكتب الجواب التالى :

أما بعد . يارسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام فأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه ، وبأرضى يهود ومجوس فأحدث لى أمرك فى ذلك . .

فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهـــذه العبارات المحددة . بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك . فإنى أحمد الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أما بعد ، فإنى أذكرك الله فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى . ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك . فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه . وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك من عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية . .

والمنذر هذا هو الذى وفد مع قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تذكر بعض الروايات . . والبعض يرى أن الذى وفد هو المنذر بن عائذ . .

إلى هـــوذة ـ حاكم اليمـــامة

حمل الصحابى سليط بن عمرو العامرى ، رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حاكم اليمامة هوذة بن على الحنفى . . وهذا هو نصها .

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى ، وأعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك . .

ولما وصل (سليط) بالكتاب إلى حاكم اليمامة ، لم يبد أنه قد اقتنع ، وحادثه سليط عن محاسن الإسلام ، وفضل متبعيه . . فلم يزده إلا تمسكا بمنصبه وجاهه ، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرد التالى :

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك . .

وكان يقصد شراكة فى النبوة . . فلما قرأ كلامه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لو سألنى سيابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه . .

وهكذا مات مشركا ، كما ورد بعد فتح مكة . . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ظهور من يتنبأ من اليمامة : (أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ يقتل بعــدى) . .

فإذا بمسيلمة الكذاب يخرج بأكذوبته تلك ويقتل . .

إلى الحارث أمير دمشق

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى الحارث بن أبى شمر أمير دمشق — من قبل القيصر ملك الروم — وقد حمل الكتاب الصحابى شجاع بن وهب ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك . .

وما أن استلم الكتاب (الحارث) وقرأه ، حتى ألقى به ، وصاح : من ينزع ملكي مني . . وأراد أن يبعث بجيش ، لحرب صاحب الكتاب عليه الصلاة والســـلام . .

وكتب إلى قيصر يستأذنه في هذا الأمر ، وفي ذلك الآن ، كان (الصحابي دحية) لم يزل عند قيصر . . فرد على عامله بدمشق أن يدع فكرة الحرب جانباً . . فلما تسلم هذا — الحارث ، قدم لشجاع كسوة ونفقة ، وودعه بهدوء خشية من أية عواقب قد لا تكون في صالحه . .

وهناك عدة كتب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث بها إلى مشائخ ورؤساء القبائل ، يدعوهم بدعوة الإسلام ويرشدهم ويوجههم لخيرهم ومصلحة بلادهم . . وكان عليه الصلاة والسلام ، يخاطب كل قوم بما يتفق وعقلياتهم ، فهو الحكيم في كل شئ

* * *

سرية إلى هوازن

قبيلة هوزان بالجنوب بناحية (تربة) . . وفيهم من كان لا يتورع عن الاعتداء على المسلمين ، ويظاهرون المشركين عليهم . .

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان بسرية من ثلاثين جنديا بقيادة عمر بن الخطاب ، يرافقه دليل من بني هـــلال ، يعرف مسالك أولئك المتمردين . . غير أن عمر وجنده عندما وصلوا إلى ديارهم ، لم يجدوا أحدا منهم ، إذ قد أحسوا بمقدم الغرباء . . فانطلقوا وتركوا الأرض خلاء . .

وبعد البحث والتقصي لآثارهم ، رجع عمر وجنده . . وبالقرب من المدينة أراد الدليل أن يرشد عمر إلى تجمع لبني خثعم يغزوهم ، فأبى عمر لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأذن له بغير الخروج إلى هوازن كما قال . .

سرية إلى بنى كلاب

فى نفس الشهر ، وفى نطاق تأديب القبائل التى تتحدى المسلمين وتسئ إليهم . . أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعاً من صحابته (لم يشر إلى عددهـــم مؤرخ) . .

. خرجوا برئاسة أبى بكر الصديق ، وفيهم سلمة بن الأكوع الذى يروى عنه أنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وأمره علينا ، فسبى ناسا من المشركين فقتلناهم ، فقتلت بيدى سبعة منهم أهل أبيات من المشركين . .

وكان اتجاه هذه السرية إلى بنى كلاب على الأصح . . وإن ذكر بعض المؤرخين أنها أرسلت إلى قبيلة بنى فزارة التى سبق أن أرسلت إليها سرية أخرى ، وجرى تسجيل خبرها فى مكانه من عام سابق . .

سرية إلى فدك

أيضا فى نفس شهر شعبان . . أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين جندياً برئاسة بشير بن سعد إلى قبيلة بنى مرة بالقرب من فدك . . وإذ وصلوا إلى هناك وجدوا الإبل والشاء مع رعاتها ، فاستعلموا عن (بنى مرة) ، فقيل لهم بأنهم ذهبوا إلى نواديهم . . فما كان من بشير وجنده إلا أن استولوا على الغنائم ، وخرجوا بها فى طريقهم إلى المدينة ، وهم لا يعلمون ما كان من أمر رجال بنى مرة الذين سرعان ما عرفوا بسلب أغنامهم . . فارتحلوا خلف السرية بالليل ، وأدركوهم فى حدود ديارهم ، فرموهم بالنبال ، ثم استقروا حيث هـــم حتى الصباح . . فجرت حرب بين الطرفين ، وكان بنو مرة فى عدد كبير من رجالهم ، فتغلبوا على جند بشير وقتلوهم كلهم ، وإن كان قد بقى رمق فى (بشير) الذي تماوت حتى اختفى عنه الأعداء . . فتحامل على نفسه وقصد إلى صديق له بخيبر ، تداوى عنده ، ثم انطلق إلى المدينة يقص ما جرى له على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كانت الأنباء قد وصلت إليه ، فحزن على الشهداء وترحم عليهم . .

ولا بد أن نشير هنا إلى أنه سبق لبشير بن سعد الأنصارى هذا أن حدث له حادث مماثل فى سرية سابقة . .

سرية إلى أهل الميفعة

(الميفعة) : بناحية نجد ، وفيها قبيلتا : بنى عبد بن تعلبة ، وبنى عوال — لا يزالون على شركهم . . فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وثلاثين جنديا برئاسة غالب بن عبد الله الليثى . .

وخرج معهم — دليلا إلى ديار القبيلتين : يسار — مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وذلك فى شهر رمضان . .

ولقد أدركوا القوم فى منازلهم ، فهاجموهم بعنف ، فقتل منهم البعض ، وهرب البعض الآخر .. فاستولى المسلمون على ما وجدوه من الغنائم ، وعادوا بها إلى المدينة ، وقد أدوا ما أرسلوا من أجله ، يرهب منهم الناس على طول الطريق .

سرية إلى غطفان

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجمع من بنى غطفان ، قام بتحريضهم عيينة بن حصن . . فأرسل فى شهر شوال بالصحابى بشير بن سعد ومعه ثلاثمائة جندى ، خرجوا إلى طريق خيبر . . حتى إذا بلغوا (يمن وجبار) حيث كان يتجمع بنو غطفان . . لم يجدوا منهم غير رعاياهم ، فاستولوا على الغنائم ، وتفقدوا المنطقة ، وكان المتجمعون قد انتقلوا إلى أعالى بلادهم . . فطاردوا من لحقوا منهم وأسروا رجلين ، صحبوهما مع الغنائم إلى المدينة . . وقد أسلم الأسيران عندما وصلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فيما بعد (عيينة بن حصن) وحسن إسلامه . .

أول عمـــرة للرسول

كانت الحرب قد وضعت بصلح الحديبية . . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ألفان من المسلمين — فيما عدا النساء والصبيان — وذلك فى شهر ذى القعدة ، ليعوض عمرة العام الذى مضى ، عندما حالت قريش بينه وبينها . . وقد استخلف على المدينة عويف بن الأضبط الديلى . .

وقد روى عن عبد الله بن عباس أنه بعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه (مكة) وهو يروى عن حال قريش ، قال :

(صفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد اصطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه ، حتى إذا واراه البيت منهم ، واستلم الركن اليمانى ، مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف . ومشى سائرها ، وكان الناس يظنون أنها ليست عليهم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنمـــا صنعها لهذا الحى من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها ، فمضت السنة بها . .

وذكر بعض المفسرين ، بأن الآية القرآنية : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) الخ . . قد أنزلها الله تعالى فى هذه العمرة ، بينما ذكر آخرون بأنها نزلت فى العام السابق . .

وكان رسول الله قد أقام وصحبه بمكة ثلاثة أيام ، فأرسلت له قريش بعض رجالها مع حويطب بن عبد العزى بن أبى قبيس يطالبونه بالرحيل وقد قضى شأنه ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يبقى حتى يدخل بميمونة بنت الحارث التى زوجـــه إياها العباس بن عبد المطلب ، فأبت عليه قريش ذلك . . فـــرحل بصحابته ،

وانتظروا بسرف (بالقرب من التنعيم) وبها تزوج . . ثم سلك طريقه بأصحابه إلى المدينة ، فوصلوها فى أوائل شهر ذى الحجة . .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد احتاط لأى تصرف من قريش . . فصحب معه السلاح وأكثر من مائة من الخيل إلى جانب النوق والهدى . . وقد أمر بترك السلاح ببطن يأجج وعليه حراس يقومون عليه بالتناوب ، ليؤدى الجميع نسك العمرة كاملا . . وبعض المؤرخين يسمى هذه العمرة بعمرة القضاء .

سرية إلى بنى سليم

فى شهر ذى الحجة أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن أبى العوجاء السلمى ، ومعه خمسين جنديا إلى بنى سليم ، لعرض الإسلام عليهم أو قتالهم . . فخرجوا إليهم ، وقد كانوا يأملون النصرة عليهم . . غير أن لبنى سليم جاسوس كان يترقب . . فما كاد يبصر بجند المسلمين قادمين نحوهم ، حتى نادى عليهم ، فتجمعوا يستقبلون السرية فى لهفة . .

فعرض المسلمون عليهم الإسلام فرفضوه ، فاضطروا لقتالهم . . وكانت النكسة لهم . . إذ وصلت الإمدادات لبنى سليم واشتدوا فى قتال المسلمين حتى قضوا عليهم ، ولم يبق على رمق إلا ابن أبى العوجاء الذى استطاع أن يصمد فى مكانه بين القتلى حتى تولى القوم ، فقام يزحف ويتدبر أمره . . حتى تمكن من العودة إلى المدينة بعد نحو شهرين . .



العام الثامن للهجرة

• سرايا • وغزوات • •
• • • فتح مكة

** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما استخلف خليفة إلا له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله) .

إسلام الثلاثة الكبار

يعتبر إسلام خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة . . كما هو خسارة للمشركين ، فهو كسب للمسلمين . . ورفعة شأن لهم أنفسهم . .

فبعد أن أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة ، ورأى الناس ذلك الموكب النبوى فى جموع المسلمين الحاشدة . . اطمأنت كثير من نفوس قريش ومن بعض القبائل . . . هفت إلى النبع الصافى بين هذه الأمة الطيبة الحفية بسيدها . وقد سبق أن صور شيئا من هذا الوصف (عروة بن مسعود الثقفى) عندما أرسلته قريش فى مفاوضتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على مشارف مكة ، قبل صلح الحديبية . . فلما أن عاد (عروة) لقريش ، راح يقول لهم : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ أبدا . .

وكان عروة قد رأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يتوضأ إلاابتدروا وضوءه ، ولا يبصق إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه) كما ذكر ابن اسحاق فى سيرته . .

وفى الطريقة التى أسلم بها (الثلاثة) خالد وعمرو وعثمان . . روى أن خالدا قال عن نفسه : بأنه عندما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدى العمرة فى ذى القعدة ، ابتعد عن أنظاره وعن موكب المسلمين . . وبعد مغادرة الرسول عليه الصلاة والسلام مكة ، لبث وقتاً يتحدث إلى نفسه . . ثم شعر بضيق من وجوده ، وما أن انقضى موسم الحج ، حتى وجد نفسه يخرج إلى بعض رفاقه ، يتحدث مع كل على انفراد عن الإسلام ، عله يجد رفيقا يخرج معه . . حتى كلم عثمان بن طلحة ، فابتسم له ووافقه ، ثم التقى بعمرو بن العاص ، فوجد عنده

من الفرحة ما عندهما . . فترافق ثلاثتهم وقصدوا إلى المدينة ، يعلنون إسلامهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيدعو لهم ، ويستبشر بمقدمهم لخير المسلمين ، فكان لكل منهم دوره الهام فى تطور الحركة الإسلامية ، جعلهم فى مصاف أعلام التاريخ الإسلامى العربـــى . .

سرية إلى بنى الملوح

قبيلة بنى الملوح ، تقطن بالكديد – باسم الماء – وفى طريق عسفان ، ولا يزال فيهم من يعمل على الكيد للمسلمين . . فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثى على رأس خمسة عشر جنديا . .

وإنهم لفى الطريق ، التقوا بابن البرصاء الحارث بن مالك الليثى ، فألقوا القبض عليه واقتادوه أسيرا معهم . . وقد حاول التخلص منهم بدعوى أنه خرج لكى يسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد عرف عنه أنه عدو لدود للإسلام . وقال له غالب : إن تكن مسلما فلن يضرك رباط ليلة ، وإن تك غير ذلك كنا قد استوثقنا منك . . ثم أوثقوه وتركوه بموضع اسمه : (قديد) ومعه حارس قائم عليه ، أوصوه إذا حاول منازعته أن يقتله . .

وواصلت السرية حتى بلغت مستقر القوم مع آخر النهار ، فترقبوا حتى استوثقوا بأن كل من كان قد نام . . فدخلوا عليهم سحرا وفتكوا ببعضهم ، وهرب البعض الآخر ، فاستولوا على مواشيهم ، وانطلقـــوا إلى حيث الأسير وحارسه ، ثم واصل الكل مسيرتهم . .

حتى إذا بلغوا منتصف الطريق ، كانت جموع الثائرين من بنى الملوح قد لحقت بهم . . ولكن الله تعالى أراد لهم النجاة ، فإذا مسيل واد كبير يهدر بينهم ، فيفصل بين الطرفين . .

وبينما يمضى المسلمون فى طريقهم ، كانت الحسرة فى نفوس الثائرين تفرى صدورهم ليرجعوا من حيث أتوا خائبين . .

سرية إلى بنى مرة

مرة ثانية ، يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله ، وفى نفس الشهر — صفر — الذى كانت فيه السرية السابقة . .

ولكن هذه المرة ، بعث معه بمائتى جندى ، بقصد الأخذ بالثأر للمصاب الذى حدث لسرية بشير بن سعد فى ديار بنى مرة بفدك . . وكانت وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لغالب قوله : (فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم) . .

وسار غالب بجنده ، حتى إذا اقترب من (فدك) أرسل بعضا من جنوده وفيهم علبة بن الحارث ، يستكشفون خبر القوم ، وعادوا ليتم الاتفاق على مهاجمة بنى مرة مع مطلع الفجر . .

وقد روى الصحابى حويصة ، قال : بعثنى صلى الله عليه وسلم فى سرية مع غالب إلى بنى مرة ، فأغرنا عليهم مع الصبح ، وقد أخذ علينا أميرنا أن لا نفترق ، وآخى بيننا وقال لا تعصونى ، فإنه صلى الله عليه وسلم قال : (من أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصاه فقد عصانى) وإنكم متى تعصونى تعصون نبيكم ، فآخى بينى وبين أبى سعيد الخدرى — فأصبنا القوم . .

وتمت الغارة فى موعدها ، وقد بوغت قوم بنى مرة ، بجند المسلمين يغيرون عليهم ، فيقتلون منهم الكثير ، ويستولون على مغانم كثيرة منهم . . جزاء وفاقا . .

سرية إلى بنى عامر

بنو عامر — قوم من قبيلة هوازن ، ويقيمون فى قرية تدعى (السىّ) هى أقرب إلى مكة منها إلى المدينة . . ولم يسلموا بعد ، ولهم اعتداءات على من يمر من

المسلمين . . فتأديباً لهم ، أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية من أربعة وعشرين جنديا بقيادة شجاع بن وهب الأسدى . . وذلك فى شهر ربيع الأول ، وقد وصلت السرية إلى هدفها ، فهاجم أفرادها بنى عامر فى الصباح ، وما لبثوا أن نفروا وتراكضوا بأرواحهم ، تاركين مواشيهم . . فغنمها المسلمون عن آخرها ، وساقوها إلى المدينة التى وصلوها بعد أسبوعين من مغادرتها . .

سرية الى ذات أطلاح

بعد وادى القرى فى الطريق إلى الشام جمع كبير يسكنون بذات أطلاح ، ويجعلها البعض من أصل بلاد الشام ، وهم على الشرك ، ولقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام مع السرية التى كانت فى خمسة عشر جنديا بقيادة كعب بن عمير الغفارى ، وقد غادروا المدينة فى ربيع الأول ، وهم يجهلون ما قدر لهم . .

إذ بينما هم ماضون إلى ذات أطلاح ، بعد تجاوزهم للطريق الطويل ، رآهم من المشركين من أبلغ عنهم ، فاستعد القوم للمواجهة غير المتكافئة . . وبادرهم المسلمون بالدعوة إلى الإسلام ، فما استجابوا إلا للحرب . . فقاتل أفراد السرية القليلة العدد ، جمعاً كبيراً من المشركين الذين سيطروا على الموقف وقتلوا أفراد السرية ، وما كان منهم على رمق إلا القائد ابن عمير ، فجالد ، وتحامل على جراحه حتى تمكن من العودة إلى المدينة . .

ويعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحادث الداهم ، فيشتد حزنه ، وأراد لو أرسل بجنود آخرين ، لولا علمه بأن أولئك القوم ، تحسبوا للمستقبل ، وتركوا أماكنهم تلك كبامو رحل ، يبحثون عن مكان وماء ومرعى غير الذى كانوا فيه .

أول قتال للروم

ليست سرية هذه ولا غزوة . . كما ذكر بعض المؤرخين تلك ، وبعضهم الآخر هذى . . ولكنه الاستعداد للتوسع فى حجم فى المقاومة وبسط النفوذ على نطاق أكبر . . فمسئوليات الدولة الإسلامية الجديدة ، تتطلب فى حمايتها أكثر من ذلك ، وقد دخل فى الإسلام عدد لا يستهان به عددا وإخلاصا وأمانة وقوة . .

رجال أبطال فى مدرسة النبوة المشعة بالحيوية والتضحية . . بالولاء لله ولنبيه الخاتم عليه الصلاة والسلام . . رجال نذروا حياتهم لهذا الدين ، من أجله يعيشون وبه ينهضون ، وفى سبيله يجاهدون وينتصرون . .

ثم . . الخطوة الجديدة التى أقدم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إبلاغ دعوة الإسلام إلى قادة الدول الكافرة ، من صميم جهاده الذى كلفه الله به ، مؤدياً الأمانة ، مبلغاً للرسالة . . حتى آخر نبضاته عليه الصلاة والسلام . .

وفى شهر جماذى الأولى ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً من أولى رسائله إلى ملك الروم وقيل إلى أمير بصرى — من قبل هرقل . وقد حملها إليه عن طريق الشام : الصحابى الحارث بن عمير الأزدى — من بنى لهب . .

وما أن وصل الحارث بن عمير إلى الشام حتى التقى به شرحبيل بن عمرو الغسانى — من أمراء هرقل . فاستوقفه يستوثق منه عن شخصيته ، ثم يبادر بقتله وقد عرف أنه مرسل من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد ثبت أنه لم يقتل له رسول غير الحارث هذا . .

وما أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر المنكر ، حتى قام يرد بعنف . . فيجهز جيشا فى ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمر عليهم زيد بن حارثة ، وقال لهم قبل مسيرتهم : (إن قتل زيد ، فالأمير جعفر بن أبى طالب ، فإن قتل

فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل ، فليرتض المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميرا) . .

ثم أوصاهم بأن يبدأوا القوم بالدعوة إلى الإسلام ، فإن لم يستجيبوا ، فيقاتلوهم . . وقد أسلم الراية البيضاء إلى زيد بن حارثة ، وسار صلى الله عليه وسلم مع الجيش حتى توقف بهم عند ثنيات الوداع ، يودعهم ويوصيهم بهذه الحكم : (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء) . ثم أضاف : (دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين) . .

إن تلك العبارات دستور للمسلم المحارب فى سبيل الله . . ولعل عبد الله بن رواحة كان أشعر من كان فى الجيش ، فلما سمع ما سمع راح ينشد أبياتا ، قال فى مطلعها :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

روى ابن عباس أن ابن رواحة تخلف حتى صلى الجمعة مع النبى صلى الله عليه وسلم . فلما صلى رآه ، قال : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ، قال : أردت أصلى معك الجمعة ، ثم ألحقهم . فقال صلى الله عليه وسلم : لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها . .

حكمة وتشجيع وحث على السباق من أجل الله وفى الله خالق الكون .

ثم قال ابن رواحة أبياتا أخرى فى وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلعها :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

وانطلق جيش المسلمين إلى غايته حتى وصل إلى (معان) . . وكانت أنباء سيرهم قد بلغت القوم فى الشام ، فاستعد شرحبيل بن عمرو بجيشه الذى كان

قوامه نحو مائة ألف جندى مشرك ، من الروم وراح يستعين كذلك بمثل نصف هذا العدد من قبائل العرب : لخم وجذام وبهرام وقيس . . حتى ينتصر لأسياده الرومـــان . .

وفوجئ الجيش المسلم ، بهذا الطوفان من البشر يتحرك أكثرهم على الخيول ويتأهبون لمحاربتهم فى غير هوادة . . كيداً وعدوانا . .

وتشاور المسلمون فى هذا الأمر الخطير . واقترح بعضهم أن يكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأوا ليمدهم بجيش آخر أو يصدر لهم أمره ليتصرفوا على ضوئه . . ولكن عبد الله بن رواحة لا يلبث أن يهيب بهم ويقول : (ياقوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم إياها تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعـــدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة) . . فأجابوه : قـــد والله صدق ابن رواحـــة . .

وراحوا يعدلون فى استراتيجية معسكرهم . . فاتخذوا من (قرية مؤتة) بجنـــوب البلقاء مسرحا لتوزيعات جيشهم المنظمة ، وكانت بالقرب منهم . . وليكونوا فى موقف الدفاع والمناورة . .

وزحف عليهم العدو بجيشه الهدار . . وهبت النفوس الصافية المؤمنة تدفع الخطر الداهم ، بالإيمان والروح الفدائية التى لا تقهر . . وتقدم أسامة بن زيد — وهو يحمل الراية — بجناح من الجيش يفرى فى العدو فرياً ، حتى استشهد . . ثم تلاه جعفر بن أبى طالب ، حمل الراية واستبسل كإخوانه الأبطال حتى استشهد

وتقدم عبد الله بن رواحة يحمل الراية ويستقبل نفس المصير الطاهر بالشهادة إيمان واحتسابا . . كغيره من أفراد الجند الذين استماتوا فى المقاومة ، واستشهد بعضهم وعلى شفاههم : الله أكبر . . الله أكبر . .

وكان آخر ما قاله عبد الله بن رواحة ، وهو يهوى بسيفه بين الأعداء فيبدد أرواحهم — هذين البيتين :

يانفس إلا تقتلى تموتى	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلى **فعلهما** هديت

كما روى عن جعفر بن أبى طالب ، وهو يقتحم فى قلب الأعداء أنه : (أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو (ابن ثلاث وثلاثين) رحمهم الله . .

وما كاد يسقط (ابن رواحة) حتى جرى (ثابت بن أقرم البلوى) يلتقط الراية ويرفعها عاليا ويصيح : (يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم) فأجابوه : أنت . فرد عليهم : ما أنا بفاعل . .

وكانت الأنظار تتجه إلى خالد بن الوليد فى أول فرصة للقيادة الباسلة . . فاستلم الراية وتأخر بالمسلمين مشيرا إليهم بالتوقف عن القتال الدامى . . فما كان ليستمر هذا الانتحار والفتك بالمسلمين ، أمام آلاف مؤلفة من جند الشرك المتآمر مع الروم . . وهم يريدونها الطامة عليهم . .

وهكذا وضعت الحرب أوزارها ، ورأى خالد أن يعود بالجند المؤمن إلى مدينتهم ، فى انتظار يوم يأتى بمشيئة الله ، لينهزم العدو وأتباعه على كل الجبهات .

وقد بلغ شهداء المسلمين هنا اثنى عشر شهيدا . . أما القتلى من الأعداء فكثيرون . . ويعتبر موقف خالد بن الوليد فى إيقاف القتال حكمة ونصرا لجندى ملهم . .

وقد ورد عن المؤرخ الزهرى أنه قال : (أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم ، وكان عليهم حتى قفل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ولقد كان حزنه عليه الصلاة والسلام كبيراً على موت جعفر بن أبى طالب، ومن معه . وقال عنهم : (لقد رفعوا إلى فى الجنة فيما يرى النائم ، على سرر مـــن ذهـــب) .

وكانت مدة القتال سبعة أيام . . وذكر أن القتلى من المشركين لا يحصون من كثرتهم ، مما يوضح أن المسلمين كانوا فى موضع التفوق والنصرة . . وكانوا يقبلون على الموت كمن يطلب الحياة . . ولب عقيدتهم : الشهادة أو النصر . .

أما عن الشعر فى هذه الموقعة ، فهو كثير . ومنه من قول كعب بن مالك يترحم على الشهداء :

صلى الإله عليهم من فتيـــــة ... وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا بموتة للإلـــه نفوسهـــم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

فمضوا أمام المسلمين كأنهـــم ... فنق عليهن الحديد المرفـــل

أما حسان بن ثابت فقد قال فى قصيدته :

رأيت خيار المؤمنين تـــواردوا ... شعوب وقد خلفت فيمن يؤخر

فلا يبعدن الله قتلى تتابعـــوا ... بموتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله حين تتابعـــوا ... جميعاً وأسباب المنية تخطـــر

وشعوب هنا بمعنى المنيه وكأنما يأسف حسان على الذين وردوا للموت ، وتأخر هو عنهـــم .

سرية إلى ذات السلاسل

فى شهر جمادى الآخرة . كان قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيام جماعة من بنى قضاعة فى بلاد (بلى وعذرة) خلف وادى ذى القرى بالشام . يتجمعون ويريدون الإغارة على المدينة . . فأعد لهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم جيشاً قوامه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار وأمر عليهم عمرو بن العاص ، ومعه ثلاثون من الخيل . . وكان لواؤه أبيض ، ورايته سوداء . .

وعندما بلغت السرية إلى قرية قريبة من القوم . . عرف أميرها عمرو عن تجمعات كبيرة للعدو ، مما اضطره للتوقف ، وأرسل أحد جنوده : رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخبره الخبر ويطلب منه الإمداد فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمائتى جندى ، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وفيهم صاحباه : أبو بكر وعمر . . ليلتحقوا بجيش عمرو فى الشمال . ويكونون معه ولا يختلفون . . حتى إذا وصلوا والتقوا ، احتفظ عمرو بإمارة الجيش وقيادته وصلاته بالمسلمين . .

وساروا إلى أن نزلوا تجاه جموع بنى قضاعة فى موضع ماء جذام ، ويسمى السلسل لكون منظر الرمال المتماوجة هناك كالسلاسل ، ولهذا سميت الموقعة (ذات السلاسل) نسبة إلى المكان الذى جرت عليه . .

وزحف المسلمون على الجموع الخليطة ، حتى شتتوهم وأبادوا الكثيرين منهم ، بينما تولى الآخرون هربا . . وطاردهم المسلمون إلى أقاصى بلادهم ، وكان هناك جمع آخر مسلح ضدهم ، فقضوا عليهم بين قتيل وهارب ، وكان فيهم من الأعراب المناصرين للروم . . فانهزموا وضعفت إمكانياتهم عن أية مقاومة .

وهكذا حقق المسلمون النصر ، وعادوا بالغنائم . . وقد عادت لهم هيبتهم على طول الطريق ، وخضع الكثير من القبائل ، وخشى الأعراب أن يصيبهم ما قد أصاب غيرهم من قتل وشتات . . وكان فضل الله على المؤمنين كبيرا . .

وهناك فى (الطبقات الكبرى) لابن سعد قوله : (وسار عمرو بالناس حتى وطئ بلاد بلى ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد غدر وبلقين ، ولقى فى آخر ذلك جمعاً منهم ، فحمل عليهم المسلمون ، فهربوا فى البلاد وتفرقوا ، ثم

قفل ، وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بقفولهم وسلامتهم وما كان فى غزاتهم) . .

سرية إلى جهينة

فى اتفاق صلح الحديبية ، كانت قبائل خزاعة قد دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده ، كما دخلت قبائل بنو بكر فى عهد قريش وعقدهم .

وحدث بين بعض رجالات خزاعة وبين بعض بنى بكر . . نزاعات أدت إلى عداء وقتل بين أولئك الفرقاء ، وكان من قريش من ناصر بنى بكر على خزاعة . مما اعتبر نكثاً للمصالحة التى عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وبين قريش ، إلى الحد الذى أدى فيما بعد إلى أن قريشا بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء تأكيد الصلح وإطالة أمده . . مما سنعرفه أثناء الحديث عن فتح مكة فى مكانه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قــد بعث بسرية قوامها ثلاثمائة مقاتل بقيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح فى شهر رجب ، لتأديب بنى جهينة حيث تقطن فى الشمال على اتجاه الساحل بموضع يدعى (القبلية) . . ثم مراقبة تجارة لقريش كانت فى طريقهــا من الشام . . وذلك انتقاماً من نقضها للمصالحة ومساعدة المعتدين من ذويها وحلفائها . . غير أن القافلة لم تمر بالطريق .. وبقى جند المسلمين خمسة عشر يوما ، تعرضوا خلالها لقلة الغذاء ، بل وللجوع بعد أن فرغ جراب التمر الذى زودهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى لقد قال أحدهم ، وهو الصحابى جابر : (كنا نضرب بعصينا الخبط ونبله بالماء فنأكله) والخبط : ورق الشجــر . .

وكانوا ينتظرون أن يحصلوا فى خروجهم على مغانم يفيدون منها . . ولكنهم لم يجدوا أثراً من بنى جهينة . . ولا حصلوا على أثر لقافلة قريش . .

وجيش بذلك الحجم يحتاج إلى زاد وافر . . فكان جمل واحد لا يكفيهم كلهم فى يوم واحد . . وقد ذبح لهم قيس بن سعد بن عبادة ثلاثة من إبل ابتاعها من رجل بالساحل على دين ، امتنع عمر بن الخطاب أن يضع فيه شهادته آنذاك وقال : (هذا يدان ولا مال له إنما المال لأبيه) . . وقد منع أبو عبيدة قيسا من ذبح باقى الإبل ، فرد عليه قيس : (أترى أبا ثابت — والده يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله) . .

ويروى بعض المؤرخين القدامى بأن البحر بمشيئة الله — ألقى على الساحل بسمكة كبيرة جدا من صنف العنبر . . فأكل عامة الجيش حتى شبعوا . . وتسمى هذه السرية كذلك بسرية الخبط ، لأكل أفرادها ورق الشجر .

سرية إلى غطفان

بنجد بطن من قبيلة غطفان ، تقطن موضعا يدعى (أرض محارب) . . وقد أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرية من خمسة عشر جندياً بقيادة أبى قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى . . لتأديبهم وكسر شوكتهم ، وذلك فى شهر شعبان . . وما أن وصلوا إلى منازل القوم ، حتى أسرعوا بشن غارة جماعية عليهم . . فقتلوا منهم البعض ، واستولوا على مواشيهم وبعض النساء والأطفال . .

وحدث عبد الله بن عمر قال : (بعث صلى الله عليه وسلم سرية قبل نجد ، فكنت فيها ، فغنموا إبلاً كثيرا وغنماً ، فكانت سهامنا اثنى عشر بعيرا ، ونفلنا بعيرا بعيرا ، فرجعنا بثلاثة عشر بعيرا) . .

واقتادت السرية مغانمها وعادت إلى المدينة ظافرة . .

قبل فتح مكة

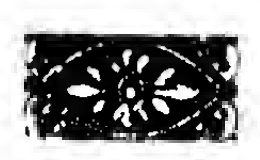
أبو قتادة الحارث بن ربعى نفسه، اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسله فى أول شهر رمضان ، برفقة ثمانية من صحابته . . إلى (بطن إضم) ويبعد عن المدينة بنحو خمسة وعشرين ميلا . . وذلك لإيهام عيون قريش أنه سيقصد إلى تلك الجهات . . فلا تتسلط عليه أضواؤهم ، ولا يعرفون أنه سيقوم وجنده إلى ربوعهم بمكة ، فلا يستجمعون ضده ، وبأمر الله يدخل عليهم فاتحاً لا غازيا . .

ولعل أهم ما حدث فى بعثة أبى قتادة هذه ، ما روى أحد رفاقه ــ عبد الله بن أبى حدرد ــ إذ قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليـــه وسلم إلى إضـــم فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحلم بن جثامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم ، مرعلينا عامر بن الأضبط الأشجعى ، على قعود له ومعه متبع له ووطب من لبن ، فسلم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ، وحمل عليه محلـــم فقتله لشئ كان بينه وبينه وأخذ بعيره ومتبعه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله علية وسلم وأخبرناه الخبر ، نزلت فينا : (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملـــون خبـــيرا) . .

وذكر أن السرية ، بلغها قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قد خرج بالناس فى الطريق إلى مكة ، فشد أبو قتادة رحله ورفاقه ، واتجهوا يلحقون بهم ، فأدركوهم بالسقيا . . وأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قام به ملحجم ، فغضب لذلك ، وكان أن نزلت الآيـــة الكريمة . . وكانت درسا عميقا للقوم المؤمنين ، حتى لا يقع منهم مثل ذلك الخطأ . . وما هو إلا أسبوع ويتوفى ملحم ، وقد ذكر ، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يستغفر له تأديباً وموعظة لغيره من المسلمين . .

إنها دروس النبوة لتهذيب الناس وتوعيتهم إلى أمور دينهم ودنياهم ، ولا عدوان إلا على الظالمين . . فمثل المؤمنين كالبنيان المرصوص ، إذا تداعى ركن منه سقط الباقى . . وإنهم كالجسد الواحد إذا مرض فيه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . .

قال الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) . .



مكة تستقبل الاسلام

روى أبو هريرة — رضى الله عنه قال :

لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة ، قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

(إن الله تعالى حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليهم رسوله والمؤمنين ، وإنها لم تحل لأحد قبلى ، وإنها إنما حلت لى ساعة من نهار ، وإنها لن تحل لأحد بعدى ، فلا ينفر صيدها ، ولا يخلى خلاها ، ولا يقطع شجرها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتيل) — فقال العباس : (إلا الإذخر يارسول الله ، فإنا نجعله فى قبورنا وبيوتنا . فقال : إلا الا ذخر) .(١)

وفد اخزاعة وقريش

الخلاف القديم بين قبيلتى بنى بكر وخزاعة بمكة . . كان قد وضع نهائياً بعد تلك المعاهدة التى حسم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الخلافات بين فرقاء الصراع . . فى صلح الحديبية الذى اعتبر فتحاً للإسلام ولرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وللمسلمين . . وكانت قريش تحسبه التقاط أنفاس لها ، وفى صالحها . . ولم يكن الصلح إلا هدنة تهدأ خلالها نفوس الأعراب ، ثم يلين أكثرها إلى طاعة الله والرضى بما أرسله من دعوة الدين والحق . .

وكما عرفنا بدخول قبيلة بنى بكر فى عهد قريش ، ودخول خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفى الأمين . . ثم من عودة الخلاف بين القبيلتين ، مما دفع بنى بكر مع بعض من قريش للدخول فى معركة بين القبيلتين ، قتل فيها

(الخلا) : العشب . (اختلاؤه) : قطعه .
(لا تحل لقطتها الا لمنشد) : لمعرف لها على الدوام .

نحو من عشرين رجلا من خزاعة . . فإذا بها تستجير بحلفائها من المسلمين . . وتبعث برسولها عمرو بن سالم الخزاعى ، فيقصد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو بالمسجد ينشد أبياتاً أمام صحابته ، يقص له حادث نقض العهد ، وبدأها قائـــلا :

يارب إنـــى ناشد محمــــــدا حلف أبيــه وأبينـــا الأتلـــدا

واختتمها بقوله — وهو يشير إلى غدر قريش وبنى بكر :

هم بيتونـــا بالوتـــير هجـــدا وقتـــلونا ركعـــــا وسجـــدا

فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت ياعمرو بن سالم .

ثم تبعث خزاعة بوفدها ليشرح القضية برئاسة بديل بن ورقاء . . ويحيط منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً بكل ما كان من أمر الخلاف والعدوان . ثم ارتحل الوفد على وعد بالنصرة ، وبوصية لضبط النفس والتعقل . .

ويلتقى الوفد فى طريقه بوفد لقريش قادما من مكة وعلى رأسه أبو سفيان ابن حرب . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لصحابته قبل مجيئه : (كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة) . .

وكان أول ما عمله أبو سفيان عند وصوله المدينة ، أن دخل بمفرده على ابنته أم حبيبة ، (زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم)وعندما هم بالجلوس على فراشه ، طوته عنه ، فعجب من فعلها ، وقـــال : يابنية ماأدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ فأجابته : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ، فقال لها : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر . . ولقد كان هو غفل عن أن الشر فى طباعه وعلى ما كانت فيه حاله . .

وعندما قصد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجد عنده إنصاتا ولا جوابا . . وكذلك الأمر فى حديثه لأبى بكر الذى قال له : ما أنا بفاعل ، بعد أن طلب

منه أن يتوسط له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما عمر بن الخطاب — حين طلب أبو سفيان منه ذلك ، فقد قال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . .

وقصد أبو سفيان — فى آخر محاولاته — إلى على بن أبى طالب يستنجده لأنه أمس القوم به رحما ليشفع له . . فما كان من على إلا أن قال له : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . . وبعد محاولات طلب أبو سفيان النصيحة من على ، فقال له : والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم ألحق بأرضك . .

ولحق بأرضه خائبا يتفكر كبقية بنى قومه فى وضع أصبح لا يملك التحكم فيه ، وقد خرج الزمام من يده شاء أم أبى . .

التكتم فى الخروج إلى مكة

(اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها) . . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يأمر صحابته بالتجهيز للرحلة التاريخية الكبرى . . فإذا هم فى سباق لتنفيذ أمره ، والفرحة تملأ صدورهم . . وقبل مسيرهم حدث اكتشاف مؤامرة بقصد الإبلاغ عنهم لقريش . . ذلك أن (حاطب ابن أبى بلتعة) كتب كتابا إلى قريش ، يخبرهم عن استعدادات المسلمين وعزمهم على السير إليهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد أبلغ من ربه تعالى عن أمر الخطاب وإرساله مع امرأة خرجت به إلى مكة . .

فأرسل خلفها على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، يطاردانها حتى أدركاها فى مكان يدعى (روضة خاخ) — كما وصفه لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأمراها بالنزول عن راحلتها ، وأنكرت أن معها الكتاب ، وبعد تفتيش رحلها

ولم يجدا شيئا ، قال علي : (أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك) . . فطلبت منهما أن يعرضا عنها ، واستخرجت الكتاب من تلافيف شعرها وناولتهما إياه . .

فتركاها وانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب . . فيدعو مرسله حاطباً ، يسأله عما اضطره لعمل كهذا ، فيرد حاطب قائلاً : لا تعجل على يارسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة يحمونها ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي . .

وهب عمر بن الخطاب يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل حاطب ، فيقول عليه الصلاة والسلام بسماحته المعتادة وتسامحه : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . .

وهنا بكى عمر وهو يقول : الله ورسوله أعلم . .

وفي ذلك نزلت هذه الآيات – فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) . .

حزب الله إلى بيت الله الحرام

في العاشر من شهر رمضان ، غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في أكبر حشد إسلامي من حزب الله ، وقد ارتفع عددهم إلى عشرة آلاف صحابي متحفز . . يطيعون رسول الله ما أمرهم . . ويهتدون بهديه وخطاه . .

وقد استخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة الصحابى : أبا رهم كلثوم بن حصين عتبة الغفارى . . وكان هو وصحابته صائمين ، غير أنه ما أن بلغ بهم إلى الكديد ـ بين عسفان وأمج ـ حتى كان يرى الجهد عليهم ، فأفطر وأفطروا معه .

وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج من مكة بأهله وعياله مهاجرا . . والتقى فى الجحفة بموكب رسول الله صق الله عليه وسلم ، فحياه الرسول الكريم ورحب به ، وكان قد أقره أن يبقى بمكة على سقاية الحج ـ وهو يكتم إيمانه ـ فى الوقت الذى يكتب له بأخبار قريش . . حتى وجـــد أن الحياة قد خلت فى مكة من الحيوية وروح الألفة ، بعد أن رحل عنها كل مسلم وكل قريب . . ولم يبق إلا الجمود والتكـــاسل . .

وقد بعث العباس (بثقله) إلى المدينة ، ورافق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موكبه . . وبينما يصلون إلى موضع (نيق العقاب) ليستريح المسلمون ، يصل المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فى طريقهما مهاجرين إلى المدينة . .

ويلتمس المغيرة (ويكنى أبا سفيان) وزميله عبد الله الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيرفض استقبالهما لما كانا عليه من شدة الإيذاء له ومناصبته العداء فى مكة . . وكانت واسطتهما زوجه أم سلمة قـــد قالت له : ابن عمك وصهرك ، فقال لها : لا حاجة لى فيهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال . .

ولما يئس المغيرة قال لأم سلمة : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى ابنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا . .

فلما رأى ذلك منهما أذن لهما ، ليسلما على يديه ويعتذران ، وذكر أن المغيرة قال فى اعتذاره شعرا يشيد بمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنه قولـــــــــه :

هـــداني هاد غير نفسي ونالني	مع الله من طردت كل مطرد
أصد وأنأى جاهداً عن محمـــد	وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
لعمـــرك إني يوم أحمل رايـــة	لتغلب خيل اللات خيل محمد

وسار موكب الإيمان الهادر ، حتى استراح في (مر الظهران) . . ومـــع طلوع أول صباح ، كان العباس بن عبد المطلب يتأمل الأفق وهو يقول : واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتـــوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . .

حديث العباس

ثم تحدث العباس – عم رسول الله صلى الله عليه وسلم – وقال : فجلستُ على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، فخرجت عليها ، حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي إلى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، وإني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له ، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرا ، يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، ويقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي ، فقال : أبو الفضل ، قلت : نعم . قال مالك فداك أبي وأمي ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، واصباح قريش والله ، قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجيزة هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ، فأستأمنه لك ، فركب خلفي ، ورجع صاحباه ، فجئت به ، كلما مررت بنار المسلمين قالوا : من هذا ، فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا : عم رسول الله على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن

الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بلا عقد ولا عهد .

ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركضت البغلة ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطئ ، والتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأ ضرب عنقه ، قلت : يارسول الله ، إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل . فلما أكثر عمر فى شأنه ، قلت : مهلا ياعمر ، فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، فقال : مهلا ياعباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، ومابى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فــأتنى بــه .

فذهبت به إلى رحلى ، فبات عندى ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد ، قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى سول الله ، قال : بأبى أنت وأمى ،،ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا بعد ، فقلت له : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق وأسلم ، فقلت : يارسول الله ، إن أبا سفيلن رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب لينصرف ،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها . فخرجت به حتى حبسته بمضيق الوادى . حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه . ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباس ، من هذه ؟ فأقول : سليم ، فيقول : مالى ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول : ياعباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة . حتى نفذت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا يسألنى عنها ، فإذا أخبرته بهم ، قال : مالى ولبنى فلان ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لايرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

لقد كان جيشا مدججا بسلاحه ، تحسبا لأية مؤامرة أو مقاومة من القوم الكافرين . . ولا يعلم الغيب إلا الله . . فلقد عرف القائد والمعلم الأول عليه الصلاة والسلام غدرهم ، وخبر مكائدهم ، فكان لابد من هذا الاستعداد الحاشد ، وكأننا نستمع من وراء القرون ، والجيش فى طريقه إلى مكة ، تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتفا يقول له : (إن الـــذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) . . صدق الله وعده . . جل فى علاه . .

كتائب المسلمين في مكة

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقدمة جيشه إلى كتائب ثلاث . . وهم على مشارف مكة بذى طوى . . فالكتيبة اليمنى ، عليها خالد بن الوليد ، ليدخل مكة من أسفلها من مكان يدعى (الليط) . . والكتيبة اليسرى ، عليها الزبير بن العوام ليدخل مكة من جانب كدى . . وكتيبتان متقاربتان ، على إحداها سعد بن

عبادة ، وعلى الأخرى أبو عبيدة عامر بن الجراح . . الذى يدخل من أعالى مكة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلحق به الكتيبة الأولى . .

وروى عندما توجه سعد بن عبادة داخلا بالجيش أنه قال : (اليوم يـــوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة) . . فسمعها عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (اسمع ما قال سعد ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة) فنـــادى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب يقول له : أدركه ، فخذ الراية منه فكن أنت لى الذى تدخل بها . .

ومرت كتيبة أبو عبيدة من (أذاخر) لتصب على مكة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث ضربت له قبة بأعلى مكة . .

وكان أبو سفيان بن حرب قد سبقهم إلى قومه ينادى فيهم : يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فرد عليه بعضهم : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ فقال : ومن أغلق عليـــه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . .

ولهذا كانت مكة شبه خلاء من الناس . . ولم يرفع سلاح إلا فى مواضع متفرقة . . فقد كان الثالوث الخبيث : صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو قد استعدوا بسلاح المقاومة الفاشلة ، وخرجوا فى مواجهة أسفل مكة ، حيث اشتركوا مع حماس بن قيس ، ولهم جمع من أعوانهم كمنوا فى الخندمة ، حتى إذا ما أقبل خالد بن الوليد بجيشه . . سلك فريق من الجيش طريقا ، وفيه هاجمهم القرشيون ، فاستشهد اثنان : حنيس بن خالد وكرز بن جابر . . وبادر خالد بالسيطرة على الموقف وجيشه يلاحق المعتدين حتى قتل منهم ثلاثـــة عشر رجلا . . وانهزم الآخرون . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوصى أمراءه على كتائب الجيش ، عند دخولهم مكة بأن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم . . وقد حدد لهم أسماء أشخاص

بأن يقتلوهم وإن كانوا قرب الكعبة . . ومنهم : الحويرث بن نقيذ الذى كان يؤذيه ، وعبد الله بن سعد وعبد الله بن خطل - اللذان ارتدا عن الإسلام - والقينتان : فرتنى وصاحبتها ، لغنائهما بهجائه صلى الله عليه وسلم . .

ويصف لنا عبد الله بن أبى بكر ، كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أشرف على مكة ، فقال : (إن رسول الله لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجرا بشقة برد حبرة حمراء ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل) خشوع العظيم . . فى الموقف العظيم . . لله القدوس الأعظم . . جل جلاله . .

اذهبوا فأنتم الطلقاء

بالسلم والسلام افتتحت مكة . . وأفراح المسلمين تنطق فى وجوههم . . . بل وإن شعاب مكة وأوديتها وجبالها ، لها فى ذلك اليوم نضارة لم تكن لها من قبل . .

فلقد دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجنوده الأطهار فى فرحة العائد إلى وطن . . وقد اطمأن كل الناس . . وبدأ صلى الله عليه وسلم - أول ما بدأ - بأن طاف بالكعبة ، ثم أخذ بالمفتاح من عثمان بن طلحة ، ففتحها ودخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ثم طرحها . .

وبعد أن صلى بها وقف على بابها يتحدث إلى الناس قائلا :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، يامعشر قريش ،

إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم . وآدم من تراب ، (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) . .

إنها عبارة نبوية . . تمسح عن كل الناس أخطاءهم . وتوجد فى أنفسهم معانى الحياة الجديدة . . بالإباء والطيبة والكرامة . .

وإذ نزل رسول الله من الكعبة ، قال له على بن أبى طالب : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، ولكنه تلفت ، وقال : أين عثمان بن طلحة ، اليوم يوم بر ووفاء . .

ومن كرسول الله صلى الله عليه وسلم يبر ويفى ، ويصفح ويعدل ؟ !

قال ابن هشام فى سيرته : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين) ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست . .

وحدث ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته . فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك :

وفى الأصنام معتبر وعلـــــم		لمن يرجو الثواب أو العقابا

ولقد كان الفتح موافقا لليوم العشرين من شهر رمضان . . وفى اليوم الثانى ، حدث أن بعض بنى خزاعة قتلوا مشركا من بنى هذيل ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن جمعهم وخطب فيهم قائلا :

يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، ولا يعضد فيها شجرا ، لم تحلل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحلل لى إلا هذه الساعة ، غضباً على أهلها ، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها ، فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم ، يامعشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله . .

كانت تعاليمه عليه الصلاة والسلام تترى لقومه المؤمنين ، ليكونوا على بينة من أمرهم ، وليعرفوا حرمة بلادهم المقدسه التى جعل الله تعالى فيها بيته الحرام ، يؤدون فيها نسك حجهم ، ويتجهون إليه فى صلواتهم أينما كانوا . . لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقد طهر البيت الحرام من خبائث الأصنام وعادات الجاهلية ــ حريصاً على أن يعيد له مكانته ، ويتشدد فى صيانة حرماته . .

أما بالنسبة له شخصياً . . فصفوح سموح ، حتى عندما تعرض له ــ وهو يطوف بالبيت يوم الفتح ــ فضالة بن عمير بن الملوح يريد قتله ، فعندما اقترب منه هذا ، قال له : أفضالة ؟ قال له : نعم فضالة يارسول الله ، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ أجابه : لاشىء ، كنت اذكر الله . وبيسمته المنتصرة قال له صلى الله عليه وسلم : استغفر الله . . ووضع يده على صدره ليسكن قلبه . فقال فضالة : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلى منه ،

فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا . . ثم إذا به يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت لا   يأبى عليك الله والإســـلام
لو ما رأيت محمــداً وقبيلـــــه   بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحـى بينـاً   والشرك يغشى وجهه الإظلام

حقيقة فقد انتهى الشرك من مكة كحكم وكنظام وكمبدأ . . لجاهلية غربت إلى الأبد . . لم يبق إلا أفراد وجماعات قلة . .

ولقد أسلم يوم الفتح كثيرون ، حتى إن قبائل بكاملها كانت تعلن إسلامها ومناصرتها لدين الله ولرسوله عليه الصلاة والسلام . . وكان أول من أسلم ساعة أن دخل المسجد الحرام رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبو قحافة) ، وهو كهل، جاء به ابنه أبو بكر الصديق . .

ولقد صفح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض من أمر بقتلهم ، ثم أسلموا ، كما أسلم صفوان وعكرمة اللذان هاجما جند خالد عند دخوله مكة . . فكان عفوه صلى الله عليه وسلم – عند المقدرة – سجية يعيشها ، ويستجلب بها قلوب الناس ليطمئنوا ويفهموا عقيدة الإسلام الإصلاحية والصالحة لكل زمان ومكان

جاء نصر الله

نزلت سورة (النصر) فى فتح مكة . . فقال تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنــه كان توابـــا) . .

وكان نصراً مؤزرا . . فليس للمشركين بعده من حق أن يقتربوا من بيت الله بعد أن كانوا يصولون ويجولون بعبثهم ووثنياتهم . .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى هاتين الآيتين تحريما ومنعا لهم . . ثم ليدفعوا الجزية للمسلمين لقاء حقن دمائهم : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم، قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين آوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .

وقد كان الكفار على ثلاثة أقسام : أهل عهد ، وأهل ذمة ، ومحاربون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأسلم أهل العهد . .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم أنه قال : (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم أمرهم أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم) . .

وقبل القفول إلى المدينة ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائده خالد ابن الوليد إلى (نخلة) لهدم العزى ، وهو بيت تعظمه قريش وكنانة ومضر ، وله سدنة من بنى سليم ، فهدمه خالد من أساسه ، وكان عليه سيف الحاجب السلمى معلقا ، تركه عندما سمع بخالد يقصد إلى هدم العزى وقال فى هواجسه الوثنية :

أيا عز شدى شدة لا شوى لها ... على خالد ألقى القناع وشمرى

ياعز إن لم تقتلى المرء خالدا ... فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

لقد انقضى كل ذلك الوسواس والمجون والإضلال . . فقد محت العقيدة الإسلامية كل عادات الشر والقبح . . وحل محلها وعى وتفتح لفهم حقيقة الإنسان . . وعاد للعقل رشده ، يصرف أمور هذا الإنسان ، أرقى مخلوقات الله تعالى ، والمكرم عنده . .

(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . .

وراح الشعر : النبع الصافى للنفوس المؤمنة — يترجم مشاعرها عن الفتح الكبير . . وعن النصرة لها ولرسالة دينها الحق . . فمن شعر حسان بن ثابت — قوله :

لنا فى كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء
لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء

أما شاعر قريش عبد الله بن الزبعرى وقد أسلم — فقال يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى قصيدته :

يارسول المليك إن لسانى ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
آمن اللحم والعظام لربى ... ثم قلبى الشهيد أنت النذير

كذلك عباس بن مرداس — وقد أسلم قال :

منا بمكة يوم فتح محمد ... ألف تسيل به البطاح مسوم
نصروا الرسول وشاهدوا أيامه ... وشعارهم يوم اللقاء مقدم
فى منزل ثبتت به أقدامهم ... ضنك كأن الهام فيه الحنتم
جرت سنابكها بنجد قبلها ... حتى استقام لها الحجاز الأدهم
الله مكنه له وأذله ... حكم السيوف لنا وجد مزحم

كان يوم الفتح . . فاتحة لإسلام أكثر أهل مكة . . وكان عيدا للمسلمين كيوم طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنيات الوداع بالمدينة — وهم فى عدد محدود . . واليوم ومكة تموج بالآلاف من المؤمنين . . وقد استرد الله لرسوله دار بعثته . . عيد للحياة والنصر يزهو حول الكعبة المشرفة . . وأى عيد .

ولقـــد أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قرابة شهرين بعد عيد الفطر ، ثم أذن للناس بالرحيل معه إلى عاصمة دولته الإسلامية الأولى ، مظفرين فخورين بما حقق الله الناصر المنعم المتفضل لنبيه من النصرة والنعماء والفضل . . عليه أفضل الصلاة والسلام . .

سـرايا لهـدم الأوثان

عرفنا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل خالد بن الوليد إلى هدم (العزى) . . وكان ذلك بعد بضعة أيام من فتح مكة ، وكان معه ثلاثون من فرسان المسلمين . .

وفى الوقت نفسه ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم — عمرو بن العاص، مع فرسان من جنده ، حيث قاموا بهدم صنم (سواع) الذى كان لقوم نوح ، ثم اتخذته هذيل معبدا ، ويبعد عن مكة بثلاثة أميال . .

كما أرسل صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأشهلى ، ومعه عشرين فارسا ، فقاموا بهدم صنم (مناة) قرب جبل المشلل عند ساحل البحر الأحمر ، وكان يتعبد عنده بنو كعب وخزاعة ، ومن كان وثنياً من الأوس والخزرج . .

وكل هذه السرايا أرسلت من مقر القيادة المؤقتة فى مكة . . وقبل أن ينتهى شهر رمضان . . كانت بيوت الشرك ورموزه قد انحطمت إلى الأبد . .

غـزوة حنين

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتوى الرحيل من مكة . . بلغته أنباء تجمع قبيلتى : هوازن وثقيف ، مع أتباع لهم فى واد بديار (هوازن) يدعى (أوطاس) بين مكة والطائف . . ويريدون أن يغزوا مكة . قبل أن يتعرضوا هم للغزو ، كما نادى محرضهم الأول مالك بن عوف .. وقد بلغ جيشه نحو ثلاثين ألفا .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطلع أنباءهم : عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى ، بأن يختلط بهم ، ويعرف حقيقتهم . . فعاد إليه بصحة تجمعهم للحـــــرب . .

ونادى فى الناس منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى حنين ، وهو الوادى المجاور لوادى أوطاس . .

وبعد أن استعمل على مكة أميراً لها : عتاب بن أسيد . . خرج فى كامل جيشه الذى قدم به مكة وزاد عليه ألفان من الذين أسلموا . . غير أنهم كانوا بغير استعداد بالسلاح إلا القليل ، استهانة بمن قد يواجهونهم من ثقيف ومن معها . .

فى هذا الأمر ، روى الصحابى جابر عن أبيه عبد الله قال (لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة ، أجوف حطوط إنما ننحدر انحداراً ، وفى عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه وأجنابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيأوا وأعـــدوا ، فوا لله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : (إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلى ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله) . .

كما روى العباس بن عبد المطلب قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى ، فلما التقى المسلمون والكفار ، ، ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلته أكفها إرادة أن لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى عباس ناد أصحاب السمرة ، فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السمرة ؟ فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى ، عطفة

البقر على أولادها ، فقالوا : يالبيك يالبيك . فاقتتلوا والكفار ، والدعوة فـي الأنصار يقولون : يامعشر الأنصار يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا : يابني الحارث بن الخزرج يابني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال : هذا حين حمى الوطيس ، ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، وقال : انهزموا ورب محمد ، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيأته فيما أرى ، فوالله ماهو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا .

وهنـاك أحاديث لبعض الصحابة فيها إضافة ، وبأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ودعا واستنصر وهو يقول :

أنـا النبي لا كـذب أنـا ابن عبـد المطـلب .

وقد كان الثابتون الأوائل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : العباس وعلى وأبو بكر وعمر والفضل بن العباس وأبو سفيان وابنه وأسامة بن زيد ، وسواهم .

وهكذا حاقت الدائرة بالعدو . وقد بعث الله تعالى من عنده جنود التأييد ، ثم أنزل سبحانه بهذا المعنى ، فى قصة حنين . فقال جل شأنه : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) . .

ثم إنه سبحانه ليقول : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) . . فهذا ما وعد به حزبه ، ليجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . .

وعلى صعيد حنين ، وفلول الكفر منهزمة ، كان يعلو صوت سيدة مـن المسلمين يردد :

قد غلبت خيل الله خيل اللات وخيلـه أحـق بالثبـات

وقد تتبعت فرسان المسلمين الجيش المنهزم الذى سلك إلى وادى نخلة ،حتى أجهـــدوهـــم . .

وقتل يومها (دريد بن الصمة) الذى كان يحاول أن يرجع عمرو بن عوف عن قتال المسلمين ، ونصحه أن يعود بالنساء والصبيان والأموال التى حمل جنوده على أن يحضروها معهم . . فما كان عمرو لينتصح ، وأصبح معظم ما جاء به جيشه غنائم للمسلمين ، إذ قدرت الإبل بأربعة وعشرين ألفا ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وستة آلاف رأس : السبى ، ونحو أربعة آلاف أوقية من الفضة . . وقد انتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر يوماً بأمل أن يعود القـــوم ويسلموا كى يرد عليهم مالهم وسباياهم . . فلما مكثوا على حالهم ، قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفىء على المسلمين المحاربين وكبار القبائل وقريش . .

ولم يكن من نصيب الأنصار إلا اليسير ، مما جعلهم يجدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما قال له عنهم سعد بن عبادة — فطلب منه أن يجمعهم أمامه ، ليتكلم عليه الصلاة والسلام بما فى نفسه ويقول لهم : (يامعشر الأنصار ، مقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : الله أمن وأفضل . فقال لهم : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ فردوا : بما ذا نجيبك يارسول الله ولرسوله الفضل والمن . قال لهم : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فواسيناك . أوجدتم على يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيـــده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وواديا ، وسلكت الأنصار شعبا وواديا ، لسلكت

شعب الأنصار ووادياها ، الأنصار شعار ، والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) . .

قال الراوى : فبكى الأنصار حتى أخضلت لحاهم . . ثم قالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظا . .

هذا وكان شهداء حنين : أربعة فقط ، وهم : أيمن بن عبيد — من بنى هاشم — وأبو عامر الأشعرى ، ويزيد بن زمعة ، وسراقة بن الحارث بن عدى . أما قتلى العدو فكانوا كثيرا ، حتى أن قوم بنى رئاب قد لاقوا جميعهم حتفهم . .

وقبل مغادرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وادى حنين ، كان قد وصل إليه وفد بنى هوازن : زهير بن صرد وأربعة عشر مرافقا . . وكان فيهم (أبو برقان) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطالبون بالسبى وإعادة الأموال . . فرد عليهم صلى الله عليه وسلم : إن معى من ترون ، وإن أحب الحديث أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فأجابوه : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فأوصاهم قائلا : إذا صليت الغداة ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله أن يرد علينا سبينا . .

وفعل الوفد كما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فامتنع بعض الناس ثم وافقوا لما أرضاهم به صلى الله عليه وسلم من وعد بتعويضهم السبى فى مغانم أخرى . . وأعيدت النساء والأبناء إلى بنى هوازن ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم . .

وقد قيل شعر كثير فى هذه الغزوة المنتصرة . . فذاك عباس بن مرداس ، يذكر بعض القبائل المجاهدة وموقفها الشريف . . ومن قصيدته قال :

واذكر بلاء سليم فى مواطنها ... وفى سليم لأهل الفخر مفتخر

قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا ... دين الرسول وأمر الناس مشتجر

ويعتبر عباس فى مقدمة من أكثر من الشعر فى هذه المناسبة . . ومن شعره قال موجها خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يــا خاتم النبــآء إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإلــه بنى عليك محبـــة فى خلقــه ومحمدا سماكـــا

غـــزو الطائف

بعد هزيمة بنى ثقيف مع شريكهم مالك بن عوف . . انطلقوا إلى بلدتهم الطائف وتحصنوا بحصونها ، واستعدوا للقتال ، وقد اختزنوا من الغذاء ما يكفيهم لمدة عـــام . .

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم ، فأرسل الطفيل بن عمرو فى أربعمائة جندى من بنى قومه ، ليقصدوا إلى صنم دوسى المسمى (ذى الكفين) ويهدمونه ، ثم يتجهون ليلحقوا بجيش المسلمين فى الطائف . . فأنجز (الطفيل) ما قد وكل إليه ، وأسرع بجنده إلى الطائف وقد أحضر معه منجنيقاً ودبابة يعرضهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكان قد وصل بجيشه ونزل بالقرب من حصن الطائف . .

ومـــا لبث العدو المتحصن أن أمطر جيش المسلمين بوابل من النبل ، مما أصاب العديد منهم بجراح ، كما قتل فيهم اثنى عشر جنديا . .

واتخذ المسلمون احتياطاتهم ، واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانا عاليا أقام عليه مأمنين لزوجتيه : أم سلمة وزينب . . وضرب حصاراً بجيشه حول الحصن قرابة عشرين يوما . . وأقام المنجنيق يقذف به عليهم . . وقيل بأن هذا لأول مرة يستعمله المسلمون فى حروبهم . .

فى حديث لعبد الله بن عمر قال : حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم

أهل الطائف فلم ينل منهم شيئا ، فقال : إنا قافلون إن شاء الله . قال أصحابه : نرجع ولم نفتتحه . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغـدوا على القتال ، فغدوا عليه ، فأصابهم جراح ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنـا قافلون غدا ، فأعجبهم ذلك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وكانت مناورات . . ومحاولات . . حتى أراد جنود المسلمين قطع أعناب القوم . . فصاحوا ورجوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن (يدعها لله وللرحم) . فأجاب حباً وتسامحاً . . ونادى مناديه فيهم ، بأن أى عبد خرج من الحصن فهو حر . فخرج منهم بضعة عشر رجلا فيهم أبو بكرة . . ووفى عليه الصلاة والسلام وأعتقهم بحيث أعطى رجلا لكل رجل من المسلمين يتولى الإنفاق عليه . .

وبعد مشاورات بين رسول الله وأصحابه ، اتفق معهم عـلى إنهاء حصار ثقيف ، والعودة إلى مكة . . وإنهم ليهمون بالسير ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون . فرددوا ما قال ، وقال له بعضهم : أدع الله على ثقيف . فقال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم . .

وسار بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جعرانة حيث أحرم واتجه إلى مكة بنية العمرة التى أداها وصحابته . . ومنها انطلق بهم عائدين إلى المدينة . . .

ويروى أن رسول الله صلى لله عليه وسلم أخبر وهو فى الطائف ، بأنه لم يؤذن له في فتحها ، ولهذا طلب من عمر بن الخطاب أن ينادى بالرحيل . . وقد بلغ شهداء المسلمين فى هذه الغزوة اثنى عشر شهيدا ، ثم توفى بعد نحو عامين ونصف عبد الله بن أبى بكر بالمدينة متأثرا بجراحه من سهم أصابه فى الغـزوة بالطائف . .

والجدير بالذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى طريقه إلى الطائف بالمسلمين ، دخل منها بموضع يسمى (بحرة الرغاء) وفيه أقام مسجدا صلى فيه . .

وكان قد عرف بقتل رجـــل من قبيلة هذيل ، فاقتص من قاتله من بنى ليث ، (وهو أول دم أقيد به فى الإسلام) . .

وبعد أن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الموضع إلى آخر يدعـــى (لية) وبه حصن مالك بن عوف ، فأمر بهدمه . . وما أن سلك طريقه حتى نزل للراحة عند سدرة تسمى (الصادرة) وبقربها حائط به أموال لأحد بنى ثقيف ، فأخطره بأن يخرج أو يهدم عليه . . فحين رفض ، هدم عليه . .

وبعد انتهاء الغزوة ــ قال بجير بن زهير بن أبى سلمى قصيدة قال فيها :

جمعت بإغواء هوازن جمعها ‏ ‏ ‏ فتبـــددوا كالطائـــر المتمـــزق

لم يمنعوا منا جداراً واحــــدا ‏ ‏ ‏ إلا جـــدارهم وبطن الخنـــدق

وحين غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة مودعا . . استخلف عليها عتاب بن أسيد أميرا ، ومعاذ بن جبل ، لتعليم الناس القرآن وتثقيفهم . .

وقد قام عتاب يخطب الناس فى مكة : (أيها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم ، فليست بى حاجة إلى أحد) . .

أمير مكة يقتنع بالدرهم كل يوم ويحمد الله عليه . . وقد عرف عليه الصلاة والسلام من يختاره أميرا لبلد بيت الله الحرام ، لاتساوى عنده الدنيا جناح بعوضة . . ويكفى أن يكون أميناً على أمور الناس ، قيما على حياتهم ، راعياً لشئونهم . . وكمثل هـــذا الرجل يكون الحكام الصالحون الناجحون برضى ربهم ، ورضى رعاياهم . . ولا يرون فى الدنيا إلا كونها مطية سهلة للآخرة : (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . .

سليم من الشرك ومن الآثام ، سليم من عـــواطف السوء ونزغات الشيطان سليم كأولئك الذين أنعم الله عليهم بالتبصرة ونور الهدى . . اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ــ وعنهم قال الله تعالى :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحـــــون) . .

وفى الربع الأخير من شهر ذى القعدة ، وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحزب الله معه ، بعد أطول رحلة قام بها خارج دار هجرته ، ليمارس سلطاته كأعظم حاكم ، كون أعظم أمة . . هى المثل الأسمى فى الإنسانية ، وبها ابتدأ تاريخ الحياة الحقيقى لبنى الإنسان . .

فدولة الإسلام هي الدولة المثالية بحق ، فى دستورها تكتمل متطلبات الشعب كأفراد وجماعات . . وفى نظمها تستكمل جميع القواعد والأسس لبنـــاء قوى النهضة فى مجالات الحياة المتنوعة . .

فدولة الإسلام الأولى بلا منازع ، هى الرائدة والمعلمة لأصلح دستور تقوم عليه الأمم وتتقدم به فى كل ميادين الحياة . . (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) كما قال الله تعالى عن خاتم كتبه ورسالاته إلى البشرية . . (القرآن الكريم) . .

وعنه قال نبي الهدى والرحمة عليه الصلاة والسلام : (كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) . .

سرية إلى اليمن

فى أوائل شهر الحج ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن سعد ابن عبادة ومعه أربعمائة فارس إلى حى باليمن ويدعى (صداء) وهو باسم القبيلة ، وذلك ليغرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا حاربهم . .

وما كاد يصل قيس بجنوده إلى وادى قناة خارج المدينة . . حتى جاءه رسول

من رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالبه بالعودة إلى المدينة . . ذلك أن كبيرا من بنى صداء ، هو زياد بن الحارث ، وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأل عن فريق الجند المتجه إلى الجنوب ، فأخبره بحقيقة السرية . . فقال زياد : يارسول الله إنى أنا وافدهم إليك ، فاردد الجيش وأنا أتكفل بإسلام قومى وطاعتهم فطلب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق بالجيش ليردهم ، فأخبره عن تعب راحلته وضعفها . . فبعث صلى الله عليه وسلم برسوله ذلك . . وعادت السرية.

وانطلق زياد إلى قومه ليحضر معه ، وفد من كبارهم كانوا خمسة عشر رجلا ، وأعلنوا إسلامهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عادوا إلى بلادهم ، لينتشر فيها الإسلام ، . . ويعم الهدوء والسلام فى تلك الربوع المسالمة . .

سرية إلى بنى تميم

فى شهر ذى الحجة أيضا ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا لجمع زكاة المال من قبيلتى بنى كعب وبنى تميم . وهما يتجاوران على ماء ، فوصل إليهم بشر بن سفيان ، فاستلم الزكاة من بنى كعب ، بينما رفض بنو تميم أن يدفعوا شيئا ، حتى لقد وصل بهم الأمر إلى أن قالوا : (والله لاندعه يخرج ببعير واحـــــد) . .

فعاد بشر إلى المدينة ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامتناع بنى تميم عن دفع الزكاة . . فبادر عليه الصلاة والسلام بإرسال سرية من خمسين فارسا برئاسة عيينة بن حصن الفزارى ، وقيل إن هذه السرية لم يكن فيها أحد من المهاجرين أو الأنصار . . وما أن وصل أفراد السرية إلى بنى تميم حتى شنوا عليهم هجومهم . واستطاعوا أسر أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا . ثم ساقوهم إلى المدينة ، حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبسهم فى منزل لرملـــة بنت الحـــارث . .

ثم لم يلبث أن وصل وفد من رؤسائه بني تميم ، وفيهم : الزبرقان بن بدر ، وعطارد بن حاجب . وقد طلبوا مقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هو فى منزله يستعد للخروج لكى يصلى بالناس ساعتئذ صلاة الظهر . . وهم مجتمعون فى المسجد ينتظرونه ، وبلال يؤذن فيهم .. وقد استغيب الوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبطأوه وتململوا ، ثم راحوا يدقون عليه منزله . . وينادون بفظاظة : اخرج علينا نفاخرك ونشاعرك . . وزادوا كلاما ، فتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصواتهم ، فخرج إليهم . . فإذا بهم يقولون : نحن أناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك . فرد عليهم قائلا : (ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا) . وتركهم يؤم المسلمين ، وكان بلال قد أقام الصلاة . .

ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من صلاته ، اتخذ من صحن المسجد مجلساً ، ووفد تميم حوله يعيدون ماقالوا . وأضافوا : إن مدحنا لزين وإن شتمنا لشين ، نحن أكرم العرب . فرد عليهم صلى الله عليه وسلم : كذبتم بل مدح الله عز وجل الزين ، وشتمه الشين ، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام . .

وفى مجال المفاخرة كان جدالهم ، حتى قام منهم من راح يفيض فى أوصاف أفعالهم وأنهم وأنهم . . ثم طلبوا أن يأتى أحد بأحسن مما قالوا ووصفوا . . هنالك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس — من صحابته — أن يجيب متكلمهم المتعجرف ، فقام ثابت يقول : (الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، وسع كرسيه علمه ، ولم يكن شئ قط إلا فضله ، ثم أنه كان من فضله أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خيرة خلقه رسولا أكرمه نسباً وأصدقه قلبا وأفضله حسبا . فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوو رحمه ، أكرم الناس أحسابا ،

وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس مقالا ، ثم كان أول الناس إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ورسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله فمن آمن منع دمه وماله ، ومن كفر جاهدناه في الله ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم) . .

وقد رويت أكثر من صيغة لما قاله ثابت رضي الله عنه .

وبعد أن تكلم آخر من بني تميم ، في هذا المجال ، ورد عليهم نفر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقنعوهم ، قام الأقرع بن حابس — عضو الوفد — يقول وهو يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والله إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . . .

وكان حسان بن ثابت هو الذى رد عليهم — فقال :

نصرنا رسول الله والدين عنوة　　على رغم عات من بعيد وحاضر
وأحياؤنا من خير من وطئ الحصا　　وأمواتنا من خير أهل المقابر

وهذه صورة واحدة من الجدل الشعرى في المفاخرة التي طالب بها بنو تميم ، فقد قال الزبرقان في مطلع قصيدته :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا　　منا الملوك وفينا تنصب البيع

وهو بلا شك يشير إلى ملوك حمير باليمن . . فيرد عليه حسان بن ثابت في مطلع قصيدته :

إنا أبينا ولم يأب لنا أحد　　إنا كذلك عند الفخر نرتفع

كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم كعادته . . حتى تقدموا إليه — أعني الوفد — يعلنون إسلامهم ، فقال لهم : لا يضركم ما كان قبل هذا . .

وكان الأقرع بن حابس – واسمه نواس – يلاحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو يقبل ابن بنته الحسن ، فقال : لى من الولد عشرة ما قبلت واحداً منهم ، فيرد عليه صلى الله عليه وسلم : (من لا يرحم لا يرحم) . .

وفي وفد بني تميم نزلت الآية الكريمة ، فقال تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) . .

وقد غفر الله لبني تميم بعد إسلامهم ، فالإسلام يجب ما قبله . . وبقى وفدهم بالمدينة يتعلمون شرائع الدين الحنيف ويحفظون القرآن . . وقد أطلق لهم أسراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خير دعاة للاسلام فى بلادهم . .

إسلام الشاعر كعب بن زهير

لا يفوتنا قبل أن نختم فصل (العام الثامن للهجرة) أن نشير إلى أنه بعد فتح مكة كان قد أسلم بجير بن زهير بن أبى سلمى ، وكان أخوه (كعب) ممن تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجو فى شعره . .

وبعد غزوة الطائف ، كتب بجير إلى كعب ، يخبره عن مقتل بعض الناس فى مكة ممن كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول له : (فإن كان لك فى نفسك حاجة ، فطر إلى رسول الله ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً) . . وذكر بجير أخاه بأبياته التى قال له كعب فيها :

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالـــــة ... فهل لك فيما قلت ويلك هل لكا

سقاك بها المأمون كأسا رويـــة ... فأنهلك المأمـــون منها وعلكا

وشعر كعب بضيق لم يجد منه مخرجا إلا أن يتوجه إلى المدينة ، ويسعى إلى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى ذهنه جديد من الشعر يصور مرحلـــة زاهراة مقبلة من حياته . .

فلما حضر بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومد يده محييا قال : يارسول الله إن كعب بن زهير قد جاء مسلما تائبا ، فهل أنت قابل منه إن جئتك به ؟ فرد عليه صلى الله عليه وسلم أن نعم . . قال : أنا يارسول الله كعب بن زهير . وتحفز أنصارى يقول : يارسول الله دعنى أضرب عنقه . فرد عليه صلى الله عليه وسلم : دعه فإنه قد جاء تائبا . فإذا بكعب ينشد أمامه قصيدته اللامية الشهيرة التى قال مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول | متيم إثرها لم يفد مكبول

إلى أن قال :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى | والعفو عند رسول الله مأمول

* * *

سرية إلى بنى المصطلق

(بنو المصطلق) بطن من خزاعة . . وقد أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ذى الحجة بالوليد بن عقبة بن أبى معيط . . وذلك لاستلام الزكاة السنوية منهم ، ولما علموا بمسيره إليهم ، خرجوا بالزكاة يسوقونها أمامهم ، وكانوا عشرين رجلا وكنوع من الاحتفال به خرجوا يحملون أسلحتهم معهم لا ستقبال رسول رسول الله عليه الصلاة والسلام . .

ولما أن كان بينهم وبين الوليد عداء منذ عهد الجاهلية ظن هو بأنهم إنما خرجوا مرتدين ، أو أنهم يريدون قتله . . فما كان منه إلا أن تراجع وانطلق على خيله مولياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره بما رأى . .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالد بن الوليد مع بعض الجند ، وأوصاهم بتحسس أخبار بنى المصطلق دون أن يعرفوا عنهم شيئا . . وما أن اقترب

خالد من حيهم ، حتى أرسل بالليل من تلصص عليهم . . فإذا هم يؤذنون للصلاة ويؤدونها كغيرهم . . فذهب إليهم خالد بجنده ليلاقى الترحيب منهم . . فيعود ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالواقع المطمئن ، وما كان منهم فى استقبال مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فيرسل مرة أخرى بمن يتسلم منهـم الزكاة المفروضـة . .



العام التاسع للهجرة

• • • سرايا .. آخر الغزوات •

** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ – يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

٢ – نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها كما سمع ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . .

ثلاث سرايا للدعوة

الأولى في شهر صفر ، والثانية والثالثة في شهر ربيع الأول . .

فكان أول ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض جنوده برئاسة عبد الله بن عوسجة ، إلى بني عمرو بن حارثة وذلك لدعوتهم إلى الإسلام بخطاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن بني عمرو استهانوا بالخطاب فمزقوه ، ورفضوا دعوة الحق ، . . فعاد ابن عوسجة برفاقه ، ينبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فدعا عليهم : مالهم ذهب الله بعقولهم . .

فروى عنهم أنهم أصيبوا باهتزاز في أجسامهم ، وعي في ألسنتهم . .

أما السرية الأخرى ، فقد بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم — في عشرين جنديا — بقيادة قطبة بن عامر الأنصاري ، إلى بني خثعم بالقرب من مكة . يعرضون عليهم الإسلام ، فلما رفضوا الدعوة ، قاتلوهم بضراوة ، فقتل بعضهم ، بينما كانت جراح الطرفين كثيرة ، إلا أن السرية استطاعت أن تستولى على ماشيتهم وبعض السبايا وتعود بها إلى المدينة . .

والسرية الثالثة ، بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، برئاسة الضحاك ابن سفيان الكلابي ، ليقصدوا إلى بني كلاب ، يعرضون عليهم الإسلام أو يقاتلونهم ، فلما لم يستجيبوا إلى داعي الله ، شن المسلمون عليهم غارة شردت بهم ، وأصيب منهم من أصيب ، واستولت السرية على أموالهم ، وعادوا بها إلى المدينة . .

سرايا إلى بعض الأحباش

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قوماً من الحبشة ، يجوبون على مراكب لهم ، على مرأى من أهالي جدة بساحل البحر الأحمر . . فبعث إليهم ثلاثمائة جندي بقيادة علقمة بن مجزز . . فانطلقوا خلفهم على مراكبهم يطاردونهم ، حتى اختفوا عنهم . . وعادوا إلى الميناء . وسلكوا طريق العودة ، فبينما هم في موضع

للراحة ، أشعلوا ناراً يستدفئون عليها ، فطلب منهم (علقمة) أن يقفوا بداخل النار ، فعجبوا لطلبه ، وتوقف بعضهم أمام النار وكأنما هم يهمون بإلقاء أنفسهم فيها . . فضحك علقمة منهم ، وأعلمهم بأنه كان يمازحهم . . ولما عادوا إلى المدينة ، أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . .

وفى هذا درس مستفاد .. وفي كل أقواله صلى الله عليه وسلم حكم ودروس.

سرايا لهدم صنم الغلس

(الغلس) صنم لبنى طيء . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرية قوامها مائة وخمسين جنديا برئاسة على بن أبى طالب ، ليهدموا الصنم ، ويقاتلوا من حوله . . فكان لهم ما أرادوا ، إذ طلعوا عليهم مع الفجر يهدمون (الغلس) ويحرقونه ، ثم يحاربون من قاومهم ، ويستولون على ماشيتهم وما حصلوا عليه من من السبايا . . وفيهم (سفانة) ابنة حاتم الطائى (الشهير بالكرم) ، ولما قدموا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقفت أمامه تستعطفه قائلة : أرأيت أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب ، فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام . .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام رد عليها : ياجارية هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها . .

فأسلمت . . وأسلم فيما بعد أخوها (عدى) الذى سيأتى خبر وفادته مع بعض من قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وكانت هذه السرية فى أوائل شهر ربيع الثانى . .

ثم ذكر بعض المؤرخين عن إرسال سرية بقيادة عكاشة بن محصن الأسدى إلى قبيلتين من قضاعة فى الحباب بأرض عذرة . . وذلك فى نفس شهر ربيع الثانى . . لتجديد الدعوة لهم وتبصيرهم بهدى القرآن المجيد . .

غزوة تبوك

« آخر الغزوات »

عن زيد بن أرقم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا تسع عشرة غزوة ، وحج بعد ما هاجر حجة لم يحج غيرها : حجة الوداع . . (صحيح مسلم)

كانت للروم قاعدة فى تبوك يجب تصفيتها ، ومعهم عدد من القبائل . . وذلك ما كان فى ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئــلا يترك فى شمال الجزيرة ما يهدد أمن دولته . . بل ويقف حجر عثرة أمام الدعوة الإسلامية التى تمتد مع مرور الأيام إلى أوسع مدى . . فدعوة التوحيد يجب أن تسود فى كل مكان . . لأنها دعوة الحياة الكريمة ، وعزة النفوس الشهمة . .

وفى شهر رجب ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قومــه المؤمنين (جند الله) إلى المبادرة للخروج إلى تبوك لقتال الروم . . وطالب ذوى اليسار بالإنفاق على تجهيز الجيش تجهيزا متكاملا . . فقد كان الوقت بداية الخريف ، فى أعقاب صيف لاحب لاهب .. حتى لقد سميت الغزوة هذه (غزوة العسرة) ، فقد كان الجفاف شاملا ، وهمت الثمار بالظهور . . ولكنه اختبار لحسن النوايا وخبيئات الصـــدور . .

ففى جانب الروح المؤمنة الرحيمة ، كان البذل والعطاء سخيا . . فقد أجزل فى الهبة : عثمان بن عفان فى تجهيز الجيش بأكثر من عشرة آلاف دينار ، حتى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له : (اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض) . .

وبذل عبد الرحمن بن عوف الكثير ، وتسارع المخلصون بالهبات للجيش ، حتى ان بعض النساء كن يدفعن حليهن . . فهذا هو السباق إلى حقيقة النور . .

ولقد كان فى الجانب الآخر ، المتقاعسون والمنافقون والمعتذرون . . فإذا الله

جل وعلا يكشف أدواءهم ، فقال تعالى : (وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بمـا كانوا يكسبـون) . .

ثم قال الله تعالى عنهم : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) . .

ثم قال تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) . .

وقال تعالى : (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخـرج ما تحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) . .

تلك هى أحوال الذين تخلفوا عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد . . وتلك دعوتهم فى تثبيط همم المسلمين عن الخروج معه فى سبيل الله . .

وكان دور المنافقين يهم أن يستشرى ، وهم قد وجدوا وكرا يجتمعون فيه بدار سويلم اليهودى فى جاسوم . . فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أرسل بطلحة بن عبيد الله مع بعض من صحابته ليحرق البيت على من فيه .

ويستمر إعداد الجيش حتى بلغ أربعين ألفاً بعتادهم ، قيل بأن ثلثه كان من تجهيزات عثمان بن عفان . . وكانوا يرابطون على ثنية الوداع المعروفة . .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عـلى المدينة : محمد بن مسلمة الأنصارى ، كما استخلف على أهل بيته : على بن أبى طالب ، فخاض المنافقون فى أمر تخلفه عن السير إلى المعركة . .

واستاء على مما قالوه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفلا ترضى ياعلى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى) . . [1]

---

(١) أمثال هذه العبارة ، استغلها أناس تشيعوا لوضع الإمامة ، فأساءوا للدين ، وقد سموا فيما بعد بالشيعة ، وخرجت منهم فئة الرافضة ، ورد عليهما الكثير من العلماء وفندوا مزاعمهم .

وخرج الجيش المسلم بحجمه الهائل . . وإنما هو يعبر عن حجم المجموعات الإسلامية التى تنمو وتنمو . . ففى كل منطقة من منـــاطق الحجاز قبـــائل مسلمة تعد بالمئات . . حتى ليكونون أكبر قوة ضاربة فى الجزيرة العربية كلها . .

فليس بدعاً أن يواجـــه المسلمون تكتل بعض القبائل فى الشمال مع عنصر الروم المتأقلم هناك . . حتى يفتتوا تجمعاتهم ، ويبددوا شملهم . .

سار الجيش المنظم ، كل كتيبة لها رايتها . . حمل اللواء أبو بكر الصديق ، والراية : الزبير بن العوام ، تلتهما كتائب الأنصـــار ، فحمل راية الأوس : أسيد بن حضير ، والخزرج : الحباب بن المنذر . . وارتفعت ألوية أخرى بأسماء قبائل العرب السائرين إلى جهاد الكفر ، وإلى دعوة الإسلام ، وإلى نجدة الحق .

وفى الطريق ، كانت تحدث أمور بين الناس ، فيكشف عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكبت المنافق ، ويقضى حاجة للمسلمين ، كما حدث عندما مروا بقرية الحجر[1] لبنى سليم ، كمستراح ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يشربوا من مائها ولا يتوضأوا منه ، وأن لا يخرج أحد منهم إلا وبرفقتـــه صاحب لـــه . .

فلما خرج أحدهم لقضاء حاجته ، خنق حيث هو ، وخرج آخر خلف بعيره ، فإذا الريح تنقله إلى ما بين جبلى طئ . . وإذ علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال لصحابته : (ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه) . . ثم دعا الله لهم ليسقيهم ، فتجمعت عليهم سحابة وأمطرتهم ماء رويا فياضا . .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه مدينة تبوك ، لم يكن بها ما يشير إلى أى استعداد لقيام الروم أو غيرهم بما يمكن أن يكون تهديداً للمسلمين . .

---

(١) هى التى دمرها الله تعالى على أهلها من قوم ثمود الذين بغوا بوثنيتهم واستطالوا على نبيهم حتى هلكـــوا .

وانتظر بها بضعة أيام ، حتى وصل له الحاكم النصرانى لأيلة بالشام ، ومعه أناس من أذرح وجرباء وأهل ميناء . . يطالبون بالصلح ، وأن يبقوا على دينهم ، ثم يدفعوا الجزية المعلومة كغيرهم . . ووافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه المسالمة ، وأمر أن يكتب للحاكم كتابا بذلك ، قال فيه . :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يجوز ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر) . .

وكتب صلى الله عليه وسلم كتابا آخر إلى مجموعة القبائل الأخرى ، وأجرى الصلح مع أهل ميناء على ربع ثمارها . . أما الآخرون فإنهم يدفعون الجزية كل عام

وبعد تشاور بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين صحابته حول التقدم لغزو الروم فى مناطق الشام الواسعة . . استقر الرأى على العودة إلى المدينة ، ما دام أنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر ذلك ..

ولعل من أطرف ما ورد عن فدائية بعض المسلمين ، نستذكر موقفين : أولهما بالمدينة . أولئك الضعاف السبعة الذين جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن ييسر لهم الرحيل مع المجاهدين إلى الغزوة ، ونزلت فيهم الآية القرآنية ، فقال تعالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) . .

ولكن اثنين منهم ، وفق لهما الصحابى ابن يامين بن عمير ، فأعطاهما راحلة وزادا فخرجا مع الجيش . .

والموقف الثانى : للصحابى أبى خيثمة ، وقد جاء إلى بيته حيث وجد زوجتيه فى زينتهما . . وكان الوقت شديد الحرارة ، ورطوبة البيت تغرى بالراحة

. . غير أن أبا خيثمة يتصرف عن طيب نفس وهو يقول : ويكون رسول الله في الحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وامرأة حسناء ، ماهذا بالنصف ، والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيئا لي زادا) . .

وهكذا انطلق بسلاحة على راحلته ليلحق بالركب المؤمن السالك في سبيل الله ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في رحلة طويلة وأيام لاهبة ، قهروها بقوة عقيدتهم ، ومن أجل الحياة الخالدة المنتظرة . .

وفي طريق العودة إلى المدينة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بعض صحابته لهدم (مسجد الضرار) . . وكان قد أقامه بعض المنافقين لاستدراج الناس إليهم ، وأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أقاموه ، للذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية) . . فعرف نواياهم ، ووعدهم كما طلبوا منه الصلاة فيه . . فكان أمر إزالته كسرلنفسيات أولئك المنافقين المتمردين . .

أما الذين كانوا قد تخلفوا عن الخروج إلى الغزوة ، والذين تراجعوا بعد الخروج . . فإن الله تعالى أنزل عفوه لتوبتهم . . فقال تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) . .

إنها تعاليم ربهم ، ليكونوا في مستوى مسئولياتهم الدينية والإنسانية ، دون تعلل بشيء أو تخوف من أمر .. فالإيمان قوة ، والإقدام والتضحية والعزيمة من هذه القوة . . والحق أحق أن يتبع في كل ميدان ، والله تعالى ناصر لمن ينتصر له . .

صلح مع بني كندة

(أكيدر دومة) : هو حاكم بني كندة ، وكان نصرانيا ، ويتهيأ في ملبسه بشكل ملفت للنظر . . وقد أرسل له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالد بن الوليد ، ومعه بعض من صحابته . . وقال له : (إنك ستجده يصيد البقر) . .

وذهب خالد بمن معه يرتقبونه ، وهو خارج من حصنه على خيله مع بعض من أهله . . ثم يشدون خلفهم ، فأمسكوا بأكيدر ، وكان أخوه قد قاوم فقتل . . وخلع خالد قباء الديباج المذهب الذى كان يرتديه أكيدر ، وبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم لحق هو وأسيره ورفاقه بالفارس الذى سبقهم . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرض القباء على المسلمين حوله ، وهم يعجبون من منظره وملمسه ، فقال لهم : أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا . .

أجل يارسول الله ، عليك صلاة الله وسلامه . . وإذ وصل خالد بن الوليد بالأسير أكيدر بن عبد الملك استسلم هذا وأبدى الطاعة . . فأطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سراحه ، وعقد معه صلحاً بأن يدفع له الجزية كل عام كسائر المصالحين الذين يلتمسون الحياة المستقرة . .

ولم تفت المناسبة رجلا من طيْ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بجير بن بجرة ، أن قال شعرا عن أكيدر وصيده البقر ، فى هذين البيتين :

تبارك سائق البقرات إنــــى رأيت الله يهدى كل هـــاد
فمن يك حائداً عن ذى تبـوك فإنا قد أمرنـا بالجهــاد

وقد حدث هذا قبل أن يعود رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك فى أواخر شهر رجب ، وكان المرافقون لخالد نحواً من أربعمائة وعشرين فارساً .

وذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعد من تبوك إلا فى أوائل شهر رمضان . . بعد أن كسب الهيبة والثقة للمسلمين فى الشمال ، وتقلصت أعمال الشغب من الأعراب . . وانتشرت تعاليم الإسلام فى عدة أماكن . .

وكان استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة حافلا . . إذ خرج الصبيان ينشدون فرحة بقدومه ، والناس يتجمهرون لتحيته وصحابته . .

وفد بني ثعلبة

ما أن وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، حتى جاء اليه وفد بنى ثعلبة فى أربعة رجال يعلنون إسلامهم ، ثم يقولون : يارسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالإسلام ، وقد قيل لنا إن رسول الله يقول لا إسلام لمن لا هجرة له . فأجابهم : حيثما كنتم واتقين واتقيتم الله فلا يضركم . .

وفد بني ثقيف

فى خلال شهر رمضان ، وصل من الطائف وفد بنى ثقيف ، برئاسة كنانة ابن عبد ياليل ، وفيهم عثمان بن أبى العاص ، وهو أصغرهم سنا . . وذلك بعد أن سبق لكبير من بنى ثقيف : عروة بن مسعود ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وصوله المدينة ، وأعلن إسلامه ، وطلب أن يعود إلى قومه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنهم قاتلوك) . . فما كان منه إلا أن رد قائلا : (إنى أحب إليهم من أبكارهم) . (يعنى أولادهم) . . وما كان ليظن بأنهم سيغدرون به ، وهو يعرض عليهم الإسلام ويزينه لهم . . فقد قتلوه . . ثم عادوا بعد فترة يتباحثون ، ويقرر كبارهم أن يوفدوا بستة منهم ، من عدة قبائل ، حتى لا يتكرر الغدر ، كما حدث لعروة أحد كبار القبائل . .

وعندما استقبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لهم جانبا من المسجد ، حيث كان يسعى بينه وبينهم فى المفاوضات : خالد بن سعيد بن العاص . . حتى كتب وثيقة إسلامهم . . وكانوا قد جادلوا كثيرا ، ومن ذلك أنهم طلبوا أن يدع لهم صنم اللات لمدة ثلاث سنوات أو أقل ، حتى لا يروع أهلوهم وسفهاؤهم بتركهم لها — كما زعموا — ولكن هذا باطل يجب إزالته — كما سنرى فى سرية لذلك . .

ومن جدالهم : مطالبتهم بإعفائهم من أداء الصلاة ، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم . . فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه . .

فامتثلوا وأطاعوا ، وليحملوا الإسلام إلى بلادهم . . فأمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الشاب عثمان بن أبى العاص ، الذى قال عنه أبو بكر : (يارسول الله إنى قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلـم القرآن .) . .

فكان هذا الظن الحسن فى عثمان ، قـد أسفر عن شخصية علمية كبيرة بعـد لأى . .

سرية لهدم اللات

فى أعقاب الوفد المسافر إلى الطائف . . أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من المغيرة بن شعبة وأبى سفيان بن حرب ، حيث قاما بهدم صنم بنى ثقيف ومن جاورهم والذى يدعى (اللات) . . وإنهاء معقل من معاقل الوثنية العتيقة .

وفد همدان

قبائل همدان باليمن ، ويقال بأن مواطنهم بين صعدة وصنعاء . . كان قد بلغهم الإسلام من قبل مع القادمين ، وقـد بعثوا بوفدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته فى شهر رمضان . . وكان ضمن الوفد : مالك بن نمط ، ومالك بن أيفع ، وعميرة بن مالك السلمانى ، وذو المعشار أبـو ثور ، وكانوا يرتدون البرود اليمنية المزركشة ويركبون جياد الإبل . . وحالما التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجز مالك ابن نمط :

همـدان خير سوقة وأقيـال ليس لها فى العالمين أمثـال
محلها الهضب ومنها الأبطـال لها إطابات بها وآكـال

وارتجز بعده أحد رفاقه :

إليك جاوزن سواد الريـــف في هبوات الصيف والخريف

مخطمـات بحبـال الليـف

ثم تكلم مالك بن النمط فقال بأن وفده من خيار قوم همدان ، جاءوا لا يخافون فى الله لومة لائم ، وهم متصلون بالإسلام ، وملبون لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن فارقوا الأوثان وغيرها ، وأنهم لن ينقضوا العهد . .

ولهذا ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب لهم ما أملاه بالنص :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من رسول الله محمد لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل (يعنى قبائلهم) مع وافدها ذى المعشار مالك ابن نمط ومن أسلم من قومه ، على أن لهم فراعها ووهاطها ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون علافها ويرعون عافيها ، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله ، وشاهدهم المهاجرون والأنصار . .

وقبل مسير الوفد ، قال مالك بن نمط شعرا ، فيه هذان البيتان :

بأن رسول الله فينـــا مصدق رسول أتى من عند ذى العرش مهتدى

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه وأمضـى بحـد المشرفى المهنـد

رسول ملوك حمير

فى اليمن قبائل عديدة ومناطق شاسعة ، لهم عدد من الأمراء يسمونهم ملوكا دون الملك الأكبر ويسمون الأقيال ، واحدها : قيل . . وقد بعثوا برسولهم يحمل كتاب إسلامهم ــ بعد عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك . .

وقد جاء الرسول من كل من : الحارث بن عبد كـلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان بن ــ قيـل ذى رعـين ومعافر وهمـدان (قبائلهم) ، وكذلك (زرعة ذو يزن) أرسل مع مالك بن مرة الرهاوى ــ باتفاقهم وإسلامهم .

وقد كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا وافيا يشرح لهم فيه نسب الزكاة على المسلمين ، وواجب الجزية على غيرهم . . وقد ورد فى الثلث الأخير من الكتاب هذا النص : (أما بعد ، فإن رسول الله محمدا النبى أرسل زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ، ومالك بن مرة ، وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة ، والجزية من مخالفيكم ، وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ ابن جبل ، فلا ينقلبن إلا راضيا ، أما بعد ، فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير ، وقتلت المشركين ، فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا ، فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم ، وأن الصدقة لاتحل لمحمد ولا لأهل بيته ،إنماهى الزكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وأن مالكاً قد بلـغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم ، وآمرك بهم خيرا ، فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله) . .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيس وفده المسافر إلى اليمن قائلا : يسر ولا تعسر ، وبشر ولا تنفر ، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب ، يسألونك ما مفتاح الجنة ، فقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له . .

إسلام ضمام بن ثعلبة

فى أواخر شهر رمضان . . جاء إلى المدينة ضمام بن ثعلبة . . وقد روى ابن عباس – رضى الله عنهما – عن مقدمه فقال : ما سمعنا بوافد وفد كان أفضل من ضمام بن ثعلبة ، بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه متكئاً جاءه رجل من البادية على جمل ، فأناخه فى المسجد ثم عقله ، وقال أيكم ابن عبد المطلب ، قالوا : هذا المتكئ ، فقال : إنى سائلك فمشدد عليك فلا تجد على . فقال : سل

عما بدالك ، فقال : يامحمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : صدق ، فقال : أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها؟ قال : اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن نأخذ من أموال أغنيائنا فنرده على فقرائنا ؟ قال : اللهم نعـــم ، قال : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هـــذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ قال : اللهم نعم ، قال : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : اللهم نعم ، قال : آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة . .

وذكر أنه ما أن عاد إلى قومه بنى سعد بن بكر ، حتى سب اللات والعزى ، فخوفه قومه مما قد يصيبه من أذى . . فأفهمهم بأنهما لاينفعان ولا يضران فـــى شئ ، وأن الله قد بعث رسولا أنزل عليه كتاباً استنقذهم به من كل سوء وأعلن شهادة الإسلام أمامهم ، وراح يدعوهم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعاليم ، فكانوا يسلمون تباعا . .

وفـــد بنى عـــامر

ثلاثة من رؤساء بنى عامر : أربد بن قيس ، وجبار بن سلمى ، وعامر بن الطفيل — وهذا سيدهم وداعية الضلال فيهم . . فقد كان قومه يدعونه إلى الإسلام معهم ، وهو يقول بأنه يتبع (عقب هذا الفتى من قريش) . . أى يسعى لضره وللغـــدر بـــه . .

وقد اتفق مع أربد بن قيس (وهو أخو الشاعر لبيد) على أن يضرب بالسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينما هو (أي ابن الطفيل) يشاغله بالحديث . .

ووفد الثلاثة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان ابن الطفيل يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد خالنى (أى اجعلنى خليلك) ، فيرد عليه: لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له . . فصار يكررها عليه (ابن الطفيل)

وهو ينتظر أن ينفذ (أربد) ما اتفق عليه معه ، وهذا تيبست يده على السيف فما يستطيع لها حراكا . .

ثم إن ابن الطفيل ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخيرك بين ثلاث خصال : (يكون لك أهل السهل ولى أهل الوبر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقراء) . .

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصاب بداء يقتله . .

وعندما خرج ورفيقاه ، سأل (أربد) عما أصابه ولم ينفذ ما أراده منه ، فإذا به يجيبه : والله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك فأضر بك بالسيف . .

وبينما الثلاثة فى الطريق على فرسانهم ، فإذا بابن الطفيل يحس بالألم الشديد فى رقبته ، ثم إذا به يتبين أنه الطاعون كسبب أراده الله ليقضى عليه ، وقد أساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحماقاته ، وذلك جزاء الكافرين . ولقد لحق أربد بن قيس بصاحبه داعية السوء بعد أيام قصار من وصوله إلى قومه . . وكانوا قد سألوه عما وجد ورأى ، فجاوبهم بجهالة وتمرد : لقد دعانا إلى شئ لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى يقتل . .

ولكن الله صعقه بصاعقة ولم تمض دقائق على كلامه الشيطانى ذاك . .

أما ثالث الرفقاء : جبار بن سلمى ، فقد أسلم عندما أسلم قومه ، وقام بدوره كأحد المسلمين الأوفياء . .

القدوة الحسنة للمسلمين

رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لنا فى كل شئ . . ومنذ بعث حتى آخر يوم فى حياته ، كان كل يوم يعلم الناس جديدا . . ويبصرهم بما يصلح أمور دينهم ودنياهم . . بل ويطور فى مفاهيمهم للحياة كأمة مثالية . . وفى كل

مناسبة لاتفوته عليه الصلاة والسلام أن يعمل عملا يفيد منه المسلمون . . وأن يتألف الأجناس والوفود الذين يأتون إليه أو يراسلهم . . وأن يعفو ويتسامح ويعظ فى رفق ، وهو قد قال صلى الله عليه وسلم : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) . .

وعندما مات عبد الله بن أبى بن أبى سلول فى شهر ذى القعدة . . وهو من هو فى مواقف النفاق المتكررة . . تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن للرجل فى نفوس الخزرج مكانة ، وأن ابنه عبد الله الشاب المؤمن له شعوره الأبوى . . فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غضاضة من أن يقف بالمسلمين يصلى على عبد الله بن أبى ، بل وحتى أن يقف على قبره يدعو له بين عشيرته . تطييبا للخواطر حوله . . ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن نهى عن الصلاة على المنافقين ، بعد أن نزل عليه قوله تعالى : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) . .

ثم . . فى أواخر شهر ذى القعدة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه ورفيق هجرته أبا بكر الصديق ، أن يخرج بالمسلمين لأداء فريضة الحج . . فصحبه فى أداء هذه الشعيرة ثلاثمائة صحابى . .

وبعد رحيل أبى بكر والمسلمين إلى مكة ، نزلت بواقى سورة براءة من أولها . . فقال تعالى : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين) . . إلى أن قال تعالى : (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) . .

لقد تحدد الآن ، فلا بقاء للمشركين عند بيت الله الحرام ، ولا عهود عامة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلا للبعض ، وهم خصائص العرب ولآجال معلومة . . ثم جاء الأمر بقتال المشركين ، فقال تعالى : (قاتلوا الذين لا

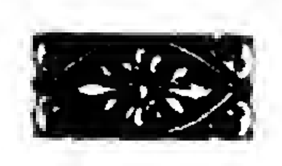
يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، يلحق بأبى بكر على ناقة الرسول (العضباء) ، وليبلغ الناس فى تجمعهم بمنى رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وأتم الحج بالناس أبو بكر ، وفى يوم النحر قام على بن أبى طالب يخطب الناس ويقول : (أيها الناس ، إنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له إلى مدتــه) . .

وقد أمهل الناس مدة أربعة أشهر ، ريثما يغادرون إلى بلدانهم . .

وفى سورة براءة استكمال لكل تلك الأمور ، ودروس للمؤمنين يتعظون بها . . من أوامر الله ونواهيه ، وعلى لسان رسوله الهادى صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا . . القدوة الحسنة لجميع المسلمين ما بقيت فى الكون حياة . .



العام العاشر للهجرة

وفود .. وسرايا .. حجة الوداع

وهو عليه الصلاة والسلام سيد العلماء والحكماء . . سيد الأنبياء والمرسلين .
وبعد أن كان يغزو للدعوة إلى دين الله تعالى الخاتم ، أصبح الناس إليه يقبلون . .
وترسل الدول والقبائل بوفودها استجابة للإسلام ، لينقذها من أوضار الحياة الدنيا ، ولينير لها الطريق المستقيم . . فكانت آخر تعاليمه سبحانه وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) . .
صدق الله العظيم . .

* * *

وفد من البحرين

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — قبل فتح مكة — قد أرسل الصحابى العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى بالبحرين ، يدعوه إلى الإسلام ، فشرح الله صدره وآمن ، وبقى العلاء عنده أميراً على البحرين . . وفى العام هذا (العاشر) جاء وفد البحرين برئاسة الجارود بن عمرو بن جنش — أخو عبد القيس — وهو نصرانى بعد . . فلما التقى برسول الله صلى الله عليه وسلم شعر بالطمأنينة وابتهاج النفس . . فعرض عليه الإسلام ورغبه فيه . . وبيراءة قال : يامحمد إنى كنت على دين ، وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى : فأجابه صلى الله عليه وسلم : نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه . .

فأسلم الجارود ومرافقوه وحسن إسلامهم . . وكان أن أصبح له تأثير فى قومه فأسلم كثيرون . . ثم تعرض الناس إلى ردة عن دين الإسلام ، فروع الجارود ، ثم راح يدعو قومه المرتدين إلى العودة إلى إسلامهم ، فكان يقول فيهم : أيها الناس إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأكفر من لم يشهد . .

وقد روى أن الوفد عندما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الجارود عدة أبيات من الشعر يصور مقدمهم ، ومنها :

يانبى الهدى أتاك رجال قطعت فدفداً وآلا فآلا

تتقى وقع يوم عبوس أوجل القلب ذكره ثم هالا

وفد طيئ ، وعدى

وصل وفد طيىء فى شوق وعلى رأسهم زيد الخيل . . وحالما عرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الإسلام ، بادروا مسلمين راغبين ، وقد لمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زيد شهامة ونبلا ، فدعاه زيد الخير . . وكتب

له يقطعه أراضى بشرق جبل سلمى بنجد ، حيث يقطن . غير أنه ما كاد ورفاقه يصلون إلى نجد حتى تصيبه حمى تكون سبباً فى وفاته . . عليه الرحمة والرضوان .

ومن طئ كذلك وفد عدى بن حاتم الطائى إلى المدينة ، ويروى هو بنفسه أمر قدومه فيقول : (فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة ، فدخلت عليه ، وهو بمسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت عدى بن حاتم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها ، فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك ، ثم مضى بى ، حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً ، فقذفها إلى ، فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض ، قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه ياعدى بن حاتم ألم تك ركوسيا ؟ قلت : بلى ، قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك ، قلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبى مرسل ، يعلم ما يجهل ، ثم قال : لعلك ياعدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف ، ولعلك إنما تمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم) . . قال عدى : فأسلمت

وقد ذكر بأنه رأى فيما بعد مارواه صلى الله عليه وسلم وقال : وأيم الله لتكونن الثالثة ، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه . .

وفد كندة وفروة

من القبائل الشهيرة فى جنوب اليمن (كندة) التى يرجع نسبها إلى ثور بن عفير . . وقد جاء منهم وفد فى ثمانين رجلا ، منهم الأشعث بن قيس ، وقد

تجملوا ولبسوا جبب الحبرة المكففة بالحرير . . ولما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسجد وحيوه ، قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى ، فقال لهم : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟ . . فإذا بهم يشقونه ويرمون به عن أجسامهم .

ومما روى عن الأشعث بن قيس ، أنه ارتد عن الإسلام ، وجاء ضمن الأسرى فى خلافة أبى بكر ، فأراد قتله ، فصاح يقول : استبقنى لحروبك وزوجنى أختك . . وهذا جدد إسلامه ، وزوجه أبو بكر بأخته (أم فروة) . . وعاش إلى ما بعد موقعة صفين . .

أما (فروة بن مسيك المرادى) . . فقد ترك وطنه فى كندة ، مباعداً عن ملوكها . . وجاء قاصدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله : هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟ فأجاب : يارسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم ، لايسوءه ذلك . . فرد عليه : أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خسيرا . .

وقصة يوم الردم ، أن قبيلتين من كندة هما مراد وهمدان ، وقعت بينهما مشادة قبل أن يسلموا ، واقتتلوا ، وكانت الإصابات العنيفة فى قبيلة مراد . . وفى ذلك قال (فروة) قصيدة منها :

فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقى الكرام إذا بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومى كما أفنى القرون الأولينا

ثم قال فروة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نسائها
قربت راحلتى تؤم محمدا أرجو فواضلها وحسن ثنائها

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقنعه بالعودة إلى بلده وسيادته فيها ، إذ استعمله على قبائل مراد وزبيد ومذحج ، وأرسل برفقته خالد بن سعيد بن العاص لشئون الزكاة . .

ومن كندة أيضا ، جاء عمرو بن معد يكرب ومعه رفقة من بنى زبيد ، يعلنون إسلامهم . . غير أن عمرو ارتد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخسر حياته ، بينما ابن أخيه قيس المرادى الذى رفض أن يقدم معه ، أسلم وكان من المهتديـــن . .

سـريـة خالد إلى اليمن

فى شهر جمادى الأولى ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى قبيلة بنى عبد المدان باليمن . . ومعه جيش من فرسان المسلمين ، ليدعوا القوم هناك إلى الإسلام ويرغبوهم ، فإن لم يستجيبوا يقاتلوهم . .

وعبد المدان – اسم صنم لهم بنجران – حيث يقيمون ، وهو اسم جدهم (الأعلى) الذى يدعى عمرو بن يزيد بن قطن . . كما يعود اسم بلدهم نجران إلى اسم نجران بن زيد بن سبـــأ . .

ولما وصل خالد وجنوده ، راحوا يجوبون البلاد وينادون : (أيها الناس اسلموا تسلموا) . . فاستجاب معظمهم للإسلام واطمأنوا به . . فبقى بينهـــم وصحبه ، يعلمونهم أمور دينهم ويحفظونهم القرآن . . وقد كتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان سروره كبيرا ، فبعث إلى خالد أن يعود ويستقدم وفـــداً منهـــم . .

وحضر وفدهم برئاسة كبير منهم ، فبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى قيس بن الحصين أميراً عليهم . ، بعد أن أوصاه بهم خيرا . .

وفـد يمـنى من الأزد

وفد من الأزد برئاسة صرد بن عبد الله الأزدى ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلنوا إسلامهم برحابة صدر ، فأعجب بهم ، وعين (صرد) أميراً على قومه ، وطلب منه ورفاقه ، أن يدعوهم إلى الإسلام ، وإلا فيقاتلونهم .

ولما وصل الوفد إلى جرش ، من مناطق اليمن ، وقيل بأنها مدينة معلقة ، وفيها تتجمع عدة قبائل ، منها (خثعم) التى انضمت إليهم عندما سمعوا بمقدم المسلمين . . فتحصنوا فيها ، وحاصرهم (صرد) ورفاقه مدة طويلة ، ثم تركهم ، وبينما هم عند (جبل شكر) ، إذا بهم يرون القادمين عليهم من الخلف يحسبونهم قد هزموا . . فسيتدير عليهم صردٍ ومن معه ، يقاتلونهم بشجاعة ، حتى استسلموا . . وطلب منهم صرد أن يبعثوا بوفد منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم . . ففعلوا راضين . .

خبر أربعة وفود

من قبائل كندة قبيلة تدعى (تجيب) . . وقد وصل وفدها فى ثلاثة عشر رجلا ، وجاءوا معهم بصدقات أموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فرضها الإسلام — ففرح بهم ، وهم يقولون له : (يارسول الله إنا سقنا إليك حق أموالنا) . . وبعد ضيافتهم أرادوا الرجوع إلى بلادهم ، وعرف منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجود غلام معهم تركوه كحارس لرحالهم . . فطلبه يمثل بين يديه ، فلما جاءه رغب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو ويستغفر له وليجعل الله غناه فى قلبه . . فدعا له وأمره على الوفد ، فقد كان أنبههم وأحرصهم على الاستزادة من تعاليم الدين . .

وعندما حدثت الردة ، كان هو الذى يقف فى قومه يذكرهم بعاقبة الخروج عن الإسلام ويعظهم حتى رجعوا إلى دينهم ، فأعجب به أبو بكر (الخليفةآئنذ) وكتب إلى الوالى على حضرموت الصحابى زياد بن الوليد ، يوصيه به خيرا . .

ومن عجب أن كتاب السير لم يذكروا اسم ذلك الغلام ، وقد غدا رجلا همـامـا . .

والوفد الثانى الذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن أيضا ، ومن قبيلة بنى عذرة . . كانوا فى اثنى عشر رجلا ، وبدأوه بسلام الجاهلية ،فقال

لهم : فما يمنعكم من تحية الإسلام ، فذكروا له بلسان أحدهم (وهو أخو قصى لأمه) بأنهم (الذين عضدوا قصيا وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، فلنا قرابات وأرحام) . .

فيرحب بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستأنسون به ، ويسألونه عما يدعو إليه . . فيجيبهم ويذكر لهم فرائض الإسلام ، فلم يترددوا فى إعلان إسلامهم عن قناعة ، فينصحهم صلى الله عليه وسلم أن يبطلوا أعمال الجاهلية من الكهانة وغيرها . . فيجيبونه : نحن أعوانك وأنصارك . .

وانصرفوا إلى بلادهم يدعون إلى توحيد الله .

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى أسد بشمال المدينة ، وفيها حضرمى بن عامر ، وهو فى المسجد ، فتقدم إليه أحدهم يقول — بعد أن سلموا عليه — : (أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله) . وردد الباقون شهادته ، ثم قالوا :(جئناك يارسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن على من وراءنا) . .

وجاء الوفد الرابع من بنى خولان باليمن ، وكانوا فى عشرة رجال . . تقدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلمون ويشهدون شهادة الحق ويبرءون مما كانوا عليه . . وقد وصفوا له أعمالهم مع صنم لهم يسمونه (عم أنس) ، ووعدوه بأنهم عندما يعودون لديارهم يهدمونه ويرتاحون من النذور التى كانوا يقدمونها له ، وهم فى حاجة إليها . . وقد صدقوا وفعلوا ، فأفلحوا . .

وفدان من قضاعة

الأول : وفد بنى سعد هذيم ، وفيهم النعمان الذى أصبح فيما بعد يروى بعض الأحاديث . . وقد قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافداً فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد قهراً وغلبة ، واستولى عليها ، والناس صنفان : إما داخل فى الإسلام راغب فيه ، وإما خائف

السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه ، فنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على جنازة — وهى سهيل بن بيضاء — فقمنا خلفه ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم ، وقلنا حتى يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبايعه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلينا فدعا بنا ، فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا : من بنى سعد هذيم ، فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا : نعم . فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ فقلنا : يارسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال : أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . .

فأسلمنا وبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، ثم انصرفنا إلى رحالنا ، وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبنا ، فأتى بنا إليه ، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام ، فقلنا : يارسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا . . فقال : أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه . قال النعمان فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن ، لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، ثم أمره علينا ، وكان يؤمنا ، فلما أردنا الانصراف أمر بلالا فأجازنا بأواق من فضة لكل رجل منا فرجعنا إلى قومنا ، فرزقهم الله الإسلام . .

ومن أحياء قضاعة (حى بلى) ، ومنه جاء وفد (بنى بلى) برئاسة شيخهم : أبو الضبيب . . وعندما وصلوا المدينة ، قصدوا إلى الصحابى رويفع بن ثابت البلوى ، لمعرفتهم به ، فذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلا : هؤلاء قومى ، فأجابه صلى الله عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك ، فتقدموا يعلنون إسلامهم ، وقال شيخهم : يارسول الله إنا وفدنا إليك لنصدقك ونشهد أنك نبى حق ، ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا . .

فسر بهم وأسدى إليهم نصائحه ، وقد قال لهم : (الحمد لله الذى هداكم للإسلام) . .

وفد ابنى فزارة وبنى مرة

ذكر بأن بضعة عشر رجلا تألف منهم الوفد الذى قدم من بنى فزارة ، وفيهم : خارجة بن حصن ، وابن أخيه الحد بن قيس بن حصن . . وهذا أصغر من فى الوفد ، وحالما التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم أعلنوا إسلامهم ، وبعد الترحيب بهم ، سألهم عن حال بلادهم ، وكانت جدباء . . فأخبروه خبرها ، وقد هلكت ماشيتهم وجاع صغارهم ، فطلبوا منه الدعاء لهم بالغيث وأن يشفع لهم عند ربهم . .

فاستجاب صلى الله عليه وسلم ، وصعد المنبر يسأل الله أن يغيث وفده ويشمل بلاده ، ومما قال فى دعائه : (اللهم اسق بلدك غيثاً مغيثاً مربعا طبقاً واسعا عاجلا غير آجل نافعا غير ضار ، واللهم سقيا رحمة لاسقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء) . .

وكان غيثا مدرارا ، روى عنه أنه اتصل سبعة أيام ، حتى صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر مرة أخرى يدعو الله : (اللهم حوالينا ولا علينا ، على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر) . . وقد كانت المطر عامة على المدينة وضواحيها ، وعلى غيرها . .

أما الوفد الثانى ، فقد وصل من بنى مرة ، فى ثلاثة عشر رجلا على رأسهم الحارث بن عوف ، قصدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا بعد التحية : (يارسول الله إنا قومك وعشيرتك ، نحن قوم من بنى لؤى بن غالب) . قالها الحارث ، فرد عليه صلى الله عليه وسلم وهو يتبسم : أين تركت أهلك ، قال : بسلاح ومن والاها . فسأله : فكيف البلاد ؟ فأجاب : (والله إنا لمسنون وما فى المال صوت ردده ، فادع الله لنا) . . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكافأهم بعشرة أواق فضة لكل منهم ، عدا الحارث ، فقد كان نصيبه اثنى عشر أوقية . .

وعندما عادوا إلى بلادهـــم وجدوا الغيث قد سبقهم ، واخضرت الأرض والمـــراعـــى . .

(علي) في جيش إلى اليمن

فى شهر رمضان ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً من ثلاثمائة فارس إلى اليمن ، وذلك بقيادة على بن أبى طالب . . وأوصاه قائلا : (إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، وادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا : نعم ، فمرهم بالصلاة فإن أجابوا ، فلا تبغ منهم غير ذلك ، والله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت) . .

وانطلق على بجيشه إلى الجنوب ، ووزع بعض الجند على بعض النواحى ، فجاءوه ، وهو سائر فى الطريق ببعض الماشية . . وحين التقوا بجموع من القوم ، دعاهم للإسلام ، فرفضوا ، وابتدأوا برشق النبل على المسلمين ، فما كان من على إلا أن وحد صفوف جيشه ، وقد ظهر مبارز من بنى مذحج ، فبارزه الأســود بن خزاعى فقتله ، ثم استولى على ما معه . . ودارت الحرب بين الطرفين . . حتى تغلب المسلمون على مناوئيهم . . وتفرقوا عنهم ، فلا حقوهم وهم يدعونهم إلى الإسلام ، حتى قبلوا واستجابوا . . وأسلمت قبيلة بنى مذحج جميعها . .

كما سبق وأسلمت قبيلة همدان بعد فتح مكة فى سرية (على) الأولى إلى اليمن.

وعاد على بجيشه إلى المدينة ومعهم كثير من الغنائم ، مع ما دفعه القوم من زكاة أموالهـــم . .

خبر خمسة وفود

قبيلة غسان ، هى قوم من الأزد نزلوا على ماء لغسان فنسبوا إليه ، وقد وفد منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رجال ، أسلموا على يديه ، ثم ذكروا

له بأنهم لا يعلمون عن قومهم أيستجيبون للإسلام أم يأبــون ، لأنهم محبــون لمليكهــم قيصر . .

فلما عادوا إلى بلادهم ، ولم يجدوا من أحد استجابة ، ظلوا هم على إسلامهم في الخفاء ، ويسألون الهداية لغيرهم . .

والوفد الثاني : ثلاثة آخرون من (بني عبس) ، أسلموا وجاءوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عما قاله لهم قراؤهم بأنه لا إسلام لمن لا هجرة له . . فأجابهم صلى الله عليه وسلم : (اتقــوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئا) . .

وجاء الوفد الثالث من (حي صداء) باليمن ، وهم خمسة عشر رجلا . . وذلك أن منهم زياد بن الحارث كان قد علم بتحرك جيش للمسلمين الذي أعد من أربعمائة فارس ، وأمر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن سعد بن عبادة بأن يسير به إلى صداء ، فوصل وفد صداء ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه عدم إرسال الجيش ، وأنهم هم أمناء على قومهم ، بعد أن أعلنـــوا إسلامهم وطاعتهم . . وقبل ذلك منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن إليهم ، فكانوا من خير الدعاة في بلادهم ، حيث انتشر الإسلام . . ووفد منهم في حجة الوداع بمكة مائة مسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر عليهم زياد بن الحارث . .

ويروى زياد هــذا بأنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، وكان يلزم ركابه إذا تفرق أصحابه ، وفي الصباح طلب منه أن يؤذن ، فأذن على راحلته ولم يكن هناك من ماء للوضوء ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل معك ماء ؟ فرد عليه : معي شئ في أداوتي ، فطلبه منه ، وصب ما في الأداوة في قدح كبير ، ووضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة في الماء ، ويقول (زياد) : فرأيت بين كل أصبعين عيناً تفور . . وهكذا توضأ كل من كان حاضراً واستقوا . .

والوفد الرابع هو (وفد سلامان) من بطون عرب الأزد وقضاعة وطيء . .
وقد جاء منهم سبعة رجال ، منهم خبيب بن عمرو السلاماني ، فتقدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا . . وسأله خبيب : أى الأعمال أفضل ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الصلاة فى وقتها) . . ثم شكوا له عناءهم من الجدب ، فدعا لهم ربه بالغيث ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم وجدوها قد أخصبت ، وكان قد أمطرت فى نفس اليوم الذى دعا لهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

أما الوفد الخامس ، فجاء من قبيلة مزينة ، ودعيت باسم مزينة زوجة عمرو بن أدبن . . وقد روى أحدهم وهو النعمان بن مقرن المزنى قال : (قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة رجل) . وأنهم بعد أن أسلموا واستضيفوا لم يكن معهم طعام لزاد السفر ، وهم جياع . . فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالنا من طعام نتزوده . . فدعا عمر بن الخطاب ليصعد بهم إلى موضع تمر . . فما زالوا يأكلون ويتزودون ، حتى قال النعمان : (وكنت فى آخر من خرج فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها) . .

فتلك من بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ونعم الله عليه جلت قدرته.

وفد من بنى حنيفة

بنو حنيفة ، يرجع نسبهم إلى بكر بن وائل . . وجاء منهم وفد فى سبعة عشر رجلا ، وفيهم مسيلمة الكذاب ، وهم (يسترونه بالثياب) كعاداتهم مع كبرائهم . .

وحينما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بين صحابته ، وبيده عسيب من سعف النخل ، وكان أول ما قاله (مسيلمة) له ، بأن يشركه فى أمره من النبوة . . فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له : لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه . .

وبالرغم من أن الوفد قد أسلم ، ولكن مسيلمة فى كذبه وحمقه وجنونه ، خرج بينهم مهووساً بما ينتوى ويضمر . . فإذا به يشيع بين أتباعه بأن محمدا قد أشركه فى الأمر ، ثم راح يصنف كلاما بالزجل ، كأنما هو قرآن فى زعمه . وخاب فى مسعاه ومراده . .

وقد روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس على منبره ، وهو يقول : أيها الناس ، إنى قد رأيت ليلة القدر ، ثم أنسيتها ، ورأيت فى ذراعى سوارين من ذهب ، فكرهتهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما هذين الكذابين : صاحب اليمن ، وصاحب اليمامة . .

ويعنى بصاحب اليمن : الأسود بن كعب العنسى فى صنعاء . . وكلاهما ممن ادعى النبوة . . وباءوا بأسوأ مصير . .

خمسة وفود أخرى

بعض مؤرخى السير سجل وفادة هذه الوفود الخمسة ، فى خلال السنة العاشرة أيضا . . ونكتفى بذكر موجز عنها ، إتماما للفائدة :

(١) وفد غامد : وهى قبيلة من الأزد باليمن .

(٢) وفد الأزد : وتنسب هذه القبيلة إلى جدهم الأعلى (الأزد بن الغوث) الذى ينتهى نسبه إلى قحطان . . وروى أن سويد بن الحارث ، قال : وفدت سابع سبعة من قومى ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) وفد بهـــراء : وهى قبيلة من قضاعة باليمن .

(٤) وفد بنى المنتفق : قبيلة من عامر بن صعصعة .

(٥) وفد طارق بن عبد الله المحاربى . . وقد روى عنه جامع بن شداد المحاربى ، بأن الوافد كان يرى وهو بسوق المجاز بمكة فى الأيام الأولى للدعوة بدين الإسلام رجلا يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجلا يتبعه

ويلقى على رجليه الحجارة ، ويقول : يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه . فذكر الوافد (طارق) بأنه عرف بصاحب الدعوة أنه غلام من بنى هاشم يقول بأنه رسول الله ، كما عرف بالرجل الآخر أنه عمه عبد العزى (أبو لهب) . .

وقال طارق : فلما أسلم الناس وهاجروا خرجنا من الربذة نريد المدينة . . ولعل وفادة طارق هذا كانت قبل السنة العاشرة بكثير . والله أعلم . .



حجة الوداع

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا

** صدق رب العزة والجلال **

روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج لخمس ليال بقين من ذى القعدة) . .

وعندما هم بالمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نحو تسعين ألف أو أكثر من صحابته قد تجهزوا لأداء نسك الحج معه . . وهم عدا من حج معه من أهل مكة ومن الوافدين من مختلف المناطق والقبائل ، وهو يقودهم لأول مرة . . ولآخر مرة . .

وقد صحب معه كل نسائه ، وكان خروجه بجموع الحجيج من المدينة ، فيما بين الظهر والعصر من يوم السبت . . وقد وصل بهم إلى مكة فى صباح يوم الأحد الرابع من ذى الحجة وتسمى هذه الحجة ، حجة الكمال والتمام ، كما أخبرت الآية الكريمة باكتمال شرائع الإسلام وتعاليمه ، كما تسمى أيضا : حجة الإسلام وحجة البلاغ . .

أما (الوداع) . . فلما كان يتحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته للمسلمين بعرفة . . ينبئهم بآخر وصاياه وإرشاداته ليكونوا بحق الأمة الرائدة ذات المنهج الواضح والسيرة الحسنة ، مادامت على سنته وتوجيهات الخالق المهيمن على كل شئ . . وقد أراد لهذه الأمة الخير كل الخير إلى أن يرث الأرض ومن عليها . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد استخلف على المدينة أبا دجانة

السعدى . . وقبل خروجه من المدينة اغتسل للإحرام غير غسله الأول ، وأحرم بالحج ، ثم قرنه بالعمرة ، وهو فى منطقة سرف ، وأمر صحابته أن يحلوا بعمرة . . وساق هديه معه ، وفعل مثله الكثيرون من أشراف الناس . . ولحق على بن أبى طالب بركب الحج فى مكة ، بعد عودته من اليمن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المناسك يعلم الناس واجبات الحج وسننه . . حتى انتهى إلى موقف عرفات ، فصلى بهم الظهر والعصر قصراً وجمعاً . . ثم خطب فيهم خطبته الجامعة التى قال فيها صلوات الله وسلامه عليه :

أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أن لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث ، فقتله هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . .

أيها الناس ، (إنما النسيء زيادة فى الكفر ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله) ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان) . .

أما بعد . أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس . اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . .

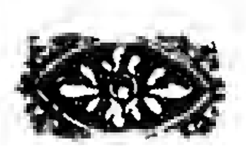
أيها الناس ، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه وتولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

* * *

كانت هذه هى حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيدة بعد هجرته . . وكان وهو بمكة ، فيما روى ، يحج كل عام قبل البعثة وبعدها . . لأنه ليس من المنطق ، أن يكون وهو بمكة ، وغيره من الناس يؤدون نسك الحج ، والقادمون كل عام لهذا الأمر . . ولا يؤدى هو هذا النسك . . وهو المتعبد المتصل بربه فى كل لحظة من لحظاته — عليه الصلاة والسلام . .

أما تعاليمه الأخيرة فى خطبته بعرفة ، فدروس عامة وشاملة لكل ما سبق أن وجه إليه ونادى به من مناهج للإصلاح النفسى وللسمو الروحى وللعقيدة قبـــل كـــل شئ . .

وإن حياته صلى الله عليه وسلم لمدرسة كبرى لبنى الإنسان . . ليهتدوا إلى سبل الرشاد . ..وإلى صراط الله الواضـــح الجـــلى . . فـــى نور الإيمان والتآخى والمحبة . . (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها)
صدق الله العظيم .



ونقل رواة الحديث الثقاة عن أبى مويهبة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعث لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل ، فقال : يا أبا مويهبة ، إنى قد أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم ، قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . .

ثم أقبل على ، فقال : يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فقلت : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، قال : لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة ، ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف ، فبدأ برسول الله وجعه الذى قبضه الله فيه . .

* * *

وفد قبيلة النخع

قيل عن أن هذا الوفد كان آخر الوفود . . وقد وصل إلى المدينة فى منتصف محرم . . من قبيلة النخع باليمن ، جاء الوفد فى مائتى مسلم ، يلتقون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم زرارة بن عمرو الذى ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى عدة رؤى ، ظل يرويها أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يفسرها لـــه . .

وذكر بأن هؤلاء الوفد سبق أن أسلموا على يد معاذ بن جبل ، ومن كان معهم فى بلادهم ، خلال رحلة (معاذ) إلى هناك . . رضى الله عنه وعنهم . .

الإعداد لسرية أسامة

أسامة بن زيد بن حارثة اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبعثه إلى فلسطين بأرض الشام .. وهو الشاب الكفء الذى توسم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن البلاء والإقدام ، فهو ربيبه ، ومن المعدن الطيب الذى لاتخيب فيـــه الظنـــــون . .

ويعتبر بعث أسامة آخر البعوث النبوية . . لأن الجيش الذى كونه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسير به أسامة ، ظل ينتظر لأسباب مرض رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، ولم يقدر له أن يسير إلا بعد أن غاب بدر الحياة عن هذه الدنيا . . إلا بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فى جنات عدن عند مليك مقتـــدر . .



أمهات المؤمنين

اخترنا الحديث عن أمهات المؤمنين – قبل أن يودعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفجعن فيه ، كما فجع وجزع جميع المسلمين . .

* * *

أزواج النبي

الله جل وعلا خاطب رسوله الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام ، فقال :

(ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) . .

وما كان زواجه صلى الله عليه وسلم إلا حكمة وتأليفا . . إلا عطفا وتكريما . ومهما تقول المغرضون ، من أعداء الإسلام ومن المستشرقين . . ومن دعاة الصليب والزيف العقائدى . . فإنهم ، وهم لايرتفعون إلى مستوى الفكر النزيه ، يتخبطون فى أحكامهم على طبائع الشخصية التى أكرمها الله بأعظم الرسالات ، ، ويرفضون حتى مجرد الاعتراف بحقائق ثابتة ، فى تصرفات رسول الله ونبى الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام . . وفى عواطفه السامية ، ونبل مقاصده ، فى تعدد زيجاته التى سوف نعرف عنها كل ما أحاط بها من أسباب ، تدمغ كل مرتاب ، وتدفع فى وجه الحاقدين . . والذين مهما أسرفوا فى غلوائهم ، فلن يغيروا من الحقائق البينة شيئا . .

إن سر النقاء والتكريم الإلهى لازمان لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. . وما كان وهو الشاب المتوثب . . ليتزوج غير واحدة كانت أكبر منه سنا . . وقد جاءت له بالولد ، ولم يكن يشغله إلا الوحدة والتعبد . . ورفهت عليه زوجه حياته ، وأعانته على أداء رسالته . . فقد كانت السيدة خديجة . . السكن والزوج والحبيبة . .

رضوان الله عليها ، وتظل ذكراها الجليلة فى نفسه العظيمة ، تتجدد طيلة السنوات التى عاشها صلى الله عليه وسلم بعدها . . ولايفوته أن يكرم هذه الذكرى ويعى لها قدرها . . وإن كانت مصدراً لغيرة زوجه الشابة عائشة التى آثرها بقلبه . .

سودة بنت زمعة

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فكر فى الزواج بعد . . وهو فى لج أحزانه على السيدة الراحلة (خديجة) . . حتى جاءته سيدة فاضلة هى : خولة بنت حكيم السلمية ، تخرجه عن سمته وصمته ، وتعرض عليه الزواج من اثنتين ؛ : (عائشة) الطفلة ابنة صاحبه أبى بكر الصديق ، وبالأرملة (سودة) بنت زمعة بن عبد شمس العامرية . .

فلما عرفت خولة برضاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك . . أسرعت إلى منزل أبى بكر تخطب له عائشة ليتزوج بها بعد ما تكبر . . ثم تذهب إلى والد السيدة سودة كى تخطبها كذلك . . وكانت فرحتهما كبيرة إلى الحد الذى شعرا فيه وكأنهما فى حلم . . وسودة هذه ، زاد عمرها على الخمسين ربيعاً . . وكانت زوجا للسكران بن عمرو العامرى ، وكان قد هاجر بها إلى الحبشة ، وهو وباقى أهله مع من هاجروا . . وبعد أن عاد بها إلى مكة ، لم يلبث طويلا حتى مات . .

وبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسودة ، فى مكة عطفاً على غربتها ، ولتقوم بواجب رعاية بيته وبناته ، ثم هاجرت معه إلى المدينة . . وحدث ما توقعه من طيبتها ، ثم حبها لزوجاته فيما بعد . . ولم يبدر منها شئ لفت نظره صلى الله عليه وسلم إلا يوم مقدم أسرى بدر ، وفيهم أخو زوجها أبو يزيد بن عمرو ، وقد جئ به إلى بيتها مقيدة يداه إلى عنقه ،فجاءت هى ورسول الله بالبيت ، فقالت : فلا والله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت : (أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متم كراما) . .

فوالله ما نبهني إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت : ياسودة أعلى الله ورسوله تحرضين ، فردت قائلة : يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت . .

وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غلطتها غير المقصودة . وبقيت سودة — ذات الأعمال البيضاء — على عهدها من الولاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأزواجه الشابات . . حتى إذا فكر هو فى طلاقها رحمة بشيخوختها ، وراح يطلعها على ما فى نفسه فى ليلتها ، فزعت هى للخبر ، ولم تلبث أن قالت : (أمسكنى ووالله مابى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجاً لك) . . ثم قالت له : (ابقنى يارسول الله وأهب ليلتى لعائشة) . .

وهكذا رضيت (سودة) بمقامها طائعة عابدة . . وهى التى نزلت بشأنها الآية الكريمة فى قوله تعالى : (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) . .

وقد عمرت رضى الله عنها ، وتوفيت أثناء خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . .

عائشة الصديقة

عائشة ابنة أبى بكر الصديق[1] ، واسمه عبد الله بن أبى قحافة . . يلتقى نسبه مع رسول لله صلى الله عليه وسلم فى جده (مرة بن كعب) . . وأمه أم الخير

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى بكر : (ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر) . . ثم قال عنه مرة : (ما نفعني مال قط ، ما نفعنا مال أبى بكر) فاذا بأبى بكر تدمع عيناه ويرد عليه : (يارسول الله ، وهل أنا ومالى الا لك) ..

والمعروف أن المطعم بن عدى الذى كان خطب ابنة أبى بكر عائشة لابنه من كبار رجالات قريش .. وهو الذى أجار رسول الله صلى عليه وسلم عند عودته الى مكة، بعد رحلته الى بنى ثقيف بالطائف ، ومعاداة القوم له قبل الهجرة

سلمى بنت صخر ، وتلتقى بنسبه فى جده عمرو بن كعب . . وقد ولد أبو بكر بعد ميلاد رسول لله صلى الله عليه وسلم بنحو ثلاثة أعوام . .

وولدت عائشة بعد البعثة بخمس سنوات ، أى قبل الهجرة بنحو ثمانية أعوام ونصف وأمها : أم رومان ابنة عمير بن عامر من بنى الحارث بن غنم بن كنانة . . وكان المطعم بن عدى ، قد خطب (عائشة) من أبيها لابنه (جبير) . . وإن كان أبو بكر لم يرضه ذلك ، ويتحين الفرص ليتحلل مما ارتبط به . .

وما أن جاءت (خولة بنت الحكيم) إلى بيت أبى بكر تعلن خطوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة ، حتى تهلل أبو بكر ، واستبقاها ريثما يتصرف ويعود . . وقبل أن يخرج لم تتمالك زوجه أم رومان أن قالت : إن المطعم بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه جبير ، ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف .

وذهب أبو بكر إلى منزل مطعم ووجد امرأته معه — وهى مشركة — يستفسر عن موقفه مما سبق وتكلم بشأنه عن عائشة ، فإذا بزوجه تقول : يا ابن أبى قحافة ، لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه . .

وهنا اطمأنت نفس أبى بكر ، إذ وجد أنه قد تخلص مما كان يعتبره ارتباطاً مع المطعم . وكأنما قد انزاح كابوس عن صدره . . للخير الذى أراده الله بـــه . .

ويقال لقوم أبى بكر (بنوتيم) . . نسبة إلى جده الرابع (تيم بن مرة) ، لما كانوا يتحلون به من الشجاعة وحميد الصفات . .

ومن ثم تم العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة الصبية اللاهية ، وتظل فى حلمها الجميل ، حتى تنقضى أعوام ثلاثة ، وهى قد انتقلت إلى جوار أبيها بالمدينة . .

وما أن استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء غرف مسكنه ، حتى

تزوج عائشة الفتاة الناضجة ، والناحلة الجميلة . . ولنستمع لها تروى عن يـــوم زفافها ، قالت : (جاء رسول الله بيتنا ، فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتنى ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشئ من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى إذا كنت عند الباب ، وقفت بى حتى ذهب بعض نفسى ، ثم أدخلتنى ورسول الله جالس على سرير فى بيتنا ، فأجلستنى فى حجره ، وقالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك . ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بى رسول الله فى بيتى ، ما نحرت عـــلى جزور ولا ذبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

لقد كانت الحال المعيشية يومها ضيقة ومحدودة فى بداية بناء المدينة . . ولم تتوفر بعد الوسائل لإمكان إقامة وليمة يدعى إليها الناس فى البيت النبوى . . وإن كان ماذكر بأن صداق عائشة الذى قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ خمسمائة درهم ، فإنه كان قد دفعه وهو بمكة عند العقد على أشهر الأقوال . .

وملأت عائشة الدار الجديدة مرحا ، وهى تتأقلم عـــلى البيئة الجديدة التى دخلتها صغيرة تأتلف وتوادع . . وتستزيد وعياً وتوانس . . فإذا هى الحبيبـــة الأثيرة . . والتى قال عنها زوجها النبى صلى الله عليه وسلم : (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) . .

وإذا هى أيضا المؤمنة الفطنة التى تستهدى فى ظلال النبوة وتستقطب تعاليم الشريعة من مصدرها . . ثم إذا هى الحجة فى فقه النساء . . رضوان الله عليها . . فكان نساء المسلمين يقصدنها لترد على استفساراتهن فيما يختص بهن من أمـــور دينهن ، وممن يتحرجن من الحديث عنه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تثقفت هى بهديه ومواعظه . .

ولعل أشد ما تعرضت له عائشة من محنة . . هو (حديث الإفك) الذى سبق أن استوفينا خبره فى فصل سابق من كتابنا هذا . .

وعلى الرغم من أن عائشة تعرف مكانتها الكبرى من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقد قال لها صراحة (حبك ياعائشة فى قلبي كالعروة الوثقى) . فانها كامرأة شديدة التأثر سريعة الانفعال . . فما كانت لتستطيع أن تكتم غيرتها من ذكرى السيدة الراحلة (خديجة) . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بوفائه ، يستذكر أيامه معها فى بعض المناسبات . . ولكنه دائما يتصرف بحكمته ، فيرد على عائشة فى لباقة وحجة مما جعلها تنصرف رويدا رويدا عن غيرتها من التى قضت ولكنها تتجه إلى من قد أصبحن يشاركنها الحياة كضرائر ، فى عشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان ذلك ليؤثر فى حياته المباركة . . وهو منصرف إلى تكوين دولته الإسلامية . . ومنشغل بتهذيب الناس وتعليمهم ، إلى جانب البعوث والغزوات للدعوة إلى دين الله تعالى وإقرار رسالة التوحيد على الأرض . .

غير أن الأيام تمضى ، ويصبح لرسول الله صلى الله عليه وسلم عدة زوجات فيهن (مارية) القبطية التى ولدت ابنه إبراهيم . . وقد اشتعلت الغيرة . . حتى كان لعائشة حزبها وفيه (حفصة) ابنة عمر . . وقبل مارية ، كانت (زينب بنت جحش) . . وكان تدبير عائشة لحديث المغافير مما سوف يأتى خبره ضمن الحديث عن زينب . .

أما ما أثارته السيدة عائشة فقد بدأ من حزبها عندما جاءت مارية وحملت ، فإن همسهن المرتفع كان يردد بهذه العبارة : (صبرنا على إيثار الرسول لابنة أبى بكر ، وما بقى إلا تلك المرأة القبطية ، فأى هوان) . .

ولم تكن عائشة لتضمر ما كان يعتمل فى نفسها من وجود مارية ومن غيرها . حتى لقد تعكر صفاء الجو المحيط بهن . . واستاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصرفاتهن . . فيعظهن ويحاول بلطفه أن يسكنهن عن ذلك اللجاج . . فما كن ليثبن إلى رشدهن . . وظهر فيهن من يطالب بالتوسع في النفقة .. ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام ذلك الجو المضطرب إلا أن يهجرهن شهراً كتأديب لهن . . وتخرج إشاعة تقول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق أزواجه ..

وما ينقضى الشهر إلا ويراجعهن وينزل من القرآن الكريم ما يوضح الأمــر ويكشف الحقيقة ، فى الوقت الذى يحذر الزوجات وينير لهن السبيل . . ممــا سنقرأه فى (سورة التحريم) . . عند الحديث عن السيدة حفصة . . وخبرهــا مع ماريــة . .

وكان أن خيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم زوجاته بين متاع الحياة الدنيا ، وبين البقاء معه بالزهد والإيمان بعيدا عن مظاهر تلك الحياة الفانية . . فاخترنــه وآثرن ما عنده من نعيم معنوى ، دون شوشرة أو مطمع فى شئ من تلك المتع الزائلــــة . .

ويسود الصفاء . . ولم يكن يغيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مافى نفوس زوجاته . . ولم يبق فى حياته إلا القليل . . فيحرص أن يزودهن بكل ما يصلح شئونهن ، وأن يكن القدوة الحسنة لجميع المؤمنات . . وهن أمهاتهن . . رضوان الله عليهن . .

ومن إعزاز السيدة عائشة ، أن طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض وفاته ، بأن يمرض فى بيتها ، فوافق أزواجه ، حتى إذا فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ، نجد السيدة تقول عن تلك اللحظة الأليمة : (وقبض رسول الله بين سحرى ونحرى ، فمن سفهى وحداثة سنى أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو فى حجرى ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى) . .

وقد عرف أن الوحى لم يكن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند واحدة من زوجاته إلا خديجة وعائشة . . وفى مناسبتين فقط عند غيرهما . .

وقد دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيت عائشة . . وهى شابة لم تستكمل بعد العشرين ربيعا . . وإنما كانت ذكية واعية ، وتعد مرجعاً صحيحا للعديــد من الأحاديث النبويــة . .

ونجد الإمام محمد بن مسلم الزهرى — من التابعين — قال عن السيدة عائشة : (لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزوج النبي صلى الله عليه وسلم وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل) . .

ونستذكر هنا مقالة حديثة للمؤرخ الإنجليزى (بودلى) فى كتابه عن الرسول صلى الله عليه وسلم — وعائشة تبدأ حياتها الجديدة : (منذ وطئت قدماها بيت النبي محمد ، كان الجميع يحسون وجودها ، ولو أن هناك شابة عرفت ماهى مقبلة عليه لكانت عائشة بنت أبى بكر ، فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبي الملحقة بالمسجد) . .

وعمرت عائشة حتى بلغت الخامسة والستين . . وكان لها دور كبير فى أعقاب مقتل الخليفة عثمان بن عفان . . ومجابهة الإمام على بن أبى طالب . . رضى الله عنهم . .

وتوفيت بعد منتصف شهر رمضان عام ٥٨ للهجرة ، مرضيا عنها ، ودفنت فى بقيع الغرقد ، كغيرها من آل النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته . .

حفصة ابنة عمر

حفصة ابنة عمر بن الخطاب بن نفيل . . ويلتقى نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جده (كعب بن لوئى) . . وأمه : حنتمة ابنة هشام بن المغيرة المخزومية . . وكنيته أبو حفص . وزوجه أم حفصة : زينب ابنة مظعون . .

وقد ولدت (حفصة) قبل أربعة عشر عاما من الهجرة . . وتزوجت ، وهى فتاة بخنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى . . وهاجرت معه إلى الحبشة ، ثم انتقل بها إلى المدينة . . وكان صحابيا تقياً ، ومن الذين اشتركوا فى موقعة بدر وأصيب فيها بجراح ، ثم توفى بعدها من تأثير جراحه . . ودفن بالمدينة مأسوفاعليه

وتألم عمر لترمل ابنته ، وهى لما تزل شابة فى الثامنة عشرة من عمرها .. ولم

تمض بضعة أشهر حتى يذهب إلى صديقه وزميله فى الكفاح أبى بكر الصديق . يعرضها عليه ، فلا يجد من جواب إلا الصمت . . ثم يعرضها على زميله الآخـــر عثمان بن عفان ، فيخبره هذا بأنه لايريد الزواج ذلك اليوم . . ويتفكر عمر فى شأن ابنته ، ولم يستجب لها أحد صديقيه . . فلم ير بدا من أن يخبر بأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وما كاد عمر يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، حتى وجـــده يتبسم وهو يقول له : (سيتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة) . . وهكذا تزوج عثمان بأم كلثوم . . وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفصة . .

فهو يكرم صحابته . . وهو يرفق بالضعاف . . وهو يتألف القبائل . . وهو يعوض الأرامل خيرا . . عليه الصلاة والسلام . . فما من زيجة له إلا وكان من أسبابها من هذه المعانى الإنسانية الرفيعة . .

وكانت حفصة التقية العابدة . . ولكن غريزة المرأة لاتتجاوزها دون أن تبذر بعضا من المشاكل . . فلقد مرت أكثر من مسألة كان فيها لهب الغيرة يتحرك ويثير بين زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من الشغب والتعب . . وبلغت القمة عند حفصة ، يوم أن كانت (مارية) فى غرفتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فما أن رأته ، حتى بادرته متأثرة باكية بتلك الكلمة الجريئة : (لقد رأيت من كان عندك ، والله لقد سببتنى ، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليـــك) . .

وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسئ إليها فى شئ . . فهون من غلوائها ، حتى سرى عنها بأن أسر لها بأنه قد حرم مارية ترضية لها . .

ولكن القرآن ينزل ليصحح . . وإلى ذلك أشارت الآيات فى أول سورة التحريم . . فقال تعالى يخاطب نبيه الكريم : (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك

تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ، قد فرض الله تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ، وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنباك هذا قال نبأني العليم الخبير ، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عـــابدات سائحات ثيبات وأبكـــارا) . .

ولقد هجر الرسول صلى الله عليه وسلم زوجاته شهرا ، وطلق حفصة ، ثم راجعها . . وكان موقف أبيها عمر صارما عندما جاءها يقول لها : (لعل رسول الله قد طلقك ، إنه قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، فإن طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبـــداً) . .

وتهدأ الزوجات بعد النذير الإلهي . . وتشتهر (حفصة) بينهن بالصوامة القوامة . . وقد كانت من الثقة فيها ، أن أودع عندها أبو ها الخليفة عمر عنـــد وفاته النسخة الكاملة للمصحف ، والتي جمعها أبو بكر وكتب كل ما جاء مـــن القرآن ، وفـــق ما أشار إليه (عمر) صاحب الآراء الصائبة . . وبقيت نسخة المصحف عند (حفصة) حتى أخذها الخليفة عثمان عند كتابته للمصحف الشريف أول مرة . .

وتوفيت (حفصة) في العام الخامس والأربعين للهجرة وقد نيفت عـــلى الستين من عمرها . .

زينب ابنة خزيمة

زينب ابنة خزيمة بن الحارث بن عبد الله — من نسل عامر بن صعصعة . . أول من تزوجت في الجاهلية بابن عمها : جهم بن عمرو بن الحارث . .

ثم تزوجت بعده : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وعرف عنها العطف على الفقراء حتى سموها (أم المساكين) . . وقد هاجرت مع زوجها عبيدة مع من هاجر . . وكان من شهداء بدر . . فظلت زينب وحيدة . . فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكريمها وإخراجها عن حزنها . . فخطبها من قبيصة بن عمرو الهلالى ، فتزوجها على صداق قدره أربعمائة درهم . . وذلك بعد أن تزوج (حفصة) فى العام الثالث للهجرة . .

وعن يوم الزواج روى أنس بن مالك قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عروساً بزينب ، فعمدت (أم سليم) إلى تمر وسمن وأقط ، فصنعت حيساً فجعلته فى تور ، فقالت : ياأنس اذهب إلى رسول الله فقل : بعثت هذا إليك أمى وهى تقرئك السلام) . .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ادع فلاناً وفلاناً ،رجالاً سماهم ، وادع لى كل من لقيت) . . فدعوت من سمى ومن لقيت ، فإذا البيت غاص بأهله . قيل لأنس ماعددهم ،قال : كانوا ثلاثمائة ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وضع يده الشريفة على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله ، ثم جعل يدعو عنده عشرة يأكلون منه ، ويقول لهم : (اذكروا الله ، ليأكل كل رجل مما يليه) فأكلوا حتى شبعوا كلهم . ثم قال صلى الله عليه وسلم لى : (ياأنس ارفع ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت) . .

ولم يطل العمر بزينب ، إذ توفيت بعد زواجها هذا بنحو ستة أشهر عن ثلاثين عاما ، رضى الله عنها وذلك فى أوائل العام الرابع للهجرة .

أم سلمة المخزومية

أم سلمة هند ابنة أبى أمية بن المغيرة المخزومية . . وأمها : عاتكة ابنة عامر ابن مالك من بنى كنانة . .

تزوجت وهى فتاة من عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، الذى عرف بأبى سلمة . فقد أخلف منها : ولدين : سلمة وعمر ، ثم بنتين : زينب ورقية . .

وأبو سلمة ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : برة بنت عبد المطلب ، بل وأخوه فى الرضاعة . فقد رضع معه من ثويبة التى أهداها لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو لهب . .

وقد هاجر أبو سلمة وزوجه إلى الحبشة الهجرة الأولى . . وهناك ولد له (سلمة) . . ثم عادوا إلى مكة . .

وعندما بدأ الناس يهاجرون إلى المدينة ، جهز أبو سلمة بعيره وخلفه ابنه وزوجه . . وما أن هم بالخروج حتى اعترضه بعض بنى المغيرة يتهددونه كيف يخرج بهند ، فأمسكوا بها ، وتنازع بعض بنى الأسد على ابنهما (سلمة) ، وشدوه حتى خلعوا ذراعه لئلا يتركوه يرافق أمه عند قومها . .

وهكذا انطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، فكان من أول المهاجرين . .

وبعد نحو عام من الفرقة والتألم ، تمكنت (هند) أن تصحب ابنها وتهاجر به إلى المدينة . . ونزلت على زوجها بقباء حيث يقطن فى منازل لعمرو بن عوف . . فكانوا من أوائل من كانوا فى استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هجرته ووصوله إلى قباء . .

وقيل عن هند بأنها أول ظعينة دخلت المدينة . . وقد ولدت أبناءها الثلاثة الآخرين بالمدينة . . وشارك زوجها فى بناء الدولة الجديدة ، كبطل من أبطال الجهاد . . وأصيب فى إحدى المعارك بجراح . . ولم يلبث أن توفى فى أوائل العام الرابع للهجرة . .

وروى أنه ما إن انتهت عدة (هند – أم سلمة) حتى تقدم لخطبتها أبو بكر ، ثم عمر . . ولكنها أبت عليهما . . وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم رأفة ورحمة . . ثم زوج ابنها (سلمة) فيما بعد من ابنة عمه حمزة بن عبد المطلب . .

وقد عمرت أم سلمة ، حتى بلغت أربعاً وثمانين عاما عندما توفيت خلال حكم يزيد بن معاوية رضيَ الله عنها . .

زينب بنت جحش

(زينب) أو برة ابنة جحش بن رئاب الأسدية . . وأمها أميمة ابنة عبد المطلب . . كانت تعتد كثيرا بنفسها وتفاخر بمكانتها . .

فهى ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد طلب خادمه (زيد بن حارثة) من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها له . . فذكر له تعاليها . . فألح زيد ، حتى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب ليتولى خطبتها له ، فلما عاد (على) بما رآه من عدم الرضى . . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذوى زينب مطالباً زواجها لزيد بهذا الأمر : (قد رضيته لكـــم وأقضى أن تنكحوه) . .

وأنفق هو (صلى الله عليه وسلم) على جميع مطالب الزواج الذى تم بعد آية قرآنية نزلت آنئذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن عص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) . .

ولكن (برة) وهذا اسمها ، وسماها الرسول (زينب) . . لم تكن راضية عن هذا الزواج . . وهى تدل بحسبها على (زيد) وتصد عنه . . وكثيراً ما شكا حالها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رد عليه أكثر من أن نصحه بالصبر عليها وهو يردد : (أمسك عليك زوجك) ولكن الصبر نفد ، وزينب تزداد فى جفوتها ونفرتها من زيد ، حتى تعذر التقارب بينهما ، فطلقها . . واستراح الطرفان

وماهى إلا فترة ليست بالطويلة ، حتى يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب.. فقال سبحانه: (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه

أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبــديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون عــلى المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله قدراً مفعولا)

وإذا بزينب تكاد تطير فرحاً عندما عرفت بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها . . وهى آنذاك فى الخامسة والثلاثين من عمرها . . وقد استعدت لتدخل حياة أعظم إنسان . . .

ويتم الزفاف مع أول أيام ذى القعدة من العام الخامس الهجرى . . وقد ذبحت شاة ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك أن يدعو كل من يراه من المسلمين .

وبعد أن انصرف الناس ، حلا للبعض البقاء ، وكانوا ثلاثة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حيائه لا يستطيع صرفهم ، وإذا بتعاليم جديدة تنزل فــى آية من القرآن . . فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناءه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم . وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما) .

وتتضمن هذه الآية الشاملة أمراً بالحجاب الكامل الذى أنزله الله لنساء النبي وللمؤمنات . . تصونا لهن . . ومحافظة على كيان المجتمع المسلم ، وسلامته من أية ريبــة . .

وكان المنافقون قد لجلجوا فى شأن هذا الزواج وقالوا : إن محمدا حرم نساء الأولاد وقد تزوج امرأة ابنه ، وهنا نزلت الآية الكريمة من قوله تعالى : (ما كان

محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما) . . ثم نزلت الآية الأخرى فقال تعالى : (ادعوهم لآبائهم هو أقرب للتقوى) ..

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد قال مرة بأن زيدا ابنه . . فكان الناس يقولون زيد بن محمد . . وبعد نزول القرآن فى هذا الشأن ، عاد إلى اسم أبيه : زيد بن حارثة ، وهو الخادم الأمين الذى فضل البقاء حيث هو ، على الرجوع مع أبيه وعمه عندما جاءا يطالبان به ، وقد خيره رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وبينه ، فاختاره عليهما . .

وكانت زينب خاشعة متضرعة فى عبادتها ، كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تتصدق كثيرا . . فكانت أول أزواجه تموت بعده ، مصداقا لما قاله عنها عندما سأله بعض نسائه : (أينا أسرع بك لحوقاً ؟ فأجابهن : أطولكن يداً) . . يعنى فى الصدقة . .

ولعل أهم ما كانت تدل به على ضرائرها ، عندما تحتدم بينهن الغيرة ، أنها تقول لهن : أنا أكرمكن وليا وأكرمكن سفيرا ، زوجكن أهلكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات) . .

ثم حديث المغافير الذى نتج عن تجمع عائشة وحفصة وسودة ، ضد الزوجة الجديدة . . وقد هال عائشة أن يطيل الرسول صلى الله عليه وسلم الجلوس عندها . وفى لهب غيرتها عمدت إلى حفصة وسودة ، بأن تقولا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما خرج من عند زينب ، وجاء إليهما : (أكلت مغافير) . .

والمغافير : نبات حلو الطعم ولكن له رائحة كريهة ، وشجره يسمى (العرفط) . .

وكان أول ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند زينب جاء إلى عائشة ، فقالت له : إنى أشم رائحة مغافير ، أكلت مغافير ؟ فقال : لا . وتكررت كلمة عائشة من حفصة ، ثم من سودة التى أضافت : فما هذه الريح ؟ فأجابها

صلى الله عليه وسلم : (سقتنى زينب شربة عسل) . . فإذا بسودة تعلل كخبيرة بالمرعى : (رعت نحله العرفط) . .

وكان ما كان من امتناع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العسل ، حتى انكشف له الأمر ، وندم نساؤه على ما فعلن ، ثم تأديبه لهن عليه الصلاة والسلام .

وعندما ماتت زينب كانت فى الحادية والخمسين من عمرها ، وذلك فى السنة العشرين للهجرة . .

جويرية بنت الحارث

جويرية ابنة الحارث بن أبى ضرار الخزاعية ، من سبايا غزوة بنى المصطلق التى وقعت فى السنة الخامسة للهجرة . .

ولقد سبق لجويرية أن تزوجت من ابن عمها عبد الله ، ثم فارقها . . والحارث سيد قومه (بنى المصطلق) . . وقد وقعت ابنته هذه فى الأسر ، وكانت من نصيب ثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى ، وعندما أراد أن يكاتبها على نفسها ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، فقال لها : هل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : ماهو ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم . .

حدث هذا فى المدينة . . ثم جاء أبوها الحارث يفتديها بعدد من الإبل ، وكان قد ترك اثنين منها فى شعب بالعقيق لحاجته ، حتى إذا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم فداء ابنته ، سأله صلى الله عليه وسلم : (فأين البعيران اللذان غيبت بالعقيق بشعب كذا وكذا ؟ . . فإذا بالحارث يعلن إسلامه قائلا : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، صلى الله عليك ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله تعالى) . .

وقد أسلم معه ابناه وعديد من قومه . . ثم ذهب لإحضار بقية الإبل ،

وقدمها لرسول الله صلى الله عليه وسلم افتداء لابنتـــه .. ولم يتركه صلى الله عليه وسلم أن يغادره ، فخطبها منه ، وتزوجها على صداق أربعمائة درهم . .

وكان هذا الإصهار – كما رأينا – سبباً فى إسلام بنى المصطلق . . وقد أخذ المسلمون يطلقون ما عندهم من الأسرى ، فلقد أصبحوا أصهارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك الحكيم الذى لايبارى . . وقـــد ألهمه الله الحكمة وفصل الخطاب . . ليكون بالإسلام أعظم دول العالم . .

وقد وصفت السيدة عائشة – عندما رأت (جويرية) – فقالت : كانت جويرية عليها ملاحة وحلاوة لايكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه ، وكانت فـــى سن العشريـــن . .

وعاشت جويرية رضى الله عنها ، حتى أوفت عـــلى السبعين من عمرها ، وتوفيت فى العام السادس والخمسين للهجرة . .

ريحانة ابنـــة يزيـــد

ريحانة ابنة يزيد من بنى النضير . . كانت قد تزوجت برجل من بنى قريظة يدعى (الحكم) . . وكلهم من يهود . .

وفى غزوة (بنى قريظة) التى أبيد فيها يهود فى أواخر العام الخامس للهجرة . . كانت (ريحانة) من بين السبايا اللواتى رغبن الحياة بالإسلام . . وقد خيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام وبين ما كانت عليه يهود ، فاختارت أن تؤمن ، فأعتقها . . ثم تزوج بها فى أوائل العام السادس للهجرة . .

وروى أن ريحانة كانت قد اشتدت بها الغيرة مرة ، حتى طلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أعادها . . ولم تعش طويلا ، فقد توفيت بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع . .

صفية ابنة حيي بن الأخطب

صفية ابنة حيى بن أخطب . . أبوها : حيى ، سيد قومه فى خيبر . . كان أول من تزوج بها شاعرهم سلام بن مشكم . . ثم تزوجها بعده (كنانة بن الربيع بن الحقيق) الذى قتل فى غزوة خيبر — وهو صاحب أكبر حصونها — فى أوائل العام السابع للهجرة . .

وكانت صفية من سبايا خيبر ، فاختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وأعتقها وحجبها . . ليتزوج بها . . وقد جهزتها له (أم سليم) ودخل بها قبل الوصول للمدينة . .

وورد أن (صفية) جاءت مرة تبكى واشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن (عائشة وحفصة) ينالان منها وبأنهما خير منها وأنهما بنات عمه صلى الله عليه وسلم . . فقال لها : قولى لهن : كيف تكن خيراً منى وأبى هارون وعمى موسى عليهما السلام ، وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم . .

وروى أن السيدة صفية فى محنة حصار الخليفة عثمان بن عفان فى منزله ، كانت توصل إليه الماء والطعام فى السر . .

وتوفيت سنة خمسين للهجرة على عهد معاوية بن أبى سفيان . .

رملة - أم حبيبة

رملة ابنة أبى سفيان بن حرب . . كان قد تزوجها عبيد الله بن جحش الأسدى ، وكانا قد أسلما وهاجرا معاً إلى الحبشة الهجرة الثانية . . وهناك رزقا بمولودة أسمياها (حبيبة) . . فأصبحت رملة تكنى بأم حبيبة . . وهناك أيضا ارتد (عبيد الله) عن الإسلام إلى النصرانية . . وظل يحاول مع زوجه أن تتنصر مثله ، ولكنها تمسكت بدينها وفارقته ، وعاشت فى وحدتها حتى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . . فأرسل إلى النجاشى — حاكم الحبشة المسلم — يطلب منه

أن يزوجها له . . فدفع لها النجاشي صداقاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقداره أربعمائة دينار . .

وكان الذى أبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى عمرو بن أمية الضمرى . . وحضر الحفل الذى أقامه النجاشي لعقد النكاح ، وقد أجراه، وكيل السيدة رملة : خالد بن سعيد بن العاصى– ابن عم أبيها – وهى كذلك ابنة عم عثمان بن عفان رضى الله عنهم . . فهى من بيت عريق له فروع كريمة زاهرة .

وتكفل النجاشي بإرسال العروس رملة ، مع شرحبيل بن حسنة إلى المدينة . . وهنا جدد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد زواجها ، ودخل بها بعد الرجوع من غزوة خيبر . . بينما عثمان بن عفان قد أقام وليمة الزواج . .

وقد تربت حبيبة فى رعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم كإحدى بناته . . وكان عمر رملة آنذاك يقترب من الأربعين . . وقد عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العام الثانى والأربعين للهجرة ، حيث توفيت فى عهد أخيها معاوية .

والجدير بالذكر أن عبيد الله بن جحش هو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخو زوجه (زينب ابنة جحش) . . وقد عاد إلى حظيرة الإسلام وحسنت خاتمته ، رضى الله عنه . .

مارية القبطية

مارية ابنة شمعون القبطى المصرية . . وأمها رومية مسيحية . . وقد نشأت بين أهلها فى صعيد مصر بقرية (حفن) . . وكانت وأختها (سيرين) قد جئ بهما جاريتين إلى قصر المقوقس حاكم مصر أو (عظيم القبط) كما يدعونه . .

وعندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه مع حاطب بن أبى بلتعة إلى حاكم مصر ، يدعوه إلى الإسلام فى أوائل العام السابع للهجرة . . أرسل له

المقوقس بهدايا مختلفة ومن ضمنها الجاريتين (مارية وسيرين) اللتين ظل (حاطب) فى الطريق يهون عليهما فراق الديار ، عما ستجدانه فى بلاد الإسلام العريقة من عز ومكرمة ، وما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن الجوار والعطف ، حتى اطمأنتا إلى دين الحق ورغبتا فيه . .

وعندما وصلتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهب (سيرين) إلى حسان بن ثابت ، واختار لنفسه (مارية) فدخل بها . .

وكانت تتفانى فى خدمته ، وقد رفعها إلى مكانة عالية . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزلها فى مسكن بمنزل الحارث بن النعمان . . فلما لحظ غيرة زوجاته تشتد منها ، نقلها إلى مكان بالعالية ، يجيئها فيه كل يوم . .

ولم يمض عام حتى ولدت له ابنه (إبراهيم) ، وأصبحت حرة . . وكانت فرحة رسول الله صلى الله عليه وسلم به كبيرة . . فكان يطيل المكوث عندها . . وكانت حوادث الغيرة العاصفة فى حدتها بين زوجاته . . حتى أنه حرم (مارية) ثم أعادها ، بعد شهر الهجر الذى كان يعتبر تأديبا لهن جميعا . .

ثم لا يلبث (إبراهيم) — فرحة العمر — أن توفى ولم يستكمل العامين . . ويحزن الأب الرحيم صلوات الله وسلامه عليه أشد الحزن . . والآلام تعتصر أمه (مارية) ، فيهون عليها قائلا : إن له لمرضعاً فى الجنة . .

وبعد دفنه ، تصادف أن كسفت الشمس ، فتحدث الناس بأنها انكسفت لموت إبراهيم . . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد . .

ثم قال عليه الصلاة والسلام تكريما لأصهاره من أهل مارية : (استوصوا بقبط مصر خيرا فإن لهم ذمة ورحما) . .

وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزلت (مارية) فى بيتها . .

فلا تخرج إلا لزيارته وزيارة ابنهما فى الخالدين . . ثم للاستئناس بأختها سيرين ، حتى توفيت فى العام السادس عشر للهجرة . .

ميمونة ابنة الحارث

(برة) أو ميمونة ابنة الحارث بن حزن — من بنى عامر بن صعصعة . . كانت قد تزوجت فى الجاهلية ، بمسعود بن عمرو ، ولما فارقها ، تزوجها أبورهم ابن عبد العزى — من بنى عامر بن لؤى — وهما على الإسلام . . ثم توفى عنها . .

وكان اسمها (برة) وأبدله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى (ميمونة) . . كعادته فى اسم (برة) أو بعض الأسماء التى توافق الطبيعة الإسلامية . .

وميمونة : خالة كل من عبد الله بن العباس ، وخالد بن الوليد ، وأخت : أسماء وسلمى ابنتى عميس ، وزينب ابنة خزيمة — من الأم . .

وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ذى القعدة أثناء تأديته للعمرة الأولى . . ثم دخل بها ، بعد خروجه من مكة فى الموضع الذى يدعى (سرف) — قرب التنعيم — ومن عجب أنها دفنت بسرف أيضا ، بعد أن عاشت إلى العام الواحد والخمسين للهجرة وقد نيفت على الثمانين من عمرها . . رضوان الله عليها . .

والسيدة ميمونة — هى الوحيدة التى دفنت خارج المدينة من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم اللاتى توفى عنهن . .

زوجات لم يدخل بهن

قبل أن نعرف عنهن شيئا . . لابد أن نشير إلى أن بعض المؤرخين وكتاب السيرة ، يعدون كلا من (مارية القبطية ، وريحانة ابنة يزيد) من سراريه صلى الله عليه وسلم . . وإيضاحا لهذا ، فإن (ريحانة) كان قد أعتقها قبل دخوله بها ،

أما (مارية) وقد ولدت له (إبراهيم) فإنها تعد كحرة ، من زوجاته . . ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، سريتان هما : جارية أهدتها له زوجه (زينب ابنة جحش) وجارية أخرى اسمها (زليخة القرظية) . .

أما عن الزوجات اللاتى لم يدخل بهن رسول لله صلى لله عليه وسلم فذكر : عنهن روايات مختلفة . . وقد اجتزأنا على أشهرها ، رغم التباين بينها . . ولنبدأ

١ — عمرة ابنة يزيد الكلابية ، قيل بأنها كندية . . وهى بنت عم أسماء بنت النعمان . . ذكر أنه عندما جاءت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخل بها استعاذت بالله منه ، فرد عليها : منيع عائذ بالله . . وقيل بأنه دعاها ، فقالت : إنا قوم نؤتى ولا نأتى . فردها إلى أهلها . . روى البعض بأن (سودة القرشية) هى التى استعاذت وأبعدت . .

٢ — عز — أخت دحية الكلبي — قيل بأنها ماتت من الفرحة بعد ما علمت بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتزوجها . .

٣ — أسماء بنت النعماء بن أبى الجون الكندية . . ذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل عليها وجد بها بياضاً كالبرص ، فأنعم عليها وردهـا إلى أهلهـا . .

٤ — أم شريك غزية العامرية . . أسلمت وكانت تدخل على نساء قريش تدعوهن سرا إلى الإسلام . . وقد وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يدخل بهـا . .

وقد ذكر غير (أم شريك) هذه . . ثلاثة يحملن هذا الأسم (أم شريك) مضافا إليه : -

الأولى : خولة السلميـة . .

والثانيـة : الغفاريـة . .

والثالثـة : الأنصاريـة :

وبأنهن من هاته الزوجات اللاتى لم يدخل بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ ــ وأخيرا (قتيلة) ابنة قيس ، أخت الأشعث بن قيس الكندى . . زوجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخوها ، بينما هى فى حضر موت . . ومات صلى الله عليه وسلم ولم تكن قد وصلت . . فأوصى إذا حضرت بأن تخير ، فإن شاءت البقـــاء وضرب الحجاب عليها فتكون من أمهات المؤمنين ، وإن شاءت الفراق ، فتتزوج بمن شاءت . . فاختارت الثانية ، فتزوجها عكرمة بن أبى جهل .

والجدير بالذكر بأن من القدامى من ألف رسائل عن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم . . ومنهم : الحافظ الدمياطى ، والشمس الشامى . .



سيد العالمين ـ محمد بن عبد الله
فى جوار الله ـ رب العالمين

** رسول الله . . يا أنوار إيمانى **
** بأمى أنت . . بل بأبى . . بوجدانى **
** وأنت إلى الإله خطاك صاعدة **
** لمجد الله فى عز ورضوان **
** ولى أمل المحبة فيك تشفع لى **
** وأحظى فى جوارك بالشذا الحانى **
** بروحى أنت . . يا أسرار ألحانى **

* * *

« كما أن القلم كان قد توقف ، عند استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فى هجرته إلى المدينة المنورة إجلالا وتعظيماً . . حتى نطق الشعور بالشعر . . كذلك هنا فى موقف الوداع الأخير ، يأبى القلم أن يتحرك أمام رهبة ساعة حزينة بكل أحزان الدنيا . . حتى تحرك الشعور بالأبيات التى صدرنا بها هذا القسم »

فسبح بحمد ربك واستغفره

افتتحنا فصل السنة الحادية عشر للهجرة . . بالحديث الذى رواه (أبو مويهبة) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد جاء فيه بأنه عليه الصلاة والسلام اختار لقاء ربه . .

ولقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم — عندما نزلت سورة النصر — قال لجبريل عليه السلام : نعيت إلى نفسى . . فرد عليه جبريل : (وللآخرة خير لك من الأولى)

فإن سورة النصر تنتهى بقوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . . كان يتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا اليوم ، منذ ذلك اليوم .

روت السيدة عائشة – رضى الله عنها – قالت : ، رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعاً فى رأسى ، وأقول : وارأساه، فقال : بل أنا والله ياعائشة وارأساه ، ثم قال : وما ضرك لومت قبلى ، فقمت عليك وكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك ؟ قلت :له : والله لكأنى بك ، لو فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتى ، فأعرست فيه ببعض نسائك فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتام به وجعه ، وهو يدور على نسائه ، حتى استعز به (أى اشتد مرضه) وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى فأذن له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى بين رجلين من أهله : أحدهما الفضل بن العباس ، ورجل آخر (على بن أبى طالب) ، عاصباً رأسه ، تخط قدماه حتى دخل بيتى . .

وكانت شدة مرضه هذا قد بدأت مع أول شهر ربيع الأول ، وقيل فى آخر صفر ، لأن مدة مرضه كانت ثلاثة عشر يوما . . ابتدأت بيوم الأربعاء . .

قبل يوم الرحيل

لاشتداد المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحمى روى عن أبى سعيد الخدرى بأن على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قطيفة ، وتصيب الحمى من يضع عليه يده من فوقها ، فسألوه عن هذا ، فقال لهم : إنا معاشر الأنبياء كذلك يشدد علينا البلاء وتضاعف لنا الأجور . . ومن أثر لهب الحمى طلب (عليه الصلاة والسلام) أن يغمروه بالماء حتى قال : حسبكم حسبكم . . وروى عن الثقاة بأن آخر مرة خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منبره عاصب الرأس ، فصلى على شهداء أحد ، واستغفر لهم . . ثم قال :

(إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله) . . ففهم أبو بكر أن نفسه (عليه الصلاة والسلام) كان يعنى . . فاستعبرت عيناه وهو يقول : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، ثم عاد » (صلى الله عليه وسلم) قائلا : على رسلك يا أبا بكر . . وأشار إلى الناس وقال : انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد ، فسدوها إلا باب أبى بكر فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه ، وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده ، أيها الناس أنفذوا بعث أسامة فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقا بها ، يامعشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيرا ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيأتها لاتزيده ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم . .

هكذا استوفى الإمام الأعظم (عليه الصلاة والسلام) فى خطبته الأخيرة البليغة . . وحذر الناس أن لا يؤخروا بعث سرية أسامة بن زيد فى سريته التى عقدها له ، وكان قد بلغه أن البعض قد اعترض على قيادة أسامة لحداثة سنه — رضى الله عنه — فخرج بجيشه ، حيث عسكر به فى منطقة الجرف ، من ضواحى المدينة المتاخمة . . بينما يشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

يوم الفاجعة

بعد أن ثقل المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أن يصلى أبو بكر بالناس . . وتروى السيدة عائشة أنها قالت له : يانبى الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن . فأعاد عليها القول (صلى الله عليه وسلم) : مروه فليصل بالناس ، فلما كررت عليه قـولها ، ارتفع صوته وقال : (إنكن صواحب يوسف ، فمروه فليصل بالناس) . .

وقالت عائشة : فوالله ما أقـــول ذلك إلا لأنى كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر ، وعرفت أن الناس لايحبون رجلا قام مقامه أبدا ، وأن الناس سيتشاءمون فى كل حدث كان ، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر .

وقد روى أنه (صلى الله عليه وسلم) عندما أمر أن يصلى أبوبكر بالناس ، خرج (عبد الله بن زمعة) ليبلغه ، فلم يجد أمامه إلا عمر بن الخطاب ، فقال له: قم ياعمر فصل بالناس . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت عمر يكبر ، فإذا به يقول : فأين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون . . فذكر أنهم بحثوا عن أبى بكر حتى إذا جاء أعاد الصلاة التى صلاها عمر بالناس .

وفى فجر اليوم الأخير . . وكان يوم اثنين . . وبينما أبو بكر يستعد للصلاة بالناس ، خـــرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة ، عاصباً رأسه . . وقيل بأن أبا بكر كان قد بدأ الصلاة . . وفرح المسلمون بمقدمه (صلى الله عليه وسلم) ، فأفسحوا له يمر إلى مصلاه ، وقد جنب أبو بكر عنه يسيرا ، فأعاده بيده حيث كان يتم الصلاة ؛ وجلس بجواره (صلى الله عليه وسلم) يصلى إلى يمينه ، مؤتما به ، حتى إذا انتهت الصلاة اتجه إلى الناس يتحدث إليهم بآخر كلماته : (أيها الناس ، سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإنى والله ما تمسكون على بشئ ، إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا مـــا حرم القـــرآن) . .

وما أن توقف (صلى الله عليه وسلم) عن حديثه ، حتى قال أبو بكر : يانبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟ فأجابه : نعم . وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل إلى بيته . . بينما انصرف أبو بكر إلى أهله بالسنح (١) وقد قال أنس بن مالك عن ذلك

---

(١) السنح : موضع بعالية المدينة – لأبى بكر فيه مال ، وبه يسكن زوجه حبيبة ابنة خارجة بن زيد الخزرجى .

اليوم ، بدخول رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس وهم يصلون : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سروراً لما رأى من هيأتهم فى صلاتهم ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن هيئة منه فى تلك الساعة ، والناس يرونه قد أفاق (أى برئ) من وجعه . .

وعن اللحظات الأخيرة من حياة سيد العالمين وهو ينشد جوار رب العالمين جل جلاله . . روى عن السيدة عائشة أنها وصفت ما قد كان أمامها ، ورأس رسول الله صلى الله عليه وسلم – على حجرها – قالت : رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع فى حجرى ، فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت : أتحب أن أعطيك هذا السواك،؟ قال : نعم ، فأخذته فمضغته له حتى لينته ، ثم أعطيته إياه ، فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة . فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق . وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

كانت الساعة المفجعة ، فى ضحى اليوم ، وقد ضج الناس ، وأعولت النساء . . وما هى إلا لحظات ، وكان الخبر الحزين يحزن الدنيا ، قد انتشر فى أرجاء المدينة وضواحيها . .

بل الرفيق الأعلى من الجنة

أجل يا أعظم خلق الله . . يا أحب إليه من كل الناس . . أجل . . فكما قلت أنت . . إلى الرفيق الأعلى من الجنة . . فقد بلغت الأمانة . . وأديت الرسالة . . عليك صلاة الله وسلامه ، ما أصبح يوم ، وما أقبلت عتمة . . فأنت النور الذى تهتدى به أمتك . .

ويصل أبو بكر الصديق إلى المسجد . . والناس يتكلمون ، فيسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو مسجى — فى مكانه ببيت عائشة ، فكشف عن وجهه المنير الغطاء ، يقبله ثم يقول بحشرجة البكاء : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . ورد غطاء بردة والحبرة التى قيل بأنها من برد اليمن ، وخرج . . والناس يموجون فى المسجد وعمر بن الخطاب يصيح فيهم ، لذهوله بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : من قال إن محمدا قد مات قطعت عنقه . فأقبل عليه أبو بكر فى محاولة للتحدث معه . . فلا يجده ينصت إليه ، فيتجه إلى الناس يكلمهم بصوت عال : إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم تلا عليهم قول الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكــرين) . .

فقيل : والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ . . وروى أبو هريرة أن عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت (أى دهشت) حتى وقعت إلى الأرض ماتحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات . .

وفى ذلك اليوم الحزين بحزن الدنيا . . كان ذهول الناس متغايرا . . فكما رأينا حال عمر كان على بن أبى طالب ، قد جلس لايتحرك ، بينما عثمان بن عفان حبس لسانه عن الكلام . . وذكر أن الصحابى عبد الله بن أنيس ، فى حزنه قد مات من الكمد . . ولم يكن أثبت الناس يومها إلا الرجل الذى وضع الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ثقته ليصلى بالناس : أبوبكر ، وكان من تأييد الله له أن أمد بالصلابة فى ساعة الشدة تلك . . وليعده، لكى يخلف رسوله الأعظم (عليه الصلاة السلام) . . فى أكبر مهام الحياة . .

أما فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان حزنها شديدا على أبيها الذى كان لها كل شئ يهون عليها أمور الحياة ومتاعبها . .

وقد روى الإمام البخارى أنها قالت يوم وفاته عليه الصلاة والسلام : (يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه من إلى جبريل ننعاه) . . ولكن نفسها كانت مطمئنة لأنها ستكون أول من يلحق من أهله . . كما عرفت منه قبل رحيله (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى من الجنة . .

وفى اليوم الثانى (يوم الثلاثاء) الثالث عشر من ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة . . (بعد إتمام البيعة لأبى بكر الصديق) .. كان جثمان الحبيب صلى الله عليه وسلم يوارى فى مرقده الأخير ، برحمة من الله وبركات عليه إلى الأبد وقد حضر كل من العباس وابناه الفضل وقثم ، وعلى بن أبى طالب ، وأسامة بن زيــد وشقران للقيــام بغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم استأذن عليهم (أوس بن خولى) من بنى عوف بن الخزرج ، يحضر غسله . .

وقد اختلفوا فى مبدأ الأمر عن غسله فى ثيابه أو تجريده منها ، حتى ران عليهم ما يشبه النوم ، فسمعوا صوتاً يقول : اغسلوا النبى وعليه ثيابه . . وكان عليه قميص فقط ، فكان أسامة وشقران يصبان الماء عليه ، والآخرون يغسلونه بالدلك على جسمه من فوق القميص ، وعلى بن أبى طالب يسنده إلى صدره ويقول : (بأبى أنت وأمى ، ما أطيبك حيا وميتا) . . وكان الصحابى أوس جالساً يشهد الغسل فقــط . .

ثم كفنوه (صلى الله عليه وسلم) على قميصه ، بثلاثة أثواب لفت عليه . . ثم حمل إلى سريره للصلاة عليه . . وحفر له قبر مكان صعود روحه إلى الملا الأعلى، تحقيقا لما سمعه أبو بكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : (ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض) . .

وصلى المسلمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث هو ، وبغير إمام ،

بدءاً بالرجال جماعات جماعات ، ثم النساء ، ثم الصبيان . . صلى الله عليه وعلى لـــه وصحبه وسلم . .

وكان الليل قد انتصف ، عندما شرعوا فى دفن الحبيب عليه الصلاة والسلام . . وكان أن نزل القبر كل من على والفضل وقثم وأوس وشقران مولى الرسول، وهو يحمل قطيفته التى كان صلى الله عليه وسلم يلبسها ويفترشها . . وما أن وضعوا رسول الله مسجى فى قبره ، حتى ألقى شقران بالقطيفة عليه لتدفن معه قائلا : (والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا) . .

البيعة لأبى بكر

لم تمض ساعات على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى افتقد الناس إمامهم ، وراحوا يشعرون بالفراغ الهائل الذى تركه بينهم . . وقد لفتهم الحيرة والوجوم . . وفى صبيحة اليوم الثانى كان الأنصار قد انحازوا إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة ، فعلم أبو بكر وعمر بهم ، وقد تجمع حولهما المهاجرون ، وهم الكثرة وفيهم — أسيد بن حضير — بينما التزم على بن أبى طالب بيته مع فاطمة ، وقصدهما الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . .

وتفاوض فريق المهاجرين مـــع فريق الأنصار ، حتى تم الاقتناع بينهما — كما رواه لنا عمر بن الخطاب فى قوله يتم ما بدأ من تفاصيل — وقد قام خطيب الأنصار يتحدث : أما بعـــد : فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم . .

قال عمر : وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ، ويغصبونا الأمر ، فلما سكت أردت أن أتكلم ، وقد زورت[1] فى نفسى مقالة قد أعجبتنى ، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر وكنت أدارى منه بعض الحد ، فقال أبو بكر : عـــلى

---

(١) زورت هنا — بمعنى أعددت وهيأت .

رسلك ياعمر . فكرهت أن أغضبه ، فتكلم وهو كان أعلم منى وأوقر ، فوالله ماترك من كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته ، أو مثلها أو أفضل حتى سكت . .

قال أبو بكر : أما ما ذكرتم فيكم من خير ، فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر (أى الخلافة) إلا لهذا الحى من قريش ، هم أوسط العرب نسباً ودارا ، وقد رضيت لكم هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم . . وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح ، وهو جالس بيننا ، ولم أكره شيئا مما قاله غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقى فلا يقربنى ذلك إلى إثم ، أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر . .

وتكلم أحد الأنصار . . وقد كثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار . .

وبعد أن تم فى مساء ذلك اليوم ، دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . نام الناس ، وأبو بكر خليفة عنه عليهم . . وفى صباح الأربعاء ، صعد أبو بكر على منبره ، وسبقه عمر يتحدث إلى الناس قائلا — بعد أن حمد الله وأثنى عليه — : أيها الناس إنى كنت قلت لكم مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدير أمرنا ، يقول : يكون آخرنا وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه . فبايع الناس أبا بكر بيعة عامة ، بعد بيعة السقيفة . .

وقام أبو بكر يحمد الله ويثنى عليه ، ثم يخطب الناس قائلا :

أما بعد أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ؛ فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . .

وهكذا تمت البيعة لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخلفه فى هذا العبء الثقيل . .

وقد واجه أبو بكر الصديق أعباء خلافته ، بهمة الأبطال الصامدين على الحق . . وواجه أعنف الأحداث ، إذ ارتد بعض الناس عن الإسلام ، ومنع آخرون دفع الزكاة . . فكان ذلك الحاكم القوى الذى لايخشى فى الله لومة لائم . . وأشهر سيفه ، وجهز جنود المسلمين ، يقوم المعوج ، ويرد إلى الدين الحنيف هيبته وسلطاته

فقد روت السيدة عائشة قالت : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، حتى جمعهم الله على أبى بكر . .

ولقد كان فى مستوى المسئولية التى حملها البطل أبو بكر على عاتقه . رضوان الله تعالى عليه . .

الشعر فى الموكب الحزين

وكيف لايتحرك الشعور الكريم عند كل مسلم ، وقد روع الناس بأفدح خسارة ، لا ولن يعوضوها بحال . . خسارة هى أشد من المال والولد والآباء وأكبر . .

ولقد حفل التاريخ القديم مرورا بالعصور المتتالية . . إلى عصرنا الحديث ، بآلاف القصائد والنفثات ، فى رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتحدث بأمجاده وفضله . . واستذكاره فى كل مناسبات جهاده . . وجليل أعماله التى تتجدد كل يوم أمامنا ، رفى مسارات هذه الأمة الإسلامية ، عبر تاريخها الطويل .

ومن رثاء ذلك اليوم الحزين بحزن الدنيا ، ما قاله أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب – ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم – من قصيدة :

لقد عظمت مصيبتنـــا وجلت   عشية قيل قـــد قبض الرسول

وأضحت أرضنـــا مما عراها   تكـــاد بنا جوانبها تميـــل

إلى أن قال :

نبى كان يجلو الشك عنـــــا   بما يوحى إليه ومـــا يقـــول

ويهدينـــا فلا نخشى ضـــلالا   علينـــا والرسول لنـــا دليـــل

أما حسان بن ثابت ، فقد مست المأساة شعوره ، حتى فاض بالعديد مـــن القصائد . . ومن شعره نقتطف هذه الأبيات – وفى قافيات مختلفة – قال :

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة   عشية علـــوه الثرى لايوســـد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم   وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

يبكون من تبكى السماوات يومه   ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوما رزية هـــالك   رزية يوم مات فيـــه محمـــد

تالله ماحملت أنثى ولا وضعت   مثل الرسول نبى الأمة الهادى

ولا برى الله خلقاً من بريتـــه   أوفى بذمة جار أو بميعـــاد

وكذلك صفية – عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم – قالت عدة قصائد فى رثائه ، ومن إحداها – هذه الأبيات :

فـــدى لرسول الله أمى وخالتى   وعمى وخالى ثم نفسى ومـــاليا

فلو أن رب الناس أبقى نبينــا   سعدنا ولكن أمره كان ماضيا

عليك من الله السلام تحيـــة   وأدخلت جنات من العدن راضيا

ومن روائع ما حفل به التاريخ الشعرى ، أن أصبح مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم باباً ثابتاً فى هذا الميدان الذى تنتقى فيه الكلمة ، وتصور بها المشاعر أصدق ما فيها من حب وإجلال وتقدير ، ومن تقرب وآمال وإعزاز بالشخصية الفريدة فى هذا الكون . . رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الهادى والشفيع والأمل

ولقد قرأنا عبر الديوان العربى الكبير منذ القرن الأول للهجرة حتى عصرنا عشرات الدواوين فى المدائح النبــوية وتذكاراته (عليه الصلاة والسلام) وسيرته الشريفة . . فمثــلا : الشاعــر ابن الفارض ، والشيخ عبد الرحيم البرعى . . وغيرهما ممن أفاضوا بتلك المشاعر الكريمة . . ومن ديوان البرعى هذا البيت ، وكأن كل واحد يردده :

فما أنا فى الآثار أول قائـــل   سقاك ورواك الغمام وردا

ولعل أكبر عمل شعرى معاصر ، هو ماكتبه المرحوم أحمد محرم ، وأصدره باسم (مجد الإسلام) صور فيه السيرة كاملة في معظم أحداثها . . وأول بيت جاء بأول قصيدة (مطلع النور الأول) — يقول :

إملأ الأرض يا محمــد نــورا   واغمر الناس حكمة والدهورا

حجبتك الغيــوب سرا تجــلى   يكشف الحجب كلها والستورا

وشاعر آخر كتب (من إشراقات السيرة الزكية) هو عزيز أباظة . . صاغ فيها أكبر أحداث السيرة شعرا . . وفى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم نقتطف هذين البيتين :

سموا الصبي محمـــداً فلعلــه   تسنى المحامد فيــه والآلاء

لم يدر أن المهد يحمــل مــرسلا   الأنبيـــاء ببعثــه بشــراء

وهناك أيضا فى مصر شاعر آل البيت : محمود جبر ، وقبله أحمد شوقى . . وسواهما من الذين ذاعت أناشيدهـــم فى عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته ومولده . . ولن يفى أحد بحق نبى الهدى والرحمة – عليه صلوات الله وسلامه – ولكنها لهفة المشتاقين والمحبين . . بأمل الشفاعة من سيد المرسلين ، والرجاء المضىّ على سننه المقدس صلى الله عليه وآله وسلم . .

رجال من الدولة الأولى

(نقصد بهم هنا أولئك الذين عملوا كتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمناء وحراسا . . وسواهم – رضى الله عنهم) . .

ذكر أن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ستا وعشرين مـــن أفاضل الرجال وصحابته . . وكان أول من كتب له من قريش بمكة : عبد الله ابن سعد بن أبى سرح العامرى وقد ارتد عن الإسلام ، ثم عاد إليه وحسن إسلامه .

ومن كتابه : الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . وأبى بن كعب ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الأرقم ، وزيد بن ثابت ، وعامر بـــن فهيرة ، وثابت بن قيس ، والزبير بن العوام ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والعلاء بن الحضرمى ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى . .

وروى عن زيد بن ثابت أنه قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم السريانية وقال : (إنى لا آمن يهود على كتابى) . فما مر بى نصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيه ، فكنت أكتب له صلى الله عليه وسلم إليهم وأقرأ لـــه كتبهـــم . .

ومن أمناء رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل من عبد الرحمن بن عوف وأبى أسد ابن أسيد الساعدى ، كانا أمينين على نسائه . . بينما الصحابى معيقيب أمين على خاتمه الشريف . . وبلال بن رباح أمين على نفقاته . .

ومن حراسه (صلى الله عليه وسلم) قبل أن تنزل عليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) . . كان سعد بن معاذ حارسه فى ليلة غزوة بدر ، بينما أبو بكر قام بحراسته يوم هذه الغزوة . . وفى غزوة أحد قام على حراسته محمد بن مسلمة . . والزبير بن العوام فى يوم الخندق . . والمغيرة بن شعبة ، فى يوم الحديبية . . أما أبو أيوب الأنصارى ، فقد قام بحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة دخل بصفية فى طريق خيبر . . وقام بحراسته فى وادى القرى كل من سعد بن أبى وقاص ، وذكوان بن عبد قيس . . وفى ليلة غزوة حنين : ابن أبى مرثـــد الغنـــوى . .

والمؤذنون غير بلال بن رباح ، وابن أم مكتوم . . وهما بالمدينة . فقد كان يؤذن فى مسجد قباء : سعد بن القرظ — مولى عمار بن ياسر — كما كان مؤذن مكة : أبا محـــذورة . .

وعد كل من عبد العزيز بن الأصم وزياد بن الحارث الصدائى — من المؤذنين — لكونهما أذنا مرة واحدة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم على السوق فى المدينة : عمر بن الخطاب . . وعلى السوق فى مكة بعد الفتح : سعد بن سعيد بن العاصى . . وتسمى هـــذه الوظيفة (المحتسب) . .

ولا ننسى هنا أن نستذكر العشرة المبشرين بالجنة ، وقد توفى (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راض ، وهم صحابته : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد . . رضوان الله عليهم . .

أما الذين كانوا ينفذون حكم القصاص بالسيف أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم — مؤتمرين بأمره — فهم كل من : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، ومحمد بن مسلمة ، والمقداد ، وعاصم بن ثابت ، والضحاك بن سفيان — . . رضى الله عنهم . .

سلاح الرسول ودوابه

ذكر أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عديد من الأسلحة . . فأسيافه تسعة : نذكرها بأسمائها :

(مأثور) قيل بأنه من ميراث والده . .

(العضب) أهداه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر سعد بن عبادة .

(ذو الفقار) غنمه يوم بدر ، وكان للعاص بن وائل الذى قتل يومها . .

(الصمصامة) من أشهر سيوف العرب وكان لعمرو بن معد يكرب ، وجئ به لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأهداه إلى خالد بن سعد بن العاص عندما ولاه على اليمن . .

(القلعى ، والحيف) من غنائم أسلحة بنى قينقاع . .

(الرسوب) وهو من السيوف التى أهدتها الملكة بلقيس إلى النبى سليمان عليه السلام . .

(المخذم) هو والذى قبله كانا معلقين على صنم الغلس الذى هدم . .

(القضيب) ولم يشر أحد إلى مصدره . .

ومن أسلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبعة دروع ، وستة قسى ، وثلاثة حراب ، وثلاثة أقواس ، وله رمحان وخودتان . . وذكر أن إحدى الحراب كان قد جاء بها الزبير بن العوام من هدايا النجاشى ، وهى تشبه العكاز ، وشهد بها غزوات بدر وأحد وخيبر ، ثم أخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بلال يحملها بين يديه فى الأعياد ، وتوضع يصلى إليها حتى فى أسفاره ، ويمشى بها . .

وروى أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب من شوحط ، يسميه « الممشوق » ، وهو الذى ذكر أن الخلفاء كانوا يتداولونه . .

أما ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدواب . . فذكر أن له ثلاثة من الإبل للركوب ، وسبعة من الخيل ، وستة من البغال ، واثنان من الحمر . . كما ذكر أن من دوابه عدد من الماعز والشاء ، اختلف فى صحة أعدادها . . وهناك فى بعض كتب السيرة القديمة . . إيضاحات لأوصاف الأسلحة المختلفة وللدواب الركوب ، فمن أراد معرفتها ، عليه الرجوع إلى تلك الكتب ، ومن الله خير الجزاء . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .



القرآن .. معجزة النبى الخالدة

(بسم الله الرحمن الرحيم ، ياسين والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) . .

أكرم الله سبحانه وتعالى عباده . . فجعل فى خاتمة أديانه . . كتابا معجزا . يتلى بآيات بينات محكمات . . فيثاب عليها المؤمن بعدد حروفها . . ثم هو يتضمن أمور البشرية . . وهو رسالة الإسلام إلى الناس كافة . . وقد قال تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقـال : (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) . . ولنواصل فنقرأ منه وعنه . ما قاله تبارك وتعالى :

١ — (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا) . .

٢ — (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) . .

٣ — (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) . .

٤ — (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) . .

٥ — (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) . .

هذا هو الكتاب المعجز . . فى حكمته وأسراره فى جملة خصائصه وأحكامه . . فى شموليته للمنافع وتهذيبه للناس . .

ولقد سماه الله تعالى (القرآن) لاحتوائه على كل ما سبق من تعاليم أنزلها في كتبه السابقة . . ولأن لفظة القراءة ، تؤدى معنى ظهور ما فى الكتاب . . ودعاه تعالى : (الفرقان) لكونه يفصل بين الحق والباطل . .

وللقرآن أوصاف عدة . . فهو : الحق ، الذكر ، المجيد ، المبين ، العربى ، العزيز . . وكلها تبين عن سموه وجلاله . . أداء ومخبرا . . معنى وجوهرا . . بيانا وإعجازا فهو كما قال الله تعالى : .

١ ـ (وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـــد) . .

٢ ـ (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) . .

٣ ـ (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثـــيرا) . .

وهو ـ القرآن ـ كما أوضح الله سبحانه فى آيات أخرى :

١ ـ (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) .

٢ ـ (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) .

٣ ـ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وهو ـ القرآن كما وجه جل وعلا خطابه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فى قولـــــه :

١ ـ (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير) .

٢ ـ (وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) .

٣ — (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

٤ — (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى) .

٥ — (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) .

وهو — القرآن — كما خاطب الله عز وجل عباده يستهديهم به :
(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير فى تبيان فضل القرآن وإيضاح ما فيه من إعجاز ، وماله من كرامات وحسنات . . وما فيه من أحكام وشرائع . . ومن أقواله (صلى الله عليه وسلم) ببلاغته النبوية الموجزة ، مايلى :

١ — (اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) . .

٢ — (ما من شفيع أفضل منزلة عند الله من القرآن) . .

٣ — (إذا ختم العبد القرآن ، صلى عليه ستون ألف ملك) . والصلاة هنا هى الثناء .

٤ — (يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة : اقرأ واصعد ، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة ، حتى يقرأ آخر شئ معه).

٥ — (يا أهل القرآن ، لاتوسدوا القرآن (أى لاتناموا عن قراءته) واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار ، وأفشوه وتدبروا مافيه لعلكم تفلحون) ،.

٦ — فى حديث عن الإمام على بن أبى طالب قال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر مابعدكم وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم

هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد) ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) . .

منتهى القول الفصل ، عن أسرار القرآن وعن معجزاته الكبرى الباقية بقاء الحياة . . فليس قبله ولا بعــده من معجزة أعظم ولا أقدس . . وليس قبله ولا بعده من حكم وتشريع أوفى وأشمل وأفضل . .

وهناك فى أسفار المفسرين للقرآن الكريم إيضاحات وافية عن محكم آياته ، وجليل معجزاته . . وعن عظمة أسراره ومافيها من منافع عظمى لبنى الانسان . . ويكفى أن نذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى أن سورة (الفاتحة) هى (السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته) — كما قال . .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن القرآن يشتمل على مائة وأربعة عشر سورة ، وأن جملة حروفه : مليون وسبعة وعشرين ألف حرف . . وأن هذا العدد نفسه ، هو عدد درجات الجنة كما قاله صاحب كتاب (الفتوحات الإلهية) سليمان بن عمر العجيلى المتوفى سنة ١٢٠٤هـ

ولقد كان القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم خــلال ثلاث وعشرين سنة ، منذ ابتداء نزول الوحى وهو بمكة إلى أن هاجر وتوفى بالمدينة . .

وروى عن عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — قال : (نزل القــرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزل بعضه فى إثر بعض) . .

أما عن طريقة جمع القرآن وكتابته . . ثم القيام بنسخه وظهوره بالوضع الذى نراه عليه الآن . . فأول ماتم جمعه ، كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لرواية عن الشيخين : البخارى ومسلم ، نقلاها عن الصحابى أنس بن مالك ،

قال : (جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو يزيد — رضى الله عنهم — قيل لأنس : ومن أبو يزيد ؟ قال : أحد عمومتى ؟ . .

ثم فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق ، وقد قامت حروب الردة ، واستشهد الكثيرون من جنود الإسلام ، وفيهم حملة القرآن ، وخاصة فى موقعة اليمامة التى قيل بأنه استشهد فيها من الحفاظ للقرآن الكريم نحو خمسين صحابيا . . مما روع له الكثيرون ، وهب عمر بن الخطاب يستنجد بأبى بكر قائلا : (إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن) . . وكان جواب أبى بكر أنه كيف يفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . . غير أنه بمراجعة عمر له اقتنع وشرح الله صدره لذلك . . فاستدعى زيد بن ثابت أمام عمر وقال له : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه . .

وكان من زيد نفس ما كان من أبى بكر ، حتى شرح الله صدره واستجاب لهذه الأمانة الكبرى . . يعاونه عمر بن الخطاب وسالم — مولى أبى حذيفة — ويقوم زيد بالكتابة والتدوين . . وقد اجتمع عنده ما كان مكتوبا عليه القرآن من الجلد والحجارة الرقيقة وجريد النخل وغيرها . . وصار يتتبع مافى صدور الناس ، حتى أنجز مهمته ، خلال عام كامل . . وأصبحت صحفا متكاملة للقرآن . واحتفظ أبو بكر بهذه الصحف ، ثم انتقلت إلى خليفته عمر بن الخطاب ، وعند وفاته أودعها عند أخته أم المؤمنين (حفصة) التى قيل عنها بأنها كانت حافظة للقرآن مجيدة لترتيله . .

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان — والفتوحات الإسلامية لازالت فى امتدادها — وقد حدثت اختلافات بينة فى طرق ترتيل القرآن ، وتعددت اللهجات

حتى سمعنا القائد حذيفة بن اليمان ، وكان يغزو بلدان ما وراء الخليج العربى مع جند من العراق والشام يذكر لسعيد بن العاص : (لقد رأيت فى سفرتى هذه أمراً عجبا ، لئن ترك الناس ليختلفن فى القرآن ثم لايقومون عليه أبدا) . .

وبلغ هذا الخليفة عثمان ، وشعر كغيره بخطورة قد لاتحمد عقباها . . فاجتمع لديه رجال المشورة ليتحدث إليهم قائلا : (ماترون فى المصاحف ، فإن الناس قد اختلفوا حتى أن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه بالكفر) . .

وبعد النقاش ، استقر الرأى على كتابة المصحف ككتاب موحد . . واستلموا الصحف التى كانت محفوظة عند (حفصة) ابنة عمر رضى الله عنهما . .

وأشار الخليفة عثمان إلى كل من : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ليكتبوا المصاحف ، وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوا لغة مضر ، فإن القرآن نزل على رجل من مضر . .

بقى أن نذكر بأن إعجاز القرآن وأسراره . . احتاجت إلى مفسرين يوضحون ويشرحون . . إذ بقيت فيه من آيات الإعجاز مالا يعلم كنهها إلا الله تعالى ، وقد سكت النبى صلى الله عليه وسلم عما علمه من أمرها . .

فرأينا مثلا تفسيرا لابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنه . . ثم ظهرت فيما بعد تفاسير أخرى لابن كثير وللزمخشرى . . ولغيرهما من رجالات العلم والتاريخ والبيان . . كما ظهرت مؤلفات أخرى تعنى خاصة (بإعجاز القرآن) كما فعله عبد القاهر الجرجانى المتوفى فى سنة ٤٧١هـ — فى مؤلفاته الثلاثة عن البلاغة والذى اختص (إعجاز القرآ ن) بأحدها . . ثم بنفس هذا الاسم كتب أديب معاصر مؤلفا يعتبر أبدع ما كتب وأجل هو (مصطفى صادق الرافعى) [1]

---

(١) الرافعى ، وأحمد محرم ، ، وعزيز أباظة وأحمد شوقى — من أعلام الشعر والأدب فى القرن الرابع عشر الهجرى .

وعن علوم القرآن — كتب كذلك كثيرون — منهم الإمام بدر الدين محمد ابن عبد الله الزركشي ، وسمى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) ، ثم جلال الدين السيوطى الذى كتب مؤلفا بعنوان : (الإتقان فى علوم القرآن) ، وهـــو من مواليد مصر عام ٨٤٩ للهجرة . .

ومن ألطف ما ورد ، ونحن بصدد البحث هذا . . ننقل هذه العبارة مـــن كتاب (إعجاز القرآن) لمصطفى صادق الرافعى قال :

(وفى القرآن مظهر غريب لإعجازه المستمر ، لا يحتاج فى تعرفه إلى روية ولا إعنات ، وماهو إلا أن يراه من اعترض شيئا من أساليب الناس حتى يقع فى نفسه معنى إعجازه ، لأنه أمر يغلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه ، كالصوت المطرب البالغ فى التطريب ، لايحتاج امرؤ فى معرفته وتمييزه إلى أكثر من سماعه . . ذلك وجه تركيبه ، أو هـــو أسلوبه ، فإنه مباين بنفسه لكل ماعرف أساليب البلغاء فى ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم ، على أنه يواتى بعضه بعضا ، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى فى النظم والطريقة ، عـــلى اختلاف وتباين الأغراض ، سواء فى ذلك ماكان مبتدأ به من معانيه وأخباره ، وما كان متكرراً فيه . فكأنه قطعة واحدة ، على ما أنت واجده فى كلام كل بليغ ، من التفاوت باختلاف الوجوه التى يصرف إليها) . .

ذلك كلام بلا شك ينظر من قريب إلى قول الله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولـــو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . .

وتحديا لكل من يتوهم أنه يأتى بشئ من مثل هذا القرآن ، نقول ما قاله سبحانه وتعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثلـــه وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . .

وخاتمة لهذا الفصل ، نستذكر آية من آيات التشريع ، وكل ما فى القرآن

هدى وتبصرة للناس ، وقد تضمن أحكام العبادات . . والآداب وأصول المعاملات قال تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) . .

ولقد بشر الله تعالى بأن يسود دين القرآن فقال تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . .

وليس أعظم من هذا إعجازاً يتجدد بآيات الله البينات . . قرآنا يتلى ، ودستوراً ينظم الحياة ، وعلما ينتفع به فى كل شئ لخيرى الدنيا والآخرة . .

* * *

نبى الهدى والرحمة

من آدابه وذكرياته وتعاليمه

الذكريات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآدابه وتعاليمه . . وحتى مزاحه .. كلها تنبع من فيض نبوته .. مذكراً وبشيراً ونذيراً .. لتصلح بها أحوال الناس . . ويبصروا على ضوئها سبل الخير والطمأنينة . . ويجدوا فى هديها فلاح النفوس . . ونور الضمائر . . إنها الهدى . . من نبى الهدى . . وإنها الرحمة . . من نبى الرحمة . . عليه الصلاة والسلام . .

ولقد دعا صحابته إلى هذه الرحمة ، وهو يوضح لهم مكانتها من الدين . . فإذا بعضهم يقول : إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا . فيرد عليهم : ما هذا أريد إنما أريد الرحمة العامة . .

أى رحمة تشمل كل الناس . . وتنتشر عبر كل طريق . . ليكونوا ميزان عدالة . . كأسنان المشط ، ليكونوا تلك القوة المتضامنة ، وذلك الكيان المتماسك

هاهو (صلى الله عليه وسلم) يقول : (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه) . .

فيا لهذه الر حمة النابعة من الإيمان ، وقد قال هو : (إنما أنا رحمة مهداة)

ومن بركاته (صلى الله عليه وسلم) نستذكر ما رواه عبد الله بن الزبير عن جابر قال : إن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستطعمه ، فأطعمه شطر وسق شعير ، فما زال الرجل يأكل وزوجه منه وضيفهما حتى (كاله) . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم) — أي دام لهم

ومن عطفه (صلى الله عليه وسلم) بأمته أن خصت به الشفاعة . . وقد روى عن أبي هريرة أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعـوته ، وإني اختبأت الشفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لايشرك بالله شيئا) . .

وعن الشفاعة — نستذكر ماروى عن الصحابي عثمان بن حنيف قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل ضرير ، فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال : يارسول الله ليس لي قائد وقد شق علي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إئت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ، ثم قل : (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يامحمد إني أتوجه بك إلى ربي فينجلي بصري ، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي) . .

وأخبر عثمان : فوالله ما تفرقنا ، ولاطال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضر قط). .

ولرسول الله صلى الله عليـــه وسلم معجـــزات لا تحصى . . فلقـــد عرفنا منها في تكثير الطعام والماء ، ثم في حصول الشفاء بلمسة من يده ، واستجابة أدعيته . . وغيرها . . وكلها من خاصياته النبويـــة — عليه الصلاة والسلام — إلى جانب كون الصلاة عليه مما يتقرب به في الدعاء إلى الله تعالى ، ومما تنال بـــها

الحسنات وتتحقق بسببها الأماني . . ورحم الله القائل عن هدى رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم :

لو لم يقل إنـــي رسول لكـــا ن شاهـــد في هـــديه ينطـــق

ومن هداه صلى الله عليه وسلم أمره بالتداوى من الأمراض ، وقد كان يقول : (لكل داء دواء ، فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل) ..

فهو كان يوصى بالحمية فى الطعام ، كما أوصى خاصة باستعمال عسل النحل فى كثير من الأمراض . . وثبتت صحة فائدة العسل الكبيرة فى كل ما استعمل فيه

وهذا تصديق لما جاء فى القرآن الكريم فقال تعالى عن النحل : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) . .

ونقل المحدثون والرواة أحاديث عـــدة فى إرشادات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منافع أنواع من الأغذية والبهارات ، كالحلبة وا لحبة السوداء ، للمحافظة على البدن السليم ، ولمعالجة كثير مـــن العلل الجسمية والنفسية ، وذلك بالإضافة إلى الاستعانة دائما بآيات معينة من القرآن ، وخواص تلاواتها وتكرارها ففيه شفاء ورحمة . .

ومن لطيف ماورد فى ضرورة إحكام الغطاء على الآنية للمأكل والمشرب ، قوله صلى الله عليه وسلم : (غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لايمر بإناء ليس عليه غطاء ، وسقاء ليس عليه وكاء إلا وقع فيه من ذلك الداء).

وكان عليه الصلاة والسلام يوصى بالتطيب ، والسواك ، وفى هذا له حكمة أجملها فى قوله : (أربع من سنن المرسلين : النكاح ، والسواك ، والتعطر ، والحنـــاء)[1] . .

---

(١) للحناء وغيرها من كثير من البقول حواص جيدة فى عديد من الأمراض . . وقـــد ألف كتاب كثيرون عن (الطب النبوى) ، وجمعوا كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وبالمناسبة : فلنا تحقيق لكتاب (الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية) للحموى ، ونشره الحلبى بمصر عام ١٣٧٤هـ .

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن أى النساء خير ؟ فقال : (التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولاتخالف فيما يكره فى نفسها) ..

وهناك إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نــوع من الكفر بين المسلمين ، وذلك فى قوله : (كفر بالله العظيم عشرة من هذه الأمة : القاتل ، والساحر ، والديوث ، وناكح المرأة فى دبرها ، ومانع الزكاة ، ومن وجد سعة فمات ولم يحج ، وشارب الخمر ، والساعى فى الفتن ، وبائع السلاح من أهــل الحرب ، ومن نكح ذات محرم منه) . .

إنه (صلى الله عليه وسلم) يحذر أن يرتكب مثل هذه الأمور ناس من أمته ، لئلا يكفروا . . وهو أيضا كان قد أشار بأصبعيه المتقاربتين عن أنه بعث وقيام الساعة (كهاتين) ، ثم حدد وقال فى حديث آخر صلى الله عليه وسلم :

(ست من أشراط الساعة : موتى ، وفتح بيت المقدس . وموت يأخذ فى الناس كقصاص الغنم ، وفتنة يدخل حريمها بيت كل مسلم ، وأن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها ، وأن يغزو الروم فيسيرون إليهم بثمانين بندا تحت كل بنــد اثنا عشر ألفا) . وهذه أشراط قد وقعت ، والناس لاهون لايرعوون ، والله يهدى من يشاء إلى الحق . . ويذكرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سيكون عليــه الزمان من بعده ، فيقول : (خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) . .

كذلك من هذه الأحاديث الصحاح ، أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنفين من أهل النار لم يرهما بعد . .

(قــوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لايدخلن الجنة ولايجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) . .

ولكنه (عليه الصلاة والسلام) يأمل فى العلماء لإصلاح الناس وتوجيههم ، فقال عن هذا : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمـــر دينها) . .

ومن توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا ، فيما يعود علينا بالأجر الأكبر عند خالقنا سبحانه قوله : (ست خصال من الخير : جهاد أعداء الله بالسيف والصوم فى يوم الصيف ، وحسن الصبر عند المصيبة ، وترك المراء وأنت محق ، وتبكير الصلاة فى يوم غيم ، وحسن الوضوء فى أيام الشتاء) . .

كل هذه من حسن آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة والمعلم . . والحريص على إسعاد أمته وزيادة الفضل فيها . . وتنمية روح الإخلاص وصدق التعامل بين جموعها .

وإننا لاننسى ماكان يفعله من تكريم وإحسان إلى الوفود التى كانت تفد عليه تعلن إيمانها برسالة الإسلام . . فما كان ليترك وفداً إلا بعد أن يجود عليهم بنواله ، كل حسب حالته الاجتماعية ، وذوى الحاجات فيهم . . كحاكم يعرف كيف يرضى رعاياه ويتألفهم . .

كما لاننسى إشادته بمواقف البطولة فيهم ، وفى ولاء صحابته الذين لازموه وافتدوه بالنفس والنفيس . . حتى لقد حفلت كتب الحديث بالعديد من أقواله (صلى الله عليه وسلم) فيهم وفى أفضالهم وعزة شأنهم ، كرواد حملوا الأمانة بعده ، فكانوا فى مستوى المسئولية التى تركها لهم . . فهم تلاميذ مدرسة النبوة الطاهرة ، وخلفاؤه الأبرار رضى الله عنهم .

وفى مجال الذكرى الحبيبة ، لايفوتنا أن نستأنس ببعض ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره عن آله الذين يرى فيهم خاصة أهله . . والذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة — فقال تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) . . فكان صلى الله عليه وسلم — يشتمل ابنته فاطمة وزوجها على وابنيهما الحسن والحسين ويقول : هؤلاء أهل بيتى . .

وقد ورد بأن أهل بيته (صلى الله عليه وسلم) هم من حرم الصدقة بعده رفعة وتكريما : آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس — رضوان الله عليهم أجمعين . .

وفى مجال نصائح رسول الله صلى الله عليه وسلم — لأمته قوله : (لاحول ولاقوة إلا بالله ، دواء من تسعة وتسعين داء ، أيسرها الهم) . .

وفى صحة النـــوم قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : (اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت) واجعلهن آخر كلامك ، فإن مت من ليلتك مت على الفطرة » . .

إنه الهدى من الهادى القائل : (من دل على خير ، فله مثل أجر فاعله) . . عليه صلاة الله وسلامه . .

وكانت السيدة عائشة — رضى الله عنها — تشتد بها الغيرة ، فى بعض الوقت وقد روت بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : أغرت ؟ قالت: وما لمثلى لايغار على مثلك . فقال لها : لقد جاءك شيطانك . قالت : أمعى شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا ومعه شيطان . قالت : ومعك (قال : نعم ، ولكن أعاننى الله عليه فأسلم . .

وروى الإمام البخارى عن (الربيع بنت معوذ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة غداة بنى بها وعندها جويريات يضربن بالدف يندبن من آبائهم ، حتى قالت جارية : (وفينا نبى يعلم ما فى غد) ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : لاتقولى هكذا وقولى ما كنت تقولين .

وعلى ذكر الدف . . روى عن أبى هريرة قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه ، فلما رجع جاءت جارية سوداء فقالت : يارسول الله إنى كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف . فقال لها : إن كنت نذرت فاضربى . فدخل أبو بكر ، وهى تضرب ، ثم دخل عمر ، فألقت الدف

تحتها وقعدت عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ليفرق منك ياعمر ، إنى كنت جالساً وهى تضرب ، ودخل أبو بكر وهى تضرب ، فلما دخلت أنت ألقت بالدف . .

وهذا معناه إذا كان الشيطان يخاف من عمر ، فما بالك بامرأة ضعيفة العقل .

وعن الجهاد والحض عليه . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (غزوة فى البحر خير من عشر غزوات فى البر ، ومن جاز البحر فكأنما جاز الأودية كلها ، والمائد فيه كالمتشحط فى دمه) . . ومعنى المائد : الذى يصاب بالدوار والقىء .

وروى عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، ومنبله (أى الممد به) فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو كفرها » . .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكبائر فقال : (الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس) . . والغموس : الكاذبة المتعمدة .

وعن البر بالأم ، روى عن الصحابى معاوية بن جاهمة السلمى قال :أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك أحية أمك ؟ قلت : نعم . قال : ارجع فبرها . فأتيته من الجانب الآخر ، فقال لى مثل ذلك ، ثم أتيته من أمام فأعدت عليه ماقلت . فقال : ويحك الزم رجليها فثم الجنة — وفى رواية : (فالزمها فإن الجنة تحت قدميها) . .

ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومه المؤمنين . . نختار هـــذه الطائفة الموجزة منها . . .قطرات من بحر بلاغته وهديه :

١ — اجتنبوا الموبقات السبع : الشرك بالله ، والسحر ، وقتـــل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . . ومعنى الموبقات : المهلكات .

٢ — كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين ، فجالسوا العلماء واسمعوا علماً يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى .

٣ — اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم .

٤ — أدبوا أولادكم على ثلاثة خصال : حب نبيكم ، وحب أهل بيته ، وقراءة القرآن ، فإن حملة القرآن فى ظل الله يوم لاظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه

٥ — إن الحياء والإيمان قرنا جميعا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر .

٦ — إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

٧ — إياكم والبطنة فى الطعام والشراب ، فإنها مفسدة للجسم تورث السقم عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد وأبعد من السرف .

٨ — والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عذابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم .

٩ — طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهـــدى ، تنجلى عنهم كـــل فتنة ظلمـــاء .

— خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباد الله ، المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة .

وصدق رسول الله صادق الوعد الأمين . . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمع ، فرب حامل فقه ، إلى من هو أفقه منه ، ورب مبلغ هو أوعى من سامع) .

وقد روى عن السيدة عائشة — رضى الله عنها — قالت : (ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ، مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم بها لله) . .

وهكذا كما رأينا ، فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها دروس مستفادة ، وعبر تحتذى . . وتوجيهات إلى الخير وإلى الأفضل فى حياة الناس ، وتوعيتهم لصالح شأنهم . . فهو صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة . . وقد أكمل الله خلْقَه وخلُقَه . . وحق له أن يقول :

(مثلى ومثل الأنبياء قبلى ، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين) . .

ومن أدعيته — وهو متجه إلى ربه تعالى — وفى كل آن يتجه إليه ويستهديه . . هذا الدعاء : (اللهم أرنى الحق حقا وألهمنى اتباعه ، وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ، وأعذنى من أن يشتبه على فأتبع هواى بغير هدى منك ، واجعل هواى تبعا لطاعتك ، وخذ رضاء نفسك من نفسى فى عافية ، واهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) . .

ولقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم التضرع الدائم إلى الله تعالى . . وهو قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر . . ولكنه كان يكثر الاستغفار ويحض عليه . . ويعلم صحبه مايجب من الدعاء . . ويحث المؤمنين على ذلك ليكونوا أقرب إلى الله دائمــا . .

ومن توجيهاته صلى الله عليه وسلم للمسلم ، وهو يحثه على الطاعة ، ليصل حبله بربه مكونه وهاديه يقول له :

(احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت ، فاستعن بالله ، واعلم أن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف) . .

هذا الهدى النبوى . . يتدرج بنا إلى لون آخر من هداه عليه الصلاة والسلام . . فى أحاديثه القدسية . . أى التى ينقلها عن ربه جل فى علاه وتقدست أسماؤه . فى حديث عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : (أنا عند ظن عبدى بـــى ، وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن دكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم ، وإن تقرب منى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة) . .

وفى فضل السخاء والعطاء مع حسن الخلق . . وارتباطهما بعقيدة الإسلام . . روى عن جابر بن عبد الله — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : (إن هذا دين ارتضيته لنفسى لن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهمـــا ماصحبتمـــوه) . .

وفى حديث آخر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهـــاره فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب . ذلك نوره كنور الشمس أكلوه بعزتى واستحفظه ملائكتى ، أجعل له نورا فى الظلمة ، وفى الجهالة علماً ، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة) . .

وعندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ، لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا) . . قال أيضا عن ربه : (يقول الله تبارك وتعالى : وجبت محبتى للمتاحبين فى ، والمتجالسين فى، والمتزاورين فى) .

تلك هى نفحات من تعاليم سيدنا وإمامنا صلى الله عليه وسلم ومن آدابه وذكرياته العطرة التى لا تنتهى عبر الحقب والأزمان ، وهى تمدنا بالنور والهدى . . بالمحبة والإيمان . .



محمد في التاريخ

** قال الله تعالى — مخاطبا رسوله الكريم :

(فتوكل على الله إنك على الحق المبين) . .

وهل التاريخ إلا هو . . محمد بن عبد الله . . خاتم الرسل والأنبياء عليه وعليهم السلام . . وقد أخبره الله سبحانه عنهم فقال : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) . .

والكتاب الذى أنزل عليه : (القرآن) . . خاتمة الكتب والرسالات . . قال (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) . .

لقد كان هو بداية لتاريخ حياة أفضل . . وفي وجود أكرم . . وأمته : خير أمة أخرجت للناس . .

أمة القرآن هي أمة الإسلام . . أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه . . وقد قال الله تعالى عنه وعنها : : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون)

وعلى لسان النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم لأمته أيضا ، قال تعالى عن القرآن: (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) . .

مشيئة الله الخالق سبحانه . . مبدع الكون . . وهو قد أراد أن يبتدئ الإسلام بملة إبراهيم الخليل عليه السلام . . فقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) . .

وسلك النبيون من بعد إبراهيم الخليل عليهم السلام يدعون إلى التوحيد إلى الإسلام ، وهم يدعون إلى الإسلام ، ويبشرون بخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم حتى نزل الإنجيل على النبي عيسى ابن مريم عليه السلام ووردت فيه العديد من آيات البشرى . . ومن أسف أن الإنجيل الذى أنزل الله كلماته على عيسى ، قد ثبت أنه رفع معه ، وأن مابقى منه هو ما كان محفوظا عند حوارى عيسى عليه السلام والذين تصرفوا فى كتاباتهم بالنقص والإضافة . . ثم بعد أن كانت الأناجيل خمسة ، قيل بأن عددا آخر من القسس والمسيحيين كتبوا أيضا أناجيل حتى وصل عددها اثنين وعشرين إنجيلا ، ثم كتب غيرها حتى بلغت ٧٥ إنجيلا ، نشرت فى منتصف هذا القرن . . وفيها من الأكاذيب والاختلافات . . بين بعضها البعض مما يؤكد حتما بطلانها ، كما كتبه أحد علماء المسيحية المعاصرين وانتقد هذه الأناجيل المزيفة . .

وبقى القرآن المجيد ، أمينا على التاريخ بإرادة الله فى حفظه ، وقد صور فى مبدأ الأمر الحاجة الملحة إلى حتمية التغيير ، فى قوله تعالى : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) ..

وفيه نقرأ هذا التوجيه الإلهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين) . . إلى أن قال تعالى : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) . .

المؤمنون الذين تفتحت قلوبهم للحق ولوحدانية الله تعالى . . فتركوا كل ما كان من أعمال الجهالة وضلالات الوثنية . . وانتقل بهم الإسلام رسول الإسلام الهادى عليه الصلاة والسلام إلى خلق تاريخ جديد للبشرية . . كان بحق ، هو بداية الإنسان الذى بلغ أرفع مستويات الفكر العقائدى ، واستطاع التجاوب مع دعوة

الوحدانية لله الأحد . . حتى تغيرت مفاهيم وعقليات أمة عريقة ، خلال أقل من ربع قرن . . وانتقلت من ضياع العصور والماديات ومن متاهات الأزمان والآلهة إلى حقيقة الوجود البهى ، وإلى وضوح الحياة ونورانيتها . . بعثاً جديدا لتاريخ بدأ مع الإسلام . . وقد صنعه المبعوث إلى الناس كافة محمد صلى الله عليه وسلم . .

ولنستمع إلى مانقل عن السيد المسيح عليه السلام فى أصح الأناجيل (برنابا) . . هذه العبارات المركزة :

(أجاب يسوع : أنه فى الأنبياء مكتوب أمثال كثيرة لايجب أن نأخذها بالحروف بل بالمعنى ، لأن كل الأنبياء البالغين مائة وأربعة وأربعين ألفا الذين أرسلهم الله إلى العالم قد تكلموا بالمعميات بظلام ، ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الأنبياء والأطهار فيشرق نور على ظلمات سائر الأنبياء ، لأنه رسول الله) ..

وعيسى إنما يعنى الحقيقة ، فلم يأت بعده سوى محمد الخاتم عليه الصلاة والسلام . ولقد كان إنسان ماقبل الإسلام . . قد شده وروعته دعـــوة التوحيد الجديدة ، فإذا فى أسلوب الجاهلية — كما يصوره القرآن — تعبير عن ثورتها العارمة تجاه منطق التاريخ الذى جاء للدنيا بأجل وأكمل معانى الحياة . . فقال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) . .

وبلسان أولئك قال تعالى : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل الذكر عليه من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) . .

ولكن واقع الحركة الدينية آنذاك . . أخذ يستقطب كل ذلك التحدى . . وتلين الأفئدة وتستنير نفوس الكثيرين بمشيئة الله وبوعيها . . فقال سبحانه : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره

ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون) . .

ويواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الجموع المسلمة ، بتوجيه من الله تعالى ليقول لهم : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين) . .

ثم يقول لهم من كلام الله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) . .

ويوضح سبحانه وتعالى موقفاً كهذا من جانب آخر فى أول سورة البينة : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة) . .

بعد ذلك يجيء نداء الله تعالى صريحا : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . .

(أتقاكم) . . وليس غير التقوى . . لاصاحب ثراء . . ولا ذو حسب ولا نسب . . ولا ذو جاه أو سلطان . . ولا متفلسف أو عالم لاديني . . ولادعى زائف المجد . . أو مؤسس مذاهب ملحدة . . أو ماشابه هؤلاء من أصحاب السفسطات . .

(أتقاكم) . . إنسان التاريخ الإسلامى الذى أصبح يغذى الكون بمثاليات لم تكن من قبل . . فإذا أصحاب هذه المثاليات ، يعايشون دنياهم الفاضلة ، فى الوقت الذى يحلمون فيه بآخرتهم الكريمة التى قال عنها الله تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) . .

أجل . . فهم المتقون ، هم الكرام ذوو التقوى الذين ابتدأ بهم الزمن منذ قرابة أربعة عشر قرنا . . كتاريخ طليعى لأعظم حركة عرفها بنو الإنسان . . نقلتهم

من سدم الأحقاب السحيقة ، إلى حياة الإيمان الخالدة . . فإذا هم كما عناهم الله تعالى : ((وجعلناهم أمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يتقون) . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) . . هكذا يريدهم أمـــة كاملة فى مستوى عقيدة الإسلام . .

ولقد تمت معجزة القرآن . . وانتصر الإسلام . . وحقق إرادة الله . . فكانت به خير أمة على الأرض . . تصنع حضارة الرقى الفكرى والسمو الروحى . . وتنشئ أجيال الإيمان يحققون أعظم تقدم للبشرية . . علماً وخلقا وصناعة . . عملا وتصميما واختراعا . وتمت كلمة ربنا سبحانه : (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) . .

إنها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حامل رداء الحمد . . ورافع لواء المجد

ولقد شغل سيد هذه الأمة صلى الله عليه وسلم وشغلت رسالته كل مفكر وعالم جاء بعده . . كل فيلسوف وكاتب . . كل شاعر وأديب . . كل صاحب ذهن ووعى وتفكير . . حتى ظهرت طلائع الفكر الإسلامى فى الفقه والحديث والسيرة . . وفيما سواها . . كما ظهرت الفلسفة الإسلامية . وثبت على المحجة البيضاء كل ذى عقل سليم . . وضل الأقلون فى شكوكهم وتشيعهم . وطلت أمام العقل الإسلامى الحجج والبراهين لدحض كل خروج على النهج القويم لرسالة التوحيد . . كما أرساها الإسلام فى أول ظهوره . .

ولقد امتد تيار الثقافة العربية مع الحضارة الإسلامية إلى أنحاء شاسعة واسعة ، حتى ما وراء النهرين شرقا وإلى الأندلس غربا . . وتركت بصماتها على كل الحضارات التى جاءت بعـــدها . بمعنى أن ما حققته النهضات الأوربية ، كان أساسه الفكر العربى والوعى الإسلامى . . هذه هى الحقيقة لخير أمة أخرجت للناس.

ومرورا بالزمن منذ عام الهجرة الأول . . وحتى عصرنا اليوم . . وإلى عصور ستتلو عصوراً . . فسيبقى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حياة الحياة . . ونبض المشاعر . . والمصدر الملهم الأول عند كل صاحب فكر ووجدان . .

ولقد كتب العلماء والأدباء المسلمون العدد الكبير من الأسفار فى حياة نبى الإسلام وهادى الأنام عليه الصلاة والسلام . .

حتى غير المسلمين ، رأينا فيهم من دبج المقالات ومن أخرج المؤلفات فى هذه الشخصية الفريدة المتكاملة عليه الصلاة والسلام . . ولنقرأ شيئا من إنتاجهم المترجم وهوثر واضح . . ودعنا ممن ضل أو جمح به القلم والحس من مستشرقين ومن غيرهم الذين يزيفون الحقائــق . . فهم فى ريبهم يترددون ولن يغيروا بهواجسهم الضالة شيئاً من حقائق راسخة بالإيمان العميق الذى لن يحول ولن يزول .

ولنقرأ من أقلام كتبت الصدق فى أوائل هذا القرن . .

فكاتب مثل (كارليل) وضع كتاب (الأبطال) [1] ، وتحدث بإفاصة عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وعاب على الذين يكذبون به . . فقال : (لقد أصبح من العار على فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائة مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا . . وما الرسالة التى جاء بها إلا حق صراح . . ولقد رأيناه طوال حياته رجلا راسخ

---

(١) من الكتب التي صدرت باللغــةالانجليزية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب (اعتذار من محمد والقرآن)بقلم جون ديون سنة ١٨٧٠ م ، وفيــه قال : (لاريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين والدين سنوا السنن من يعرف النــاس حياته وأحواله بأكثر تفصيــلاوأشمل بيانا مما يعرفون عن سيرة محمد وأحواله) عليه الصلاه والسلام .

المبدأ صارم العزم بعيدا الهمة باراً رءوفا تقياً فاضلا حراً . . إنى لأعرف عنه أنه كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب فضل وإخلاص وحكمة ، ولا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، وهكذا يكون الكلام) . .

وكاتب آخر هو تولستوى . . ألف كتابا عن (حكم النبى محمد) وفيه يقول بتقريرية معروفة : (إن محمدا هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التى يدين بها الملايين من البشر فى جميع جهات الكرة الأرضية) . .

ونحوا من هذه التقريرية قال كاتب يسمى (سنكس) : (ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة ، وكانت مهمته فى رسالته ، ترقية العقول البشرية بإيتائهاأ صول الأخلاق الأولية وإيصالها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة)

وكثيرون آخرون كتبوا وأفاضوا . . أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم إعجابهم ، وأكبروا رسالته ، وأدهشتهم بلاغته وعظمته فى التاريخ . .

وما ظنك بأدباء الإسلام وعلمائه ومفكريه وشعرائه . . فمنهم لم يأت صاحب قلم إلا وكتب كتابا أو قصيدة أو بحثا أو ديوان شعر كامل . . عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يشيدون بمفاخره ، ويؤرخون حياته ، ويستذكرون أمجاداً أوجدها لم يصنع مثلها أحد . وهو له كل الفضل فى إقامة الدولة الإسلامية الأولى بدعامات لن تزول ، وببطولات لن تبيد . . إنه صلى الله عليه وسلم وبكل الفخر . . قد أوجد التاريخ ، فمنه ابتدأ . .

* * *

والآن . . لنجنح إلى صورة أخرى من الصور العديدة لحياة (نبى الهدى والرحمة) عليه الصلاة والسلام رجاء أن نختتم بها كتابنا هذا . .

فلقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان كما يعجب بكل شىء جميل ،

ويستحسن كل فن سام . . فإنه كان يعجب بالشعر ويستنشده ويجيز عليه . . حتى لقد قال عنه : (من الشعر لحكمة) . .

وروى عن السيدة عائشة أنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بالشعر ويجعل أوله آخره) . . وهذا مايحدث منه غالبا . .

كما كان يحث شعراءه كحسان وأبى بن كعب ، للرد على شعراء المشركين وجاحدى فضله . وفى رواية عن الصحابى جندب رضى الله عنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يمشى إذ أصابه حجر فعثر ، فدميت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

والشعر لعبد الله بن رواحة . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إلى الشاعرة الخنساء ، عندما وفدت عليه وأنشدته من شعرها ، فكان يستزيدها بقوله وهو يومى بيده : (هيه ياخناس) . .

وليس بعجيب تقديره للمشاعر الصادقة المؤمنة . . وقد عرفنا عندما ألقى عليه كعب بن زهير قصيدته اللامية الشهيرة (بانت سعاد . .) أن أهداه بردته . . وأصبحت هذه المناسبة حديث ديوان العرب ، طيلة القرون . . ثم نهج على وزنها آخرون من الشعراء المجيدين ، فى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولعل أشهر ما سجله التاريخ الشعرى فى ذلك ، قصيدة العلامة محمد البوصيرى الميمية التى جرى تصريف فى تسميتها من (البردة) إلى (البرأة) لحصول الشفاء لصاحبها مما كان ملما به . فى مناسبة مدحه الصادق لسيد العالمين صلى الله عليه وسلم والتى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ومن هذه القصيدة الجامعة نختار هذه الأبيات :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أعيى الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعـد صغيرة وتكل الطرف من أمم

وكيف يدرك في الدنيا حقيقتـه قوم نيام تسلوا عنه بالحلـم

فمبلغ القول فيـه أنـه بشر وأنه خير خلق الله كلهـم

ومن تشطير هذه القصيدة ، نختار تشطير البيت الأخير هنا — من نظـم الشاعر المصرى : عبد العزيز محمد قال :

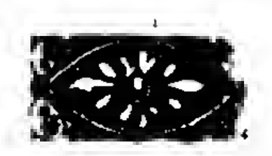
فمبلغ القـول فيـه أنـه بشر عز الملائك في تمجيد ربهم

وأنه أنقـذ الإنسان مـن وثن وأنـه خير خلق الله كلهـم

والحديث يطول ويطول . . كلما أردنا أن نستطرد فى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم — والبحث فى تاريخه الوضيء الذى شمل الكون فلا حدود له . .

وحسبنا أن جعلنا الله من أمته، وعلى هديه وسنته .

والله نسأله أن يجعل لنا العلم قصداً ، ويكتبنا فى الناجين ، على هدى سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . . .



خـاتمـة

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، آمين . .

نعم الحمد لله أولا وآخرا . . فله كل الفضل كان . . كانت فكرة تأليف (سيرة نبي الهدى والرحمة) قديمة ومن ضمن مشروعات أدبية نحاول وضعها بعد التحضير والإعداد لها . . كانت خاطراً هممت بتنفيذه مرة بالشعر ، فإذا بي أجد أنني سوف أقحم صوراً تعليمية وتركيبات لفظية بعيدة عن روح الشعر في مسماه الصحيح . . فاكتفيت بأن أخرجت قصيدة (أمجاد السماء) وضمنتها أحد دواويني الشعرية . . حتى إذا أعلنت (رابطة العالم الإسلامي) بمكة المكرمة عن مسابقتها القيمة للتأليف عن السيرة النبوية العطرة ، وجدت الحافز الذي عجل بتنفيذ رغبة قديمة حديثة . . بل هو أمل كبير كنت أرجو تحقيقه مع مسيرة الأيام ، وكنت أخشى أن لا أجد الفرصة ليصبح حقيقة أفخر بها وأعتز كوني أتشرف وأتناول السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . . بحثاً ودراسة وتأليفـــا . .

وقد كان الأمل والحقيقة . . أن وفقني الله وبدأت . . فكان كل أمر يتيسر لي . . وأستوفي بقية المراجع بسهولة . . حتى الصحة كأنما نشطت من عقال . . وحلت بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأواصل الاطلاع والبحث والكتابة ، متحديا كل العوائق المعيشية ومحتملا لكل المشاق برحابة وتفاؤل . . وإن كان كل هذا على حساب القلب المعتل . .

ولعل أهم ماتجدر الإشارة إليه . . أن شعرت براحة كبرى بعد إنجازي لتأليف كتابي هذا (سيرة نبي الهدى والرحمة) . . إذ لم يكن دوري مقتصرا على التأليف فقط ، بل كان التحقيق في المقام الأول ، إذ توجد في عديد من كتب

السيرة والتاريخ هنات وأغلاط ما كان لمن يأتى من الكتاب المحدثين أن يأخذ بها على علاتها دون فحص وتدقيق وتمحيص، لاستخلاص الرأى الصائب والرواية السليمة ..

فمثلا : كيف يصح أن ينقل خبر (موت زوج حفصة ابنة عمر بن الخطاب بأنه بعد غزوة أحد ، فى حين أن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بها كان قبل هذه الغزوة بعدة أشهر) . .
ومثل هذا كثير ، لايمكن كشف حقيقته إلا بالتحقيق التاريخى ، والوعى بكل الأحداث المتقاربة منها والمتباعدة . .

ولقد كنت آمل لو امتد زمن المسابقة إلى بضعة شهور أخرى ، لإمكان استيفاء بعض التطويل فى شرح أحداث كانت تحتاج للإطالة. . وفى إعداد فهارس كاملة للكتاب . .

ولا أضيف جديدا إذا قلت ، بأن اشتغالى بتأليف هذه السيرة . . كان معناه أن أتوقف عن كل نشاطاتى الأدبية الأخرى من تحبير المقالات والكلمات التى نلاحق بها الوضع العام لبلادنا . . كما أن الشعر هو بالمثل فى إجازة مرغمة إلا من مقطوعتين ، ومن مقالتين . . كانت هى حصيلة الشهور الماضية منذ شهر ربيع الثانى.

وإننى لأرجو أن أكون قد أديت واجباً على نحو إمامنا وهادينا خاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام . . كما أرجو أن أكون قد وفقت فى عملى المتواضع هذا الذى أحتسب عند الله الجزاء فيه . . ولسانى يردد بقوله تعالى :
(رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علـى) . . وعليك أتوكل وإليك أنيب : .

والصلاة والسلام على صاحب السيرة الطاهرة (نبى الهدى والرحمة) وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

المدينة المنورة
فى ١٣٩٦/١٢/١ هـ

عبد السلام هاشم حافظ

مراجع البحث

١ – القرآن الكريم
٢ – الصحيحان : البخاري ومسلم
٣ – السيرة النبوية لابن هشام
٤ – الطبقات الكبرى لابن سعد
٥ – عيون الأثر لابن سيد الناس
٦ – تاريخ الطبرى
٧ – الدرر فى السير للحافظ النمرى
٨ – بهجة المحافل لابن أبى بكر العامرى
٩ – زاد المعاد – لابن قيم الجوزية
١٠ – وفاء الوفا للسمهودى
١١ – السيرة الحلبية – للحلبي
١٢ – السيرة النبوية للسيد أحمد زينى
١٣ – الكامل فى التاريخ لابن الأثير
١٤ – دلائل النبوة للبيهقى
١٥ – خديجة أم المؤمنين – للزهراوى
١٦ – بنات النبي – لعائشة عبدالرحمن
١٧ – زوجات النبي – « «
١٨ – تاريخ الكعبة لباسلامة
١٩ – تفسير ابن كثير
٢٠ – شمائل الرسول لابن كثير
تحقيق د. مصطفى عبد الواحد
٢١ – تفسير ابن عباس
٢٢ – خلاصة السير للمحب الطبرى
٢٣ – مورد الصافى بمولد الهادى لشمس الدين الدمشقى
٢٤ – السرايا الحربية للدكتور محمد طنطاوى
٢٥ – سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحى
تحقيق د. مصطفى عبد الواحد
٢٦ – الشمائل لابى عيسى الترمذى
٢٧ – التجريد الصريح لأبى عباس الزبيدى
٢٨ – رسالة فى السيرة والمولد النبوى لشهاب الدين الغرناطى
٢٩ – الإشارة إلى سيرة المصطفى ، لعلاء الدين مغلطاى
٣٠ – تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر الطبرى
٣١ – التاريخ الكبير والصغير ، لمحمد البخارى
٣٢ – تاريخ ابن حيان
٣٣ – دلائل النبوة لابن قتيبة
٣٤ – « « لأبى نعيم الأصفهانى
٣٥ – الخصائص الكبرى للجلال السيوطى
٣٦ – الرسول فى القرآن لمحمود الشريف
٣٧ – محمد من بعثته إلى نبوته لمحمد صادق عرجون

السيرة المحمدية الخالدة لأحمد عز الدين

الرسول الأعظم وأهل بيته الأطهار للدلفى

دين الله واحد لمحمود أبورية

العواصم من القواصم لأبى بكر ابن العربى

فقه السيرة لمحمد الغزالى

حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين — للنبهانى والسيوطى

إنجيل برنابا — ترجمة : د. خليل سعادة

المدينة بين الماضى والحاضر للسيد إبراهيم العياشى

المدينة المنورة فى التاريخ — للمؤلف

الصيام عبر التاريخ — للمؤلف

أم أبيها سيدة النساء — من مخطوطات للمؤلف

٤٩ — لماذا أنا مسلم من مخطوطات للمؤلف

٥٠ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية— لمصطفى صادق الرافعى

٥١ — نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين — لمحمد الخضرى

٥٢ — الإتقان فى علوم القرآن — لجلال الدين السيوطى

٥٣ — مشكاة الأنوار — لمحي الدين ابن العربى

٥٤ — الشجرة المحمدية — بإشراف عمر أبو النصر

٥٥ — لماذا عدد النبي زوجاته ، أحمد الحوفى

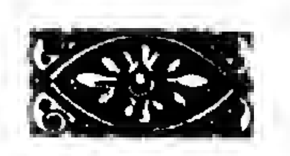
٥٦ — معجم البلدان

٥٧ — الموسوعة العربية الميسرة

٥٨ — دواوين عديد من الشعراء

٥٩ — موطأ الإمام مالك

٦٠ — السيرة الكاملية فى السيرة النبوية — لابن النفيس



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

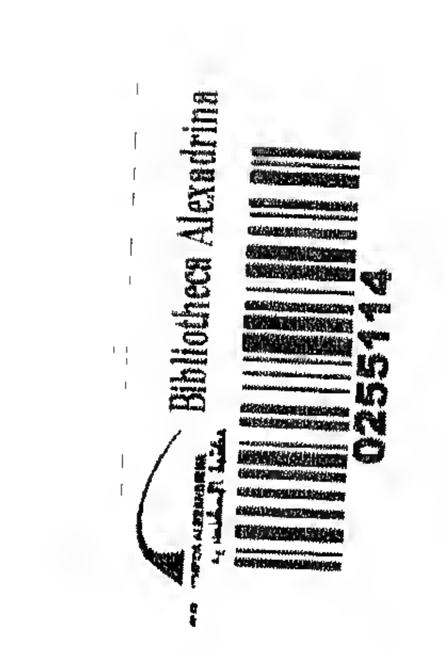
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
رجال من الدولة الأولى	٤٢٦
سلاح الرسول ودوابه	٤٢٨
القرآن معجزة النبي الخالدة	٤٣٠
نبي الهدى والرحمة من آدابه وذكرياته وتعاليمه	٤٣٧
محمـــد فى التاريخ	٤٤٨
المراجع	٤٥٩



طبع في
مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر
جدة - طريق مكة - كيلو خمسة



منشورات رابطة العالم الاسلامي
مكة المكرمة